



المجلة السياسية والدولية

- القوميات وتأثيرها على العلاقات الدولية
- الجيوبولتيك ونظرية صدام الحضارات
- النظام الفيدرالي في العراق بين الواقع والطموح
- الحوار وقبول الآخر في التراث الاسلامي
- بحوث المؤتمر العلمي السنوي الاول لكلية العلوم السياسية
الجامعة المستنصرية
- رؤى الاكاديميين في بناء العراق الجديد

BAGHDAD No. 8 2008

عرض الكتاب
المرجعية الفكرية
للخطاب السياسي
الاستراتيجي
الامريكي
مابعد الحادي عشر
من ايلول / سبتمبر

2001

السنة الثانية - العدد الثامن - ٢٠٠٨



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة المستنصرية

كلية العلوم السياسية

المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية

٢٠٠٨

العدد الثامن

السنة الثانية

أ.د. ناظم عبد الواحد الجاسور

عميد الكلية - المشرف العام

رئيس التحرير..... أ.م.د. عبد الأمير محسن جبار

مدير التحرير..... م.م. سعد سلوم

المدير الفني..... السيد ماجد قاسم نعمان

هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور سعيد حميد حميد

الأستاذ المساعد الدكتور وائل محمد اسماعيل

الأستاذ المساعد الدكتور حبيب عبد القادر الشاوي

الأستاذ المساعد الدكتورة نوار محمد ربيع

الأستاذ المساعد الدكتور ملوك حميد

الأستاذ المساعد الدكتور حميد نفل النداوي

ISSN = 1991-8984

المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية الجامعة المستنصرية

الهيئة الاستشارية



الأستاذ الدكتور احمد يوسف احمد

عميد معهد الدراسات والبحوث العربية- الجامعة العربية- القاهرة

الأستاذ الدكتور احمد عبد الرحيم الخلايلة

رئيس مركز المستقبل للدراسات الاستراتيجية -عمان- الاردن

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني

امين عام اتحاد المؤرخين العرب

الأستاذ الدكتور محمد جواد علي

مركز الدراسات الدولية-جامعة بغداد

الأستاذ الدكتور جعفر عباس حميدي

استاذ التاريخ العراقي المعاصر-جامعة بغداد

الأستاذ المساعد الدكتور ثامر كامل محمد

مديرية الاشراف والتقويم العلمي-وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-بغداد

الأستاذ المساعد الدكتور خيرى عبد الرزاق جاسم

رئيس مركز الدراسات الدولية-جامعة بغداد

قواعد النشر

ترحب المجلة السياسية والدولية والتي تصدرها كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية بإسهامات الكتاب والمفكرين من الكليات في الجامعات العراقية والعربية والمتخصصة بالقضايا السياسية والعلاقات العربية-العربية-الدولية، مع الاهتمام بشكل خاص بما يتعلق بالمشروع السياسي والحضاري والنهضوي العربي وتحيطكم علماً بشروط النشر فيها:

١. ان تعالج القضايا بأسلوب علمي موثق.
٢. ان يكون التوثيق بذكر المصادر والمراجع أكاديمي، يتضمن الكتب والمجلات.
٣. معيار النشر هو الموضوعية والدقة ودرجة التوثيق.
٤. ترسل البحوث بنسختين مع قرص مرن.
٥. ان لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن اربع عشرة صفحة A4.
٦. يشترط ان لا تكون البحوث او الدراسات قد نشرت في مجلات أخرى.
٧. تخضع البحوث او الدراسات المرسله الى التحكيم العلمي من جانب الهيئة الاستشارية في المجلة.
٨. تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير.
٩. لا تدفع المجلة او الكلية أي مكافآت مالية عما تقبله من النشر فيها ويعد النشر اسهاماً معنوياً من الكاتب.

أن الآراء الواردة في البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة او الكلية

الاشتراك في المجلة تراجع كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية

بغداد- باب المعظم - صندوق بريد ٤٦١٥٩

هاتف ٠٧٩٠١٩٢٣١٥٢ ، ٤١٤٠٨٥٢ ، ٤١٤٠٨٥١

البريد الالكتروني : Psc_Mustainsiriyah@yahoo.com

E-mail: politicalcollege@yahoo.com

الافتتاحية

بانعقاد المؤتمر العلمي السنوي الاول لكلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية في الثاني عشر من يناير/كانون الثاني ٢٠٠٨، تكون الكلية قد خطت خطوة متقدمة بهدف ترسيخ مسيرتها العلمية والاكاديمية، حيث ان (رؤى الاكاديميين العراقيين في اعادة بناء العراق الجديد) تشكل مساهمة فعالة في بلورة رأي مشترك لوضع الاسس الصحيحة لاعادة الاعمار وفي كافة المجالات، حيث الاركان الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تمثل المرتكزات الاساسية في تشييد الصرح المعماري الجديد. وهذا العدد يضم المحور الاول الذي تناوله المؤتمر بالدراسة والتحليل، ومن خلال الدراسات التي طرحت وجهات نظر متعددة الا أنها تلتقي في هدف مركزي واحد هو أن ترسيخ وتعزيز المسيرة الديمقراطية كفيل بتحقيق الوحدة الوطنية لشعب يتسم بالتنوع الثقافي، ومن هذا التنوع يستمد قوته وصلابة نسيجه الاجتماعي المتأصل في تربة هذا الوطن العزيز. كما يضم العدد دراسات اخرى تناول مواضيع مختلفة.

والله الموفق.....

المشرف العام

الأستاذ الدكتور

ناظم عبد الواحد الجاسور

عميد كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية



رقم الصفحة

اسم العادة

رقم الصفحة	اسم العادة
١	افتتاحية العدد
١	الجنود المستورية لحقوق الانسان
١٩	الدكتور عماد محمد ربيع الدكتور علي عبد الرزاق الزبيدي
٤٥	القبومات وتأثيرها في العلاقات الدولية
٧٧	المدرس المساعد حسين مصطفى احمد الصلمة النفطية الثالثة لاسعار النفط في الاسواق العالمية
٩١	اشكالية ضعف الدولة الغنية
١١٣	المدرس المساعد وعد قاسم صالح مجى المؤتمر السنوي العلمي للدراسات الدولية للسياسة العامة (المستنصرية-المدرس)
١٣٩	تعزيز الوحدة الوطنية العراقية بين الفيدرالية والمركزية وتعديل الدستور
١٤٩	الدكتور عامر حسن لياض الفيدرالية والديمقراطية
١٦٥	ثقافة التسامح وجدلية العلاقة بين الآنا والآخر
١٧٩	الحوار والقبول الآخر في التراث الاسلامي
١٩٧	المطوية-وازمة الانتماء
٢٠٥	المدرس المساعد علاء جبار احمد آفاق تعزيز العلاقة بين المجتمع المدني والديمقراطية في العراق
٢١٧	المدرس المساعد سعد حميد ابراهيم النظام الفيدرالي في العراق (واقع وطموح)
٢٠٩	الدكتور علي حسين جلود الدكتور ماجد عبال وهيب
٢١٧	عرض كتاب: الترجمة الفكرية للخطاب السياسي الاستراتيجي
٢٠٩	الامريكي ما بعد الحادي عشر من ايلول/سبتمبر
٢٠٩	عرض: م.م. زياد طارق

كلية العلوم السياسية
الجامعة المستنصرية



المجلة
السياسية
والدولية

8

2008

ISSN
1991-8984

الجذور الدستورية لحقوق الانسان

الدكتور

الدكتور

علي عبد الرزاق الزبيدي^(**)

عماد محمد ربيع^(*)

المقدمة:

ان مهمة القانون الدستوري هي للتعايش بين السلطة والحرية في اطار الدولة فكل مجتمع له اهداف لا بد من تحقيقها، ومنها الاهداف الفردية التي لا يمكن ان تتحقق الا اذا توفرت للناس بعض الحريات التي تسمح لهم بتحقيق شخصيتهم^١.

ان القانون الدستوري هو فرع من فروع القانون الذي يهتم بدراسة القواعد القانونية المدونة في الدستور لا غير بل ان القانون الدستوري كما يرى بعضهم هو علم الدساتير المكتوبة^٢.

ومن هنا نتضح لنا الصلة بين حقوق الانسان وحرياته بمختلف فروع القانون بشكل عام وبالقانون الدستوري بشكل خاص. ويمكن معرفة تلك العلاقة ايضاً من خلال الاطلاع على فكرة الدستور نفسه والتي تعود الى الحضارات القديمة، فأرسطو نراه يجمع (١٥٨) دستوراً من دساتير المدن اليونانية وغير اليونانية لدراستها وتحليلها^٣.

ويمكننا القول ان الوثيقة التي تم الاتفاق عليها بين المهاجرين والانصار واليهود بعد وصول الرسول الكريم محمد "صلى الله عليه وسلم" الى المدينة المنورة (يثرب سابقاً) لتنظيم العلاقة بين الاطراف الثلاثة هي بمثابة دستور^٤، اذ احتوت على حقوق الاطراف جميعاً، وجاءت لتشكّل القانون الاساسي للدولة الاسلامية بعد ان اكتملت عناصر الدولة الثلاثة وهي التجمع البشري، والاقليم، والسلطة^٥. كما شهدت اوربا في بداية العصور الوسطى صيغة مماثلة واقرّب ما تكون الى الصيغة

^(*) استاذ مشارك كلية الحقوق/جامعة جرش

^(**) استاذ مشارك كلية الحقوق/جامعة جرش

^١ Andre' Hauriou et Jean Gicquel: "Droit Constitutionnel et Institutions Politiques" Montchrestien, Paris, 1988, 8eme, p.29et30.

^٢ الدكتور الامين شريط: "الوجيز في القانون الدستوري والمؤسسات السياسية" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ٢٠٠٢، الطبعة الثانية، ص١٠٨.

^٣ للمصدر السابق نفسه ص١٠٨.

^٤ الدكتور محمد شريف بسونتي: "الوثائق الدوائية المعنية بحقوق الانسان"، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م، المجلد الثاني، الطبعة الاولى، ص٢٧.

^٥ الدكتور علي عبد الرزاق الزبيدي: "القانون الدستوري"، محاضرات غير منشورة القيت على طلبة الماجستير في القانون العام في كلية القانون، الجامعة المستنصرية، العام الدراسي ٢٠٠٤-٢٠٠٥.

للدستورية التي تتضمن حماية حقوق الانسان وحرياته والتي تمثلت في الوثائق والاعلانات لكل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية، مثل ميثاق العهد الاعظم (المالكا كارتا)، واعلان الاستقلال الامريكي^٦. الا ان الشكل الحديث للتعايش بين السلطة والحرية او لنقل بشكل ادق لتنظيم الحكم ومن خلال وثيقة دستورية مكتوبة في دستور فرجينيا عام ١٧٧٦ الذي يعد اول دستور مكتوب^٧ لولاية، أعقبه الدستور الكونغرسالي عام ١٧٨١، ثم صدر اول دستور مكتوب لدولة فيدرالية وهو دستور الولايات المتحدة الامريكية عام ١٧٨٧ والعمول به الى الوقت الحاضر.

وقد عد الدستور المكتوب اداة الحرية وضمانة لحقوق المواطن وبالشكل الذي لا تمتد اليها يد المشروع، ثم انتقل الى الضفة الاخرى للاتطلسي (اوروبا) لتكون فرنسا اول دولة اوربية تضع لها دستوراً مكتوباً عام ١٧٩١ حمل هذا في مقدمته على اعلان حقوق الانسان والمواطن لعام ١٧٨٩ ولكون هذه المقدمة صيغت في اطار قانوني. ولوضوح الدستور المكتوب ولسهولة التعرف عليه من قبل المواطن انتشر في باقي دول العالم من خلال موجات الدسترة الاربعة وهي:

الاولى بدأت بعد الثورة الفرنسية واعلان الاستقلال الامريكي، والثانية ارتبطت بالثورتين الفرنسيتين لعامي ١٨٣٠ و١٨٤٨، وجاءت الثالثة بعد الحرب العالمية الاولى، في حين كانت الرابعة بعد الحرب العالمية الثانية^٨.

^٦ الدكتور رياض عزيز هادي: "حقوق الانسان تطورهامضامينهاحمليتها، مكتبة الماهر، بغداد، ٢٠٠٥، ص ١٧، وما بعدها.

^٧ تقسم المسامير من حيث الشكل الى مدونة (مكتوبة) ولخرى غير مدونة (عرفية)، والدستور غير المدون (العرفي) ينشأ من العرف الدستوري الذي يولد من خلال تكرار العمل بقاعدة دستورية تتعلق بالمر يتناول ممارسة السلطة، او انتقالها فيخلق قاعدة دستورية، ويعتبر الدستور الاتكوزي المثال التقليدي لهذا النوع من المسامير، حيث يحتوي على قواعد دستورية عرفية، بجانب اخرى مكتوبة. ينظر في ذلك الى:

- الدكتور محمد علي آل يساين: "القانون الدستوري والنظم السياسية"، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٤، الطبعة الاولى، ص ٣٢ وما بعدها.

- Benoit Jeanneau: "Droit Constitutionnel et Institutions Politiques" Dalloz, Paris, 1978, p.p.26-64.

- الدكتور الامين شريط: مصدر سابق، ص ١٧١.

- الدكتور احسان حميد المرفجي والدكتور كطران زغير نعمة والدكتور رعد الجدة: "النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق"، وزارة للتعليم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ١٩٥-٢٠٩.

^٨ Andre Hauriou et Jean Gicquel: "Op. cit., p.p. 78 et 82.

ولتوضيح العلاقة بشكل ادق بين حقوق الانسان وحرياته بالقانون الدستوري لابد من تعريف الدستور نفسه. لقد طرحت تعاريف عديدة للدستور الا اننا يمكن ان نحدد ثلاثة اوجه هي:

الوجه الاول: وينطلق من منظور قانوني صرف فيرى ان الدستور هو تلك الوثيقة الاساسية للدولة التي تحدد شكلها (موحدة لم فيدرالية)، وشكل الحكم (ملكسي ام جمهوري)، وشكل النظام (برلماني، رئاسي، شبه رئاسي، الخ) ويعد هذا التعريف محايداً.

الوجه الثاني: ويؤكد على الجانب السياسي الذي يعطي شكلاً معيناً للنظام السياسي، فالدستور في عرف من قاد الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩ هو الذي يضمن الحريات الفردية من خلال تحديد نشاط الحكام وتقييدها، وما يؤكد ذلك ما جاء في الاعلان الفرنسي لحقوق الانسان والمواطن (١٦) التي تنص على "ان المجتمع الذي يتوفر فيه دستور هو المجتمع الذي تضمن فيه الحريات الفردية، ويتحقق فيه الفصل بين السلطات".

الوجه الثالث: يتسم هذا الوجه بسمات اقتصادية واجتماعية لا يرى ان الدولة ليست هدفاً بحد ذاتها، وانما وسيلة في خدمة نظام اجتماعي معين^٩.

واخيراً يعرف الدستور من الناحية الاصطلاحية بكونه (مجموعة القواعد المتعلقة ببيان مصدر السلطة وتنظيم ممارستها، وانتقالها والعلاقة بين القابضين عليها. كذلك تلك المتعلقة بالحقوق والحريات العامة في الدولة، سواء وجدت هذه القواعد في صلب الوثيقة الدستورية او خارجها)^{١٠}.

الا ان هناك من يرى غير ذلك، وحسب وجهة النظر هذه فان للقانون الدستوري مفهوماً تاريخياً، كما انه من صنع الطبقة البرجوازية في صراعها ضد الملكية المطلقة في القرن السابع والثامن عشر بل وحتى في القرن التاسع عشر، اذ لارانت هذه الطبقة ان تسيطر وتؤدي دوراً سياسياً فنادت بغرض قيود للحد من السلطة الملكية وللسيطرة عليها، كما ان مبدأ الفصل بين السلطات قد جاء لصالح الدولة الرأسمالية لان هذا للمبدأ هو الاساس والركيزة

^٩ الدكتور رقية المصنق: "القانون الدستوري والمنظمات السياسية"، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٦، الجزء الاول، الطبعة الاولى، ص ٧٤-٧٥.

^{١٠} الدكتور احسان المغربي والدكتور طحان زغير نصة والدكتور رعد الجدة: مصدر سبق، ص ١٦١. كذلك انظر:

Eric Oliva: "Droit Constitutionnel", Dalloz, Paris, 2004, p.1

التي اعتمدتها الدساتير حديثة الولادة. وهذا المفهوم للدساتير يقوم على قاعدة ان كل قانون ينظم وظيفة من وظائف الدولة الرأسمالية، كما ان هذا المبدأ يمس حسب وجهة نظر بول اليز حتى التصويت في الانتخابات¹¹.

مما سبق يتبين لنا ان هناك صلة وثيقة بين حقوق الانسان وحرياته بالقانون الدستوري لا بل هي جزء منه ان لم تكن وكما نعتقد الجزء الاهم.

لقد كانت بداية الاهتمام بحقوق الانسان وحرياته باعتبارها قواعد قانونية ملزمة في بريطانيا، وكان ذلك في ميثاق العهد الاعظم (الماكنا كارنا) الذي صدر في ١٢١٥ اذ مثل اول الوثائق واهمها التي قيدت سلطة الملك المطلقة، ثم تلتها وثائق واعلانات اخرى اتضحت اهميتها من خلال ضمان حقوق وحریات المواطن من جهة، وتقيد سلطة الملك من جهة اخرى.

اما في امريكا الشمالية فقد كانت هناك ثلاثة عشر مستعمرة خاضعة لبريطانيا والتي شكلت بعد استقلالها ما يعرف اليوم بالولايات المتحدة الامريكية من خلال اعلان الاستقلال عام ١٧٧٦ الذي اكد على كون حقوق الانسان وحرياته هي حقوق طبيعية¹². وقد تضمنت هذه الوثائق والاعلانات الجزء الاهم من دستور البلدين.

¹¹ Paul Allie's: "Elments de droit Politique", Les édition du Fauborg, Montpellier, 1981, p.38.

¹² لقد نالت مدرسة الحقوق الطبيعي بوجود قانون طبيعي نابع من طبيعة الانسان ومن عقله، يسبق كل القوانين الوضعية ويدعى منها وهي عبارة عن الحقوق الطبيعية للأفراد والتي هي حقوق ملازمة للطبيعة البشرية وهي ثابتة للانسان وهو في حالة الطبيعة اي قبل وجود الدولة وتحدث عنها مفكرو العقد الاجتماعي. وقد جاء اعلان حقوق الانسان والمواطن الفرنسي مؤكداً عليها من خلال المادة الثمانية التي تنص على: "ان هدف كل تجمع سياسي هو الحفاظ على حقوق الانسان الطبيعية غير القابلة للتقادم وهذه الحقوق هي الحرية، الملكية، الأمن وملازمة الطغيان". كما وردت كذلك في اعلان الاستقلال الأمريكي اذ نص على: "ان جميع البشر قد خلقوا متساوين، وان خالقهم قد حباهم بحقوق معينة لا تنتزع، ومن بينها حق الحياة، الحرية، والسعي في سبيل تحقيق السعادة".

المبحث الاول

الارث البريطاني

لقد كان اهتمام الشعب البريطاني وحرصه على حقوقه وحرياته كبيراً فقد بدأ بوضع اسس هذه الحريات منذ ثمانية قرون تقريباً وكان ذلك في العهد الاعظم الذي اكتسب شهرة واسعة وكان مصدراً لكثير من الوثائق والسناتير اللاحقة، وقد تضمن الدستور الأمريكي في اجزاء غير قليلة منه هذا الارث. فضلاً عن ذلك ان بريطانيا كانت اول بلد قيد صلاحيات المجلس الاعلى وبشكل تدريجي حتى اصبح مجلس اللوردات مجلساً استشارياً بعد ان تم تحويل صلاحيات الملك الى مجلس الوزراء.

ولو امعنا النظر قليلاً في حقيقة المؤسسات الانكليزية لوجدنا انها تمثل نموذجاً للديمقراطية. ولعل من اسباب هذا النجاح هو (كون الانكليز تقليديون يحترمون مؤسساتهم القديمة، كما وصفوا بانهم اصدقاء القانون ويعشقون الحرية)^{١٣}.

ومن اهم تلك الوثائق والاعلانات هي:

١. ميثاق العهد الاعظم (١٢١٥) Magna Carta

٢. عريضة الحقوق (١٦٢٨) The Petition of Right

٣. الاشعار القضائي (١٦٧٩) Habeas Corpus

٤. لائحة الحقوق (١٦٨٩) Bill of Rights

اولاً: ميثاق العهد الاعظم (١٢١٥) Magna Carta^{١٤}

يعد هذا الميثاق ثمرة لثورة النبلاء على الملك جون ويعد من اهم الوثائق البريطانية التي قيدت صلاحيات الملك التي تمتلكت بحقوق النبلاء وحرية الكنيسة من خلال احترام الحريات الفردية (الامان الشخصي وحرية التجارة). كما أكد للميثاق على عدم جواز اصدار

^{١٣} Andre' Hauriou et Jean Gicquel: "op. cite.", p.338.

ينظر كذلك الدكتور منذر الشاوي: "القانون الدستوري"، (نظرية الدستور)، منشورات مركز البحوث القانونية، بغداد، ١٩٨١، ٢٣٥ وما بعدها.

^{١٤} عد ان بالغ الملك جون في طغيانه وجمع الاموال بالشكل الذي ارقق الجميع ووصل الى حد تهديد مصالح النبلاء ورجال الدين. وقلت كلا الطبقتين ضده ودخلت معه في صراع خسر فيها الملك، مما اضطره الى التنازل والتوقيع على هذا العهد الذي قيد صلاحياته، اذا ليس صحيحاً وصف العهد بأنه منحة من الملك لان الاخير قد وافق عليه مكرهاً وليس مخيراً.

للضرائب بصورة استثنائية لا يوافق عليها المجلس¹⁶، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مواده وهي:

المادة الاولى: حق الكنيسة في انتخابات حرة.

المادة الثالثة عشر: مستمتع لندن كما هو الحال بالنسبة للقصببات والموانئ بحرية العمل والتحرك بشكل مجاني.

المادة العشرون: اكدت على العدالة في الغرامات التي تفرض، كما يجب ان تتناسب والفعل وبالشكل الذي لا يمنع من اعطه عائلة، والتاجر بان لا تهدر تجارته والفلاح ان لا يفقد ادواته.

المادة الثالثة والعشرون: وجاعت بتحريم اعمال المخرة وتنص على عدم اجبار الناس او البلدان على بناء الجسور.

المادة التاسعة والثلاثون: ونصت على عدم جواز سجن رجل حر او الاستيلاء على ممتلكاته او نفيه الا بقانون.

المادة اربعون: اكدت على حرية التنقل ونصت على حرية التجارة، والتجار احرار في عملهم وتقتلهم وهم يعملون من دون خوف امنين.

المادة الثانية والاربعون: ونصت على حق كل انسان في التنقل داخل المملكة او الى بلد اخر على ان لا يكون في حرب مع لئكلترا.

المادة الخامسة والخمسون: حيث نصت على ان الغرامات التي اعطيت الى الملك وما يتعلق بالارض وكل الغرامات التي لنتزعت بشكل ظالم ستعا.

المادة الثالثة والستون: وقد جاءت لتؤكد على حق الكنيسة بالعمل بكل حرية كما سيستمتع الرجال في المملكة بكل الحقوق والحريات وفي كل الاماكن والى الابد.

¹⁶ "من تقرر اي مساعدة في مملكتنا، الا عن طريق المجلس العلم لمملكتنا، باستثناء نلقنتنا الشخصية وتجهيز ولدنا البحر فارساً وترويج ابننا ابرار لأول مرة. وفي هذه الاحوال يجب الا تتعدى المساعدة الحد المعلوم".

ينظر: Andre, Hauriou et Jean Gicquel: "OP. Cité, P.173.

ثانياً: عريضة الحقوق (١٦٢٨) The Petition of Right

هذه العريضة هي الاخرى جاءت بعد صراع بين البرلمان والملك شارل الاول، إذ اضطر الاخير الى الموافقة، وتضمنت العريضة حقوق البرلمان وتذكر بحقوق المواطن^{١٦} :
المادة الاولى: منع فرض اي ضريبة من دون موافقة للبرلمان.
المادة الثالثة: ونصت على عدم جواز سجن شخص او الاستيلاء على ارضه او حرمانه منها او من حق الحياة الا باستحقاق وضمن القانون.

ثالثاً: الاشعار القضائي (١٦٧٩) Habeas Corpus (قانون الاحضار)

لقد جاء هذا القانون حلاً لمشكلة من يعتقل دون حق ومن دون اتباع الشكليات الاصولية في الاعتقال، فهي مذكورة بصورها القاضي تلزم الجهة التي تعتقل الشخص ان يأتي به الى المحكمة ويبين مسؤول السجن عن الاسباب التي ادت الى اعتقال هذا الشخص وما لحرية الانسان من اهمية كبرى فان القاضي يترك للقضايا التي امامه ويتولى هذه القضية. فاذا وجد القاضي ان هذا الشخص بريء مما نسب اليه يطلق سراحه فوراً واذا كان مذنّباً يعود الى سجنه^{١٧}.

وقد كان الاشعار بمثابة لجراء لتقادي حجز حرية الانسان او لنقل حالات نسيان المعتقلين او التعمد بأبقتهم في السجن من دون محاكمة والتي قد تصل احياناً الى ان يقتل المسجون داخل سجنه قبل لجراء المحاكمة.

رابعاً: لائحة الحقوق (١٦٨٩) Bill of Rights

- لقد قوبلت هذه اللائحة كثيراً من صلاحيات الملك فقد جاءت:
- منع الملك من انشاء محاكم خاصة يتولى فيها الحكم بنفسه.
 - لا يجوز للملك التدخل في انتخابات البرلمان التي اصبحت حرة.

¹⁶ http://en.wikipedia.org/wiki/Petition_of_Right

¹⁷ الدكتور محمد سعيد مجنوب: "الحريات العامة وحقوق الانسان" جروس برس، طرابلس، لبنان، ١٩٨٦، ص ٣٩-٤٠.

- لا يجوز انزال العقوبات القاسية والتي سميت بـ (الوحشية والشاذة) وقد عدت ممارسات الملك جيمس الثاني بانها غير مشروعة الى جانب عدم فرض كفالة مبالغ فيها، مع منع فرض ضرائب من دون محاكمة.
 - شكلت بعض مواد اللائحة خطوة يمكن القول عنها انها لنقلية من الحكم المطلق (الملكية المطلقة) الى الحكم المقيد (الملكية الدستورية)، اذ نصت على (حذف حقوق الحكم الملكي)¹⁸.
- وتعد هذه الوثائق والاعلانات مع ما صدر من قواعد دستورية عرفية الاساس الذي قامت عليه دولة القانون في المملكة المتحدة اليوم¹⁹.

المبحث الثاني

الارث الأمريكي

بعد اكتشاف قارة أمريكا الشمالية وهجرة الأوروبيين إليها، استقر قسم منهم على الأرض الممتدة بين كندا شمالاً والمكسيك جنوباً والتي تعرف اليوم بالولايات المتحدة الأمريكية، واقاموا عدداً من المستعمرات تخضع للتاج البريطاني مطلّة على المحيطين الأطلسي والهادي وبطول (١٦٠٠ كم). وكانت تنقسم باقتصاد زراعي مع وجود بعض الصناعات في قسمها الشمالي، وقد اراد الإنكليز لبقاء تلك المستعمرات على ما هي عليه، في حين لم تكن تلك رغبة السكان ونتيجة لارهاق كاهلهم بالضرائب التي تفرض عليهم وآخرها كان في عام ١٧٦٤ و ١٧٦٥ وهي ضريبة السكر ولتتمتع بدأ التوتر بين السكان والقوات

¹⁸ ينظر على شبكة الانترنت: http://en.wikipedia.org/wiki/Bill_of_Right.1689

¹⁹ دولة القانون بمفهومها الواسع: هي تلك الدولة التي تقيم التوازن بين ضرورات السلطة وضمنات الحقوق والحريات، لان تغليب ضرورات الحقوق والحريات العامة يؤدي الى الفوضى. ومن الضمقات التي تكفل تطبيق تلك الاعتراف بالحقوق والحريات الاساسية وهي (الحريات الفردية-الحرية، المساواة، الملكية). كذلك تلتزم بكل الحقوق والحريات للنظام القانوني وبالفصل بين السلطات واستقلال القضاء، وفي الامس كان يطلق على دولة القانون بالمشروعية اما اليوم فنجد بعض الكتاب ومنهم اريك اوليفيه في كتابه القانون الدستوري يطلق اسم "دولة القانون الدستوري". E'ric Oliva: "OP.cite", p.p32-40.

ينظر على شبكة الانترنت 2005 <http://www.islamonline.net>

بحث منشور بقلم الدكتور بسلام دلة

البرطانية ليتطور بعد ذلك الى نزاع مسلح عام ١٧٧٥ واعلان المستعمرات الاستقلال الواحدة تلو الأخرى، واعلان الاستقلال للمستعمرات الثلاثة عشر عام ١٧٧٦. واستمرت الحرب بين مليشيات للمستعمرات والجيش النظامي البريطاني طيلة ست سنوات لتنتهي بانتصار سكان المستعمرات بمساعدة فرنسا وذلك في تشرين اول ١٧٨١ والتوقيع على المعاهدة التي نصت على استقلال المستعمرات عن بريطانيا عام ١٧٨٣. وسنتناول اهم ما جاء في اعلان الاستقلال والتعديلات الدستورية، ولاسيما العشر الاول والتي يطلق عليها (وثيقة الحقوق) عام ١٧٩١ في فقرة ثانية. أولاً: اعلان الاستقلال ١٧٧٦.

لقد كان تأثر واضعي الاعلان بفلاسفة القرن الثامن عشر كبيراً، فالسمة الفردية كانت واضحة فيه من خلال التأكيد على ان الناس متساوون في حق الحياة والحرية، فقد نص الاعلان على ثحن نؤمن ان الحقائق التالية هي من البديهيات وهي ان جميع البشر قد خلقوا متساويين، وان خالقهم قد حباهم بحقوق معينة لا تنتزع، ومن بينها حق الحياة، الحرية، والسعي في سبيل تحقيق السعادة²⁰. والى جانب ما سبق لابد من ذكر ما يأتي:

- أكد الاعلان على ان هذه المستعمرات متحدة، ويجب ان تكون حرة.
- هدف الاعلان قبل كل شيء هو اخبار العالم بالاسباب التي دعت المستعمرات الى اعلان الاستقلال وقد حددت بـ(عطل تطبيق العدالة.. وجعل بقاء القضاة مرهون بمشيتته وحده.. ابقى بين ظهرانيها جيوشاً مستديمة في وقت السلم، ودون موافقة هيئات التشريعية.. ولانه لو وقف تجارتنا مع مختلف ارجاب العالم.. فرض علينا الضرائب دون رضائنا.. نهب بحارنا، وخرب شواطئنا أو احرق مدننا، وحطم حياة شعبنا.. وفي كل مرحلة من مراحل التظلم والاضطهاد قمنا بكل تواضع بتقديم الاتماسات بغية تحقيق العدل والاتصاف، غير ان التماساتنا المتكررة لم تكن تقابل

²⁰ ينظر اعلان الاستقلال في:

Larry Elowitz "Introduction to governemet", Harper Collins Publishers, 1992.

مترجم الى العربية تحت عنوان "نظام الحكم في الولايات المتحدة الامريكية" من قبل جابر سعد عوض، الجمعية المصرية لتشر المعرفة والثقافة العلمية، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٣٢١-٣٢٥.

الا بنفس الظلم والاضطهاد)^{٢١}. ليأتي بعدها اعلان ليؤكد على حق الشعب بتغيير الحكومة القائمة على الاستبداد والظلم ففص على: "من حق الشعب، لا بل من واجبه، ان يسقط مثل هذه الحكومة وان يقيم مكانها حراساً جدد لأمنه في المستقبل"^{٢٢}. ثم يأتي بعد ذلك ليؤكد على حق المستعمرات في اساتقلال فيقول: "من حق هذه المستعمرات المتحدة، بل من واجبها ان تكون حرة مستقلة، وانها قد تحللت من جميع صور الازعان للتاج البريطاني، ومن كل الروابط السياسية بينها وبين بريطانيا العظمى"^{٢٣}. ونرى ان ذلك كان اهم ما اراد قوله واضعوا الاعلان، بل ان احد اهم اسمه. فأنهم لم ينتظروا على حكومة شرعية بل ظالمة مستبدة، وهناك هدف اساس آخر هو للتعبير عن نظرية سياسية تبرر الانفصال عن بريطانيا من خلال الادعاء بأن حقوق الانسان قد انتهكت بشكل مهين وفاضح. ولابد من القول ايضاً ان الفكر السياسي الأمريكي قد تطور عن الفكر السياسي البريطاني آنذاك. وبالتالي ان تبني الامريكان لهذا الفكر الجديد قد دفعهم الى الرسائل حول مشكلة الدستور الذي شكلت حقوق الانسان جانباً مهماً منه مع التعديلات التي اضيفت لاحقاً (وثيقة الحقوق)^{٢٤}.

ثانياً: وثيقة الحقوق (التعديلات الدستورية العشرة المتعلقة بحقوق الانسان وحريته ١٧٩١.
بعد نجاح الثورة والفوز بالاستقلال، كانت هناك ولادة للدستور الأمريكية الذي احتوى على القوانين الأساسية للدولة وذلك عام ١٧٨٧^{٢٥}، ثم جاءت التعديلات الدستورية العشرة التي اقترحت في ٢٥ ايلول ١٧٨٩ والتي تم اقرارها بعد حصول الموافقة عليها في ثلاثة ارباع الولايات والتي تعرف بوثيقة الحقوق في ١٥ كانون الاول ١٧٩١، ثم جاء التعديل الرابع عشر حول الحقوق المدنية مع التعديل الخامس عشر الذي أكد على حقوق السياسية ليكمل النقص في دستور الأمريكي وسنتناول اهم ما جاء في هذه التعديلات:

^{٢١} اعلان الاستقلال، المصدر السابق نفسه.

^{٢٢} اعلان الاستقلال، المصدر السابق نفسه.

^{٢٣} اعلان الاستقلال، المصدر السابق نفسه.

^{٢٤} Yves Henri Nouailhat: "Histoire des doctrines politiques aux Etat-unis", que sais-Je, P.U.F, 1977. P.P.16-18.

^{٢٥} يتألف دستور الولايات المتحدة الأمريكية من سبعة مواد وسبعة وعشرين تعديلاً، والآخر تم اقراره عام ١٩٩٢. ينظر على شبكة الانترنت مواقع Google دستور الولايات المتحدة الأمريكية ووثيقة الحقوق ونشرة واشنطن:

<http://www.usinfo.state.gov.2005>.

التعديل الاول:

تقد جاء هذا التعديل ليقوي العلمانية اي فصل الكنيسة عن الدولة، اذ لا يوجد دين رسمي للدولة، كما ان على الدولة ان لا تفصل دين على اخر او تتحاز لدين معين. لذلك نرى المحكمة العليا الفيدرالية تعد ان اي مساعدة للمدارس الدينية التي تدعمها الكنيسة عملاً مخالفاً للدستور. كما ان الدولة لا تستطيع

اكرهه شخص على الالتزام بدين معين وبالوقت نفسه فان حرية الممارسة الدينية لا تعني اعطاء الاذن بارتكاب ممارسات دينية ضارة او ضد المجتمع، فالمحاكم لا تسمح بممارسة شعائر دينية يقدم فيها البشر انفسهم كأضحية²⁶.

كما وجدنا أيضاً ان التعديل يمنع اصدار قانون يحرم الانسان من حرية الكلام او الصحافة، الا ان ذلك لا يمنع الدولة من وضع قيود في حالة الضرورة²⁷. ونجد ذلك واضحاً في نص التعديل: "لا يصدر الكونغرس الامريكي اي قانون خاص باقامة دين من الاديان او يمنع حرية ممارسته او يحد من حرية الكلام او الصحافة او من حق الناس في الاجتماع سلمياً، وفي مطالبة الحكومة بانصافهم من الاجحاف".

وحول حرية الكلام هناك العديد من القرارات التي اصدرتها المحكمة العليا الامريكية منها القضية:

New York, Time v. u. s. 403 u.s. 713 (1971)

وتتلخص بقيام صحيفة النيويورك تايمز والواشنطن بوست، بنشر اوراق البنتاغون حول مجريات الحرب في فيتنام، الامر الذي ازعج الحكومة التي قامت برفع دعوى الى المحكمة العليا طالبة اصدار امر قضائي بوقف النشر تحت حجة ان ذلك يشكل تهديداً للامن القومي، الا ان الصحفيين دفعنا بحرية الصحافة استناداً الى التعديل الاول. وقد قضت المحكمة لصالح الصحفيين بأغلبية ستة اصوات ضد ثلاثة، اذ عدت ان (التقيد المسبق على الصحافة عبثاً دستورياً ثقيل). وقامت الصحيفتان بنشر بقية الاوراق، ولم يتهدد الامن القومي.

²⁶ Larry Elowitz: "op.cite,p.238.

²⁷ المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٩. ينظر على شبكة الانترنت

[http://en.wikipedia.org/wiki/newyork timesv.u.s.2005](http://en.wikipedia.org/wiki/newyork_timesv.u.s.2005)

التعديل الثاني:

والذي جاء ليؤكد حق الانسان في اقتناء سلاح وحمله للدفاع عن نفسه مع وجود قوة مسلحة في كل ولاية لحفظ الامن فنصت على: "ان وجود مليشيا حسنة للتنظيم ضروري لامن اية ولاية حرة، ولا يجوز التعرض لحق الناس في اقتناء اسلحة وحملها".

التعديل الثالث:

وجاء هذا التعديل لمنع اي تجاوز او اعتداء احد افراد الجيش على حقوق المواطنين فنصت على: "لا يجوز ي جندي في وقت السلم ان يقيم في اي منزل دون رضى المالك، كما لا يجوز له ذلك في وقت الحرب الا بالكيفية التي يحددها القانون".

التعديل الرابع:

لقد جاء التعديل لينظم عمل اجهزة الشرطة في عدم المساس بحقوق وحریات للمواطنين من خلال وضع شروط معينة يتوجب الالتزام بها اثناء ممارستها لعملها في البحث عن لدلة، فقد منعت تفتيش للمنزل او الشقة او اي مكان اخر الا بعد الحصول على اذن من احد القضاة، وبعد التأكد من صحة القضية. فجاء النص: "لا يجوز المساس بحق الناس في ان يكونوا امنين في اشخاصهم ومنازلهم ومستنداتهم ومقتنياتهم من اي تفتيش او احتجاز غير معقول، ولا يجوز اصدار مذكرة بهذا الخصوص الا في حالة وجود سبب معقول معزز باليمين او التوكيد، وتبين بالتحديد المكان المراد تفتيشه والاشخاص او الاشياء المراد احتجازها".

التعديل الخامس:

ويتعلق بحماية الانسان حيث لا يجوز اعتقال اي شخص الا تبعاً لصذور قرار اتهام. كذلك ضرورة اخبار من يقض عليه بان يبقى صامتاً لان كل ما سوف يصرح به يمكن ان يستعمل ضده اثناء المحاكمة. فنص التعديل على: "لا يجوز اعتقال اي شخص لاستجوابه بشأن جنائية او جريمة شائنة اخرى الا تبعاً لصذور قرار اتهامي او مضبطة اتهام عن هيئة محلفين كبرى باستثناء القضايا الحاصلة في للقوات البرية او البحرية، او في الميليشيا عندما تكون هذه القوات في الخدمة الفعلية في وقت الحرب او الخطر العام. دلا يجوز اتهام اي

شخص في دعوى جنائية على ان يكون شاهداً ضد نفسه، ولا ان يحرم من الحياة او الحرية او الممتلكات نوت اتباع الاجراءات الالقانونية الاصولية كما لا يجوز نزع اي ملكية خاصة لاستخدامها في سبيل المنفعة العامة بدون تعويض عادل".

التعديل السادس:

وجاء هذا التعديل ليؤكد على ضرورة حصول المتهم على محامي دفاع وعلى الاسراع في المحاكمة. فنص على: "في جميع المحاكمات الجنائية للمتهم الحق بان يحاكم محاكمة سريعة وعلنية بواسطة هيئة محلفين غير متحيزة تابعة للولاية او المقاطعة التي تكون الجريمة قد ارتكبت فيها، وتلك ان المقاطعة قد سبق للقانون تحديدها. وله الحق ان يبلغ سبب الاتهام وطبيعته، وفي ان يواجه الشهود الذين يشهدون ضده، وفي ان تتوفر له التسهيلات القانونية الارغامية لاستدعاء شهود لمصلحته، وفي ان يستعين بمحام للدفاع عنه".

التعديل الثامن:

اما هذا التعديل فقد اكد انه لا يجوز فرض كفالة عالية مبالغ فيها، علماً بان الكفالة هي مبلغ من المال تحدد المحكمة كضمان لمثول احد الافراد امامها مستقبلاً، كما تسمح له باعداد الدفاع عن نفسه خارج السجن. الا ان مع اقرار التعديل بعدم المبالغة بالكفالة فان من حق القاضي رفض الكفالة اذا شعر ان المتهم قد يهرب او يمثل خطراً على المجتمع. وقد اعلنت المحكمة العليا دستورية سياسية (الحجز الاحتياطي)، كما منع التعديل توقيع العقوبات القاسية غير العادية. الا ان مع ذلك نجد ان المحكمة العليا قد اعتبرت حكم الاعدام لا يعد مخالفاً للدستور الا انها بالوقت نفسه طلبت من المحاكم ان تراعي العوامل المخففة كمن مرتكب الجريمة او سجله السابق لدى الشرطة²⁸. فنصت على: "لا يجوز طلب دفع كفالات باهضة ولا فرض غرامات باهضة، ولا لنزال عقوبات قاسية وغير مألوفة".

جاء في قرار للمحكمة العليا الامريكية حول حق الدفاع والاستعانة بمحام وحق المتهم في محاكمة عادلة ما يأتي في قضية:

Gideon V. Wain Wright 372. u.s. 335 (1963).

²⁸ المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٦-٢٤٧. ينظر على شبكة الانترنت

وتتلخص بقيام شخص يدعى (غدين) باقتحام قاعة لعب بليارد في ولاية فلوريدا عنوة، فألقي القبض عليه، وقدم الى المحاكمة. وطلب (غدين) من المحكمة تعيين محام للدفاع عنه، الا ان طلبه هذا رفض من القاضي مبرراً ان تعيين محام يكون في الجرائم التي تصل عقوبتها الى الاعدام، ولدين بموجب قانون ولاية فلوريدا. واثاء وجوده في السجن قضى (غوين) ساعات عديدة يدرس كتب القانون في مكتبة السجن، بعدها قدم عريضة الى المحكمة العليا يطلب فيها مراجعة قضيته، فعلاً قامت المحكمة بذلك، وقررت ان (غدين) قد حرم من حق المحاكمة العادلة، واصدرت حكماً يلزم كل ولاية ان تؤمن المحامين للمتهمين بارتكاب جرائم وللعاشرين عن دفع نفقات محام من جيوبهم. وعندما اعيدت محاكمة (غدين) بمساعدة محام تمت تبرئته.

وحول الزلم المحكمة بفحص سجل المتهم الذي يحكم بالاعدام من حيث السن جاء في قضية: *Roper v. Simmons* 534. u.s.2005

وتتلخص بحكم صدر باعدام شخص يدعى كرسوفر سيمونز لارتكابه جريمة قتل عندما كان في سن السابعة عشر (استمرت المحاكمة من عام ١٩٩٣ ولغاية ٢٠٠٢) حيث ايدت المحكمة العليا لولاية ميسوري حكم الاعدام باغلبية ستة اصوات ضد ثلاثة. قدم كرسوفر سيمونز استئنافاً للمحكمة العليا الامريكية التي قررت ان اعدام القاصرين يمثل انتهاكاً للتعديل الثامن للدستور، واستندت الى الاجماع الدولي ضد عقوبة الموت للقاصرين وصدر القرار باغلبية خمسة اصوات ضد اربعة.

التعديل الرابع عشر:

وقد جاء هذا التعديل الخاص بالحقوق المدنية ليؤكد مبدأ المساواة بعد ان ساد التمييز بين السود والبيض. فمع اندلاع الحرب الاهلية جاء تحرير^٣ العبيد على يد ابراعام لنكون وفي عام ١٨٦٥ الغي الرق تماماً بموجب التعديل الثالث عشر ليأتي التعديل الرابع عشر في ١٨٦٨ الذي منع اي ولاية في ان تنكر على اي شخص في اطار اختصاصها الحماية القانونية المتساوية^٤، فنص على: "جميع الاشخاص المولودين في الولايات المتحدة او

²⁰ الدكتور احسان المرفجي والدكتور خطران زغير نعمة والدكتور رعد الجندة: المصدر السابق، ص ١٨٦.

المتجنسين بجنسيتها والخاضعين لسلطانها يعتبرون من مواطني الولايات المتحدة ومواطني الولاية التي يقيمون فيها. ولا يجوز لأي ولاية أن تضع أو تطبق أي قانون ينتقص من امتيازات أو حصانات مواطني الولايات المتحدة. كما لا يجوز لأي ولاية أن تحرم أي شخص من الحياة أو الحرية أو الممتلكات دون مراعاة الاجراءات القانونية الاصولية. ولا يجوز أن تحرم أي شخص خاضع لسلطانها من المساواة في حماية القوانين".

وقد ذهبت المحكمة العليا إلى أبعد من تحقيق المساواة من خلال قرار اثار جدلاً كبيراً صدر في ٢٣/حزيران/٢٠٠٣. فقد رفع ثلاثة طلاب امريكان من اصل ابيض دعوى، كانت قد رفضت كلية القانون/ جامعة ميشكان قبولهم في حين قبلت طلبات اقلية اثنية (امريكان من اصل افريقي) بعد ان منحهم عدداً اضافياً من النقاط لترجيح كفة قبولهم.

وقد اقرت المحكمة لكلية القانون في جامعة ميشكان في ان تأخذ الاصل العنصري في حساباتها حين تقرر مع اماكن فيها للطلبة. وقد جاء قرار المحكمة العليا هذا بأغلبية خمس اصوات مقابل اربعة لصالح سياسة الجماعة التي تعطي افضلية للمرشحين من اقلويات اثنية اطلق عليه (التمييز الايجابي)، ولكن المحكمة وبأغلبية ستة مقابل ثلاثة قضت بأن السياسة التي تمنح نقاط اضافية أثناء عملية تحديد المقبولين غير دستورية.

وقد عقيت قاضية المحكمة العليا ساندرا داي لوكنور (ان الدستور الامريكي لا يمنع كليات القانون من استخدام الاصل العنصري في حدود ضيقة في قرارات قبول الطلاب لتعميق المصلحة الحتمية في اوصول المنافع التعليمية الى كتلة متنوعة من الطلاب)³⁰.

التعديل الخامس عشر:

وهو الخاص بالحقوق السياسية الذي اكد انه لا يجوز حرمان أي مواطن من حق التصويت في أي ولاية فنص على: "لا يجوز للولايات المتحدة ولا لأي ولاية منها حرمان مواطني الولايات المتحدة من حقهم في الانتخاب، أو الانتقاص لهم من هذا الحق بسبب لعرق أو اللون أو حالة رق سابقة".

³⁰ حكم قضائي امريكي ضد قضية ستدها الرئيس بوش. ينظر على شبكة الانترنت موقع Google:

<http://news.bbc.co.uk/1/1/arpic>.

بعد عرض الاعلانات والوثائق الخاصة بحقوق الانسان وحياته على المستوى الوطني في كل من بريطانيا والولايات المتحدة لآبد لنا من التعرف على القيمة القانونية لها ومدى التزاميتها. لاسيما اذا عرفنا ان بعضهم يرى فيها عبارة عن مبادئ فلسفية واخلاقية تخلو من اي قيمة قانونية، فحسب لوجهة النظر هذه ان الاعلانات قد صدرت اثناء حقبة ثورية، وان ما يصدر خلال هذه الحقبة يتسم بالغموض.

الا ان هناك رأياً مخالفاً يرى ان اعلانات الحقوق تحمل ذات القيمة التي تحملها النصوص الدستورية، لاسيما تلك التي تتوج الدساتير وبالتالي نعلو في قيمتها على النصوص للقانونية العادية. والرأي الثاني هو الاصول فالارث البريطاني من ميثاق العهد الاعظم وعريضة الحقوق والاشعار القضائي ولاحة الحقوق هي الجزء للمدون (المكتوب) من الدستور البريطاني الذي يعرف بكونه دستوراً عرفياً كما عرفنا، اذ يحمل بجلنب الوثائق المكتوبة التي سبق ذكرها قواعد دستورية عرفية، وان النظام البرلماني نفسه قد نشأ عن عرف دستوري استغرق مائة وخمسون عاماً ليصبح قاعدة دستورية.

اما الارث الأمريكي (اعلان الاستقلال) والتعديلات الدستورية العشر (وثيقة الحقوق) لسنة ١٧٩١ فقد حملت معها الحماية القضائية من خلال الرقابة على دستورية القوانين. فالمحكمة العليا الفيدرالية عندما تعلن ان قانوناً مخالفاً للدستور فهذا يعني عدم العمل به. فما جاء بالاعلان هو جزء من الدستور ولا يجوز اصدار ما يخالف الدستور الذي هو القانون الاعلى في البلاد.

وفي الاتجاه نفسه يهذب العميد موريس هوريو الذي يقول ان لكل دولة دستورين بالضرورة، الاول سياسي، والاخر اجتماعي وكلاهما يتمتع بالمستوى نفسه من الاهمية. الاول ذلك الذي ينظم عمل الاجهزة والسلطات في الدولة، والثاني هو الذي يضع قواعد النظام الاجتماعي الذي تسير عليه الجماهير في الدولة، والذي ينظم بصورة خاصة صيغة العلاقات بين المواطنين والدولة، اي حقوق للمواطن الفردية³¹.

³¹ Andre' Hauriou et Jean Gicquel: "Op.cite, p.p.206et207.

وفي الحقوق لمسياسية جاء في قضية: (Bush V.Gore U.s.98 (2000) والتي تتعلق بما اثير حول الانتخابات الرئاسية الامريكية لعام ٢٠٠٠ ما يلي:==

الخاتمة

لقد تبين مما سبق ان جهود الانسان في رحلته للوصول الى حياة كريمة يتمتع فيها بحقوقه وحرياته كافة التي وهبها له الله سبحانه وتعالى كانت شاقة. وقد حاولت الدساتير الحديثة من خلال النص عليها الاستناد الى تلك الجذور او الاسس التي تم تناولها، ثم الانطلاق الى ما استجد مع تطور الحياة من حقوق. واذا كانت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد شهدت التأكيد على الحقوق والحريات الفردية من خلال منع الدولة من التدخل والمساس بها الامر الذي اتاح للفرد النتمتع بها، فان موقف الدولة السلبي هذا لم يعد بالامكان قبوله، فقد تعالت الاصوات بجبل قان للحقوق والحريات، الا وهو الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتي تتطلب تدخل من الدولة لهيئة المستلزمات التي تمكن

بعد فوز الاصوات حصل نزاع بين جورج بوش وآل غور، وتكمن المشكلة في الغاء ولاية فلوريدا خمسين الف بطاقة انتخاب لكونها غير واضحة وكان التصويت ميكانيكياً، ولكن نتيجة الانتخابات الرئاسية توقف على نتيجة انتخابات ولاية فلوريدا (الناخبون الرئاسيون) فقد رفعت دعوى امام محكمة فلوريدا، التي قضت بعد البطاقات يدوياً. الا ان الحزب الجمهوري رفض تلك ويدفع دعوى امام المحكمة العليا الامريكية التي اكدت على عدم امكنية عد الاصوات. لذلك فز الحزب الجمهوري برئاسة الولايات المتحدة. ينظر على شبكة الانترنت:

<http://en.wikipedia.org/wiki/BushV.Gore.2005>

ومن القضايا المهمة التي تتعلق بحقوق الانسان والتي اثارت احتجاجات من اطراف عديدة قضية:

Raul V. Bush. 543. u.s. 2004.

وتتعلق بمعتقلي كوانتنامو. فبعد احتلال الولايات المتحدة لافغانستان عام ٢٠٠١ نقل أكثر من ٥٠٠ شخص من تنظيم القاعدة وطلبان الى القاعدة الامريكية في خليج (Guantanamo) لانهم عدوا مقاتلين اعداء للولايات المتحدة، لا تطبق عليهم صفة المعتقلين من الجيش النظامي، وبالتالي لا تطبق عليهم القوانين الدولية الخاصة بأسرى الحرب، ومنعوا من الاتصال بهوانلهم افرغ رسول وعدد من رفاقه دعوى امام محكمة محلية في واشنطن الا ان المحكمة رفضت النظر في الدعوى، كون خليج كوانتنامو ليس تحت السيادة الامريكية شكل نهائي. وجوهر القضية يتعدد بمسأل هو: هل يحق لسجين اجنبي المولد، اعتقال خارج الولايات المتحدة ان يحاكم امام المحاكم الامريكية؟

وبالرغم من كون اللغة المصرية الامريكية ادعت بان كوبا تتمتع وبمقتضى شروط العقد المبرم مع الولايات المتحدة بسيادة تامة، فهذا يعني ان المعتقلين هم خارج سلطة المحاكم الامريكية. الا ان محامي الدفاع رد على ذلك بالقول (انه لدفع زايغ تماساً، ان نقول انه بسبب هذا الشرط في عقدكم يكون من حق القسم التنفيذي خلق منطقة بغوب عنها القانون، ولا تكون مسؤولة قضائياً في اي مكان في العالم). كما دفع محامي الدفاع ايضاً بان المستوى الامريكي لا يسمح بقبضة سجون خارج سلطة القضاء ليحتجز فيها لاجئين.

وكان جواب المحكمة بنعم، حيث قررت ان من حق المحتجزين التقاضي امام المحاكم الامريكية للنظر في اوضاعهم وتحدي اعتقالهم باغلبية ستة اصوات ضد ثلاثة. واخيراً اطرت السلطة المصرية الامريكية الى النظر في اسباب الاعتقال وخرجت عن تصفهم تقريباً لحد الان (تم تسليمهم الى حكومات بلدانهم؟).

ينظر على شبكة الانترنت:

<http://en.wikipedia.org/wiki/RasulV.Bush.2005>

كما اصدرت المفوضية الخاصة بحقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة تقريراً في شباط لهذا العام (٢٠٠٦) حول معتقل كوانتنامو اكدت كوت المعتقل غير شرعي كما مورست بعض الاساليب التي تشكل تعذيباً للمعتقلين، وقد اكد التقرير ايضاً ان الولايات المتحدة لم تثبت بان المعتقلين هم مقاتلون اعداء للولايات المتحدة. نشر التقرير في صحيفة لوس انجلوس تيم الامريكية في ١٣ شباط ٢٠٠٦.

الفرد من التمتع بها. لذا شهدنا ولادة مصطلح الحقوق والحريات الايجابية عكس الحريات الفردية التي تسمى بالسلبية وقد كان للجنور الدستورية من اعلانات ووثنائق وراء ولادة اجيال اخرى اخرى لحقوق الانسان. وما تزال الرحلة لم تصل الى نهايتها في تحقيق الحياة الكريمة المنشودة للانسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى وجعل منه خليفة على الارض.

الجيو بولتيك ونظرية صدام الحضارات لهنتغتون

الدكتور

محمد احمد حسن (*)

المقدمة

بعد نهاية الحرب الباردة كانت هناك العديد من المحاولات النظرية والسياسية لرسم خريطة جديدة للاوضاع الدولية. ومن هذه المحاولات مقولة "فرانسيس فوكوياما" نهاية التاريخ عام ١٩٨٩، ومقولة "النظام العالمي الجديد" التي ظهرت في الايام الاخيرة من حكم الرئيس الامريكي "جورج بوش".

كما جاءت مثالة "بيرنارد لويس" عام ١٩٩٠ بعنوان "جذور السخط الاسلامي" تحمل مصطلح "صدام الحضارات" الذي استمدته هنتغتون من هذه المقالة والذي بنى كل نظريته اليه. فهنتغتون لم يكن مبدعاً كما ان فكرته تنفّر الى أي ابداع.

انن لماذا هذا الاهتمام الكبير بهذه الفكرة؟ للقضية هنا ليمت القيمة الفكرية لما يقول به هنتغتون، ولما هي في أهمية ما يقوله في إطار مشروع المؤسسة الحاكمة لادارة العالم في مرحلة ما بعد الحرب الباردة.

لقد استند هنتغتون الى "الثقافات" كأساس في تقسيم العالم الى أنماط حضارية، والتي ستقود الى حتمية تصادم الحضارات وفق تصوراته، واختار هنتغتون موضوع "الدين" كأساس للمجموع الحضاري السبع في العالم، في حين لم يكن الفضاء الديني هو الذي يحدد نوع الثقافة، وانما هناك فضاء الدولة الوطنية، وفضاء الاقاليم المتجانسة اقتصادياً وفضاء الانظمة السياسية ايضاً.

لذا فان النزعة الثقافية "لهنتغتون" تقوم على مجموعة من الاكاذيب، انها في الحقيقة اداة لإدارة الأزمة الرأسمالية على الرغم من تظاهرها بانها الحل.

(*) كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

ان أفكار "هنتنغتون" جل همها أضفاء المشروعية على الوسائل الرأسمالية عبر تصعيد الصراعات حول فكرة محورية تقول بعدم توافق الثقافات، وهذه الفكرة انما هي استراتيجية لتمكين استراتيجية الغرب من فرض ساحة الصراع التي تسمح له بتحقيق النصر. ينطلق هذا البحث من فرضية: هل تنوع الحضارات والثقافات في المجتمعات البشرية يقود الى حتمية للصدام؟

وفي ضوء الاجابة على هذه الفرضية ستحدد اهداف هذا البحث في الكشف عن محتوى هذه الافكار التي تصر على ان تنوع حضارات العالم وثقافته ستقود الى تصادمه وصراعه. كما يهدف هذا البحث ايضاً الى بيان شخصية اقليم الحضارة الاسلامية وتشخيص ابرز السمات التي تتميز بها. ثم يطرح البحث اهمية حوار الحضارات كهدف مركزي يحقق للعالم الامن والاستقرار من خلال التفاعل والاعتراف بالآخر.

لقد تم معالجة جميع هذه الافكار من خلال التحليل العلمي بها، ورؤية جغرافية تستند الى علم "الجيوپولتيك" للكشف عن عناصر الضعف والقوة لمختلف مكونات الحضارة الاسلامية، وكذلك الكشف عن التحديات الجيوپولتيكية الغربية التي تواجه هذا الاقليم. ان حيوية هذا الموضوع واهميته كانت واحداً من العوامل التي دفعت الباحث الى تناول هذا الموضوع. ارجو ان اكون قد وفقت في طرح افكاره ومعالجتها وتنظيمها وصولاً الى تحقيق اهدافه المرجوة، ومن الله التوفيق.

الباحث

المبحث الاول

مفهوم الجيوپولتيك والحضارة والثقافة

اولاً: مفهوم الجيوپولتيك:

يعني هذا العلم دراسة الوحدة السياسية-الدولة في بيئتها الجغرافية. غير ان الامام بعلم الجغرافية أو بعلم السياسية، كل على حدة، لا يكفي لفهم الجيوپولتيك، ذلك لان معرفة كل من الارض والدولة معاً من مستلزماتها^١.

^١ رسل. ه. هيلاند، ج. إنزل بيرس: الجيوپولتيكا، ترجمة يوسف مجلي ولويس اسكندر، دار الكرنيك للنشر، ج ١، القاهرة، ص ١١.

فالجيوپولتيك إذن: علم سياسي يستمد جذوره من علم الجغرافية وحقائقه المتشعبة، ويعمل على الافادة منها لخدمة خططاً سياسية معينة يتبناها صانعو السياسة وصناع القرارات في الدولة.^٢

وللجيوپولتيك في الوقت الحاضر مفهوماً عاماً: فهناك النظرة الضيقة القائمة على الفكرة الالمانية للخاصة بالجمال الارضي باعتباره المجال الحيوي للدولة على انها كائن حي، حيث أكد ذلك اللواء "هاوسهوفر" من ان الجيوپولتيك تبين مدى توقف كل تقدم سياسي على ذلك العامل الثابت الذي لا يتغير - عامل التربة.^٣

أما المفهوم الأوسع للجيوپولتيك فيقوم على الدراسة الجغرافية للدولة من حيث سياستها الخارجية، وهنا يكون للتأكيد كله على المظهر الجغرافي للعلاقات الخارجية.^٤ فالجغرافية السياسية هي الأصل الذي تفرعت عنه للجيوپولتيك، وكما يقول هاوسهوفر: إن الجيوپولتيك وليد الجغرافية السياسية لأنها المحرك لما يتناوله هذا العلم الأخير من حقائق فتجعل منها مادة يستعين بها الزعيم السياسي.^٥

ان هذا المفهوم يعتنق فلسفة القوة ويدرس السياسة العالمية من وجهة نظر قومية، ترسم حالة الدولة في المستقبل، وتجعل من الجغرافية في خدمة الدولة.

وإذا كانت القوة تعني: التأثير والسيطرة والامكانية والقابلية^٦، فلاغرو ان يقول الجنرال الفرنسي "غالو" ان الجيوپولتيك هي: دراسة العلاقات بين نهج سياسة القوة المأخوذة بها على المستوى الدولي والاطار الجغرافي الذي تمارس فيه. ويلتقي هذا التعريف مع تعريف كولن غراي الذي يقول: "يقصد بالجيوپولتيك العلاقة التي تقوم بين القوة والسياسة الدولية والاطار الجغرافي".^٧

^٢ فحفي ابو عيانة : دراسات في الجغرافية السياسية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٤٣.

^٣ رسل. هـ. فيفيلد، ج. إتزل بيرس، المصدر السابق، ص ١١.

^٤ المصدر نفسه، ص ١٢.

^٥ المصدر نفسه، ص ١٤.

^٦ محمد عبد القوي سعودي : الجغرافية والمشكلات الدولية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٦.

^٧ محمود حيدر : السيادة في تحولات العولمة، "الدولة المقنونة"، مجلة شؤون الأوسط، العدد (١٠٠) مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٥٩.

ووفقاً للقوانين الجيوبولتيكية السبعة التي لوردها الالاماني فردريك راتزل (١٨٨٤-١٩٠٤) التي تحكم حركة الدولة في مجالها الحيوي والتي وردت في مقال عنوانه "قوانين النمو الارضي للدولة" حيث يرى راتزل ان الدولة كائناً حياً تدفعه الضرورة للنمو عن طريق الحصول على الاعضاء التي تعوزه حتى ولو دفعه هذا الى استخدام القوة. وعلى هذا فمبدأ "المجال الحيوي" الذي نادى به "هاوسهوفر" والذي طبقه دولف هتلر متصل اتصالاً وثيقاً بفكرة ان "الدولة كائن حي".^٨

ان الجيوبولتيك بنزعها للمتطرفة التي طبقت السياسة النازية نجدها اليوم تتمثل في النزعة الامبريالية الامريكية في السيطرة والهيمنة على العالم والاحتلال المباشر للعديد من دول العالم كما هو الحال في العراق و افغانستان. كما نجد هذه النزعة ايضاً فيس الحركة الصهيونية باعتبار ان ارض الميعاد "الجيوبولتيكية" تمتد من النيل الى الفرات.

وفي هذا المجال ينبغي ملاحظة ان الجيوبولتيكا ليست الفرع الوحيد في مجال الجغرافية السياسية الذي يتناول قضايا السياسة العالمية. فهناك ايضاً الجغرافية السياسية للامبريالية. وهنا لا بد من التمييز بين الجيوبولتيكا والامبريالية، فعلى الرغم من انهما لا يناقشان عادة في السياق ذاته، فان كليهما يرتبط بالنشاط السياسي على مستوى العلاقات بين الدول ويميز الاستخدام الحديث الجيوبولتيكا بوصفها مبحثاً يعني بالتنافس بين القوى العظمى "دول المركز ودول اشباه الاطراف الصاعدة". اما الامبريالية فهي هيمنة دول المركز للقوة على الدول الضعيفة في الاطراف. بمعنى ان الجيوبولتيكا تصف علاقة تنافس على الصعيد السياسي، في حين تصف "الامبريالية" علاقة هيمنة. وعلى الصعيد المكاني والجغرافي وصفت علاقات التنافس بين القوى العظمى "لو كانت كذلك قبل انهيار الاتحاد السوفيتي" بانها علاقات بين "الشرق والغرب" اما علاقات الهيمنة فهي العلاقات بين "الشمال والجنوب".^٩

^٨ رسل . هـ . فريلايد . ج . إتزل بيرس ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .

^٩ بيتر تيلر وكولن فلنت : الجغرافية لعالمنا المعاصر ، ترجمة عبد السلام رضوان واسحق عبيد ، عالم المعرفة ، المجلد الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ٢٠٠٧ ، ص ٩٦ .

ان غرض أي صراع هو السيطرة على الاقليم، أما البعد الجوهري للصراع بين الدول فهو بعد جغرافي، فمما تعد الجيوبولتيك دراسة جغرافية العلاقات بين المتنافذين في السلطة كونهم حكام الدول او قوى تتخطى الحدود القومية¹⁰.

ولحد من النزاعات العدوانية بين الدول فان ما يمكن ان يقدمه الجغرافي كخدمة رئيسية في الشؤون الخارجية فهو تأكيد الدفاع الذي تقدمه الجغرافية ضد طموحات المتنازعين وغرس ما يمكن من الواقعية والموضوعية في التعامل بين الدول¹¹.

ثانياً: مفهوم الحضارة والثقافة

تناول مفهوم الحضارة العديد من المفكرين فهي عند "اسبينجار" تضم الجوانب المادية التي تمثل المدنية في حين شكل المعتقدات والقيم والاداب مفهوم للثقافة¹².

اما المؤرخ الانكليزي "ارنولد توينبي" فيميز ثلاثين حضارة، احدى وعشرون منها اتمت نموها وتوجد بين الاحدى والعشرين المكتملة النمو منبوعة حضارات مازالت قائمة، بوصفها مجتمعات حية هي: الاسلامية والهندية والشرق الاقصى، والكونفوشية والبيزنطية والمسيحية، والارثودوكسية، جنوب شرق اوروبا والحضارة الغربية¹³.

وفي الاطار الانثروبولوجي يأتي مفهوم الحضارة عند "تايلر" بأنه "الكل المركب الذي يحتوي المعرفة والمعتقد والفن والاخلاقيات والقانون والعادات وكل القدرات والاعتبارات الاخرى يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع"¹⁴.

فالحضارة تعني وفق هذه المفاهيم مجموعة الظواهر المعبرة عن انشطة البشر في مجتمع او عدة مجتمعات، أي انها العطاء لاتجاز المجتمع المعنوي والمادي. اما الثقافة فتعد من المفاهيم التي تتداخل مع للحضارة، الا ان الثقافة وعناصر متعددة، ومخلوقات واتجاهات متنوعة، لذلك يصعب ان تختزل وان تندرج ضمن اطار تعريف مبسط ونهائي.

¹⁰ باتريك سوليفان : الجيوبولتيكا ، ترجمة صباح محمود احمد ، عمان للاردن ، ٢٠٠١ ، ص ٢٠ .

¹¹ المصدر نفسه، ص ٥٠ .

¹² ج. دي بويس : مماثول الحضارة ، ترجمة لمعي المطيعي ، دار الكرنك ، ١٩٥٣ ، ص ٣٧ .

¹³ متح خوري : التاريخ الحضاري عند توينبي ، جدار الطم ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٢ .

¹⁴ قباري محمد اسماعيل : علم الاجتماع الثقافي ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٨٢ ، ص ١٩٧ .

الا ان ما يمكن قوله في هذا المجال ان للثقافة معنيان: الثقافة بالمعنى للخاص هي: تنمية الملكات الفعلية او تموية بعض الوظائف البدنية ومنها تنقيف العقل وتنقيف البدن ومنها للثقافة والرياضية والثقافة الادبية او الفلسفية). والثقافة بالمعنى للعام وهي ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق وحسن انتقادي وحكم صحيح او هي التربية التي ادت الى اكسابه هذه الصفات^{١٥}.

كما ادرك بعض المفكرين الاختلاف بين الثقافة والحضارة فوضعوا حدوداً لها، فالثقافة عند "رالف لنتون" تطلق من ان مكونات الثقافة والحضارة واحدة، لكن صفة الاولى الاستقرار في حين تأخذ الثانية صفة الانتشار^{١٦}.

اما "ول ديورانت" فيضع حدوداً ما بين الثقافة والحضارة، فالاخيرة تشمل الجوانب المادية في حين تضم الثقافة القيم المعنوية والروحية^{١٧}.

هذه المفاهيم تؤكد حقيقة مفادها ان الصفة التي تميز الحضارة هي قابليتها للانتقال والانتشار بين الامم، في حين تختص الثقافة بكل لمة.

ان الواقع يؤكد بانه ليس هناك ثقافة عالمية واحدة، وانما توجد ثقافات متنوعة تعمل كل منها بصورة تلقائية او بتدخل ارادي من اهلها على الحفاظ على كيانها ومقوماتها الخاصة^{١٨}.

فالثقافات القومية اذن تكل عناصر التنوع والتعدد في حين ان الحضارة هي عملية اندماج التنوع والتعدد وانصارها. ولكن هذا لا يعني ان الثقافات القومية متشابهة وتتماثل، فالثقافة القومية التي هي: السلوك المادي والعقلي والروحي الذي يبتكره شعب من الشعوب في مسيرته، شغل التعبير عن خصوصية الشعب وعبقريته، وهي تكون كذلك بمقدار

¹⁵ جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٧١، ص٣٧٨.

¹⁶ رالف لنتون: دراسة الإنسان، ترجمة عبد الملك الناشف، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤، ص٨٧.

¹⁷ ول ديورانت: قضية الحضارة، ج١، ترجمة زكي نجيب محمود، القاهرة، ١٩٤٩، ص٥.

¹⁸ محمد عبد الجباري: "عشر اطروحات"، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٢٢٨، ١٩٩٨، ص١٤.

مشاركتها ومماهمتها في المسيرة الحضارية الواحدة، اما اصالة الثقافة القومية فسلا تكون بتجاوزها مع ماضيها بقدر ما تكون بتفتحها على الثقافات الاخرى وتعاملها معها¹⁹.

ومن الجدير بالذكر التأكيد على ان مفهوم "الهوية الثقافية القومية" لا يعني الغاء واقصاء الهويات الوطنية والقطرية، ولا الهويات الجموعية الاثنية والطائفية، فالتعدد الثقافي في الوطن العربي مثلاً واقعة اساسية لا يجوز القفز عليها بل لابد من توظيفها بوعي في اغناء واخصاب الثقافة العربية وتوسيع مجالها الحيوي.

ان جميع الثقافات القومية لأم لها تاريخ حضاري يحكمها اتجاهان في تميز ثقافتها:
الاول: الاصالة حيث تشكل واحداً من مكونات الحضارة القومية للام وتعني بها: محاوره الماضي من اجل الحاضر والمستقبل²⁰.

الثاني: الحدائة والتي تقوم على المشاركة والمساهمة في هذا التحول الكبير الذي تشهده الانسانية اليوم²¹.

واذا كانت الثقافة في الغرب تعرف بانها "فلسفة الانسان" وفي البلاد الاشتراكية تعرف بانها "فلسفة المجتمع" فان الثقافة العربية انما هي "فلسفة النهضة العربية". ومن هنا يبدأ التحدي.

المبحث الثاني

التحليل الجيوبولتيكي لنظرية هنتنغتون

ابتداء هنتنغتون في تحديد مفهومه لصدام الحضارات من مقاله "صدام الحضارات" الذي نشره عام ١٩٩٣ في مجلة الشؤون الخارجية "foreign affairs" والذي جاء فيه: سوف يتمحور الانقسام الأساس داخل المجموعة البشرية حول العوامل الثقافية التي ستصبح

¹⁹ من زيادة : معالم على طريق تحديث الفكر العربي ، عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ص ٤٧ .

²⁰ من زيادة : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

²¹ المصدر نفسه ، ص ٦٧ .

المصدر الرئيسي للصدام، فصدام الحضارات هو الذي سيمثل مركز الصدارة من السياسة العالمية^{٢٢}.

إن الشيء الغريب في نظرية هنتغتون أنها تصر بقوة والحاح على أن الحضارات غير الغربية لا بد وأن تصطدم بالغرب ، والحاحه هذا يكتسب طبيعة عدائية وشوفينية عندما يتطرق الى ما ينبغي على الغرب عمله لكي يضلل عدائية وشوفينية عندما يتطرق الى ما ينبغي على الغرب عمله لكي يظل في الصدارة الى الحد الذي يجبرنا على استنتاج ان جل ما يعنيه هو استمرار بل وتوسع نطاق الحرب الباردة بوسائل جديدة . فصراع الحضارات هذا الذي يشير به "هنتغتون" ليس فقط صراعاً مستمراً بل ان هذا الصراع يشكل المرحلة الاخيرة من مراحل تطور الصراع في العالم الحديث^{٢٣}.

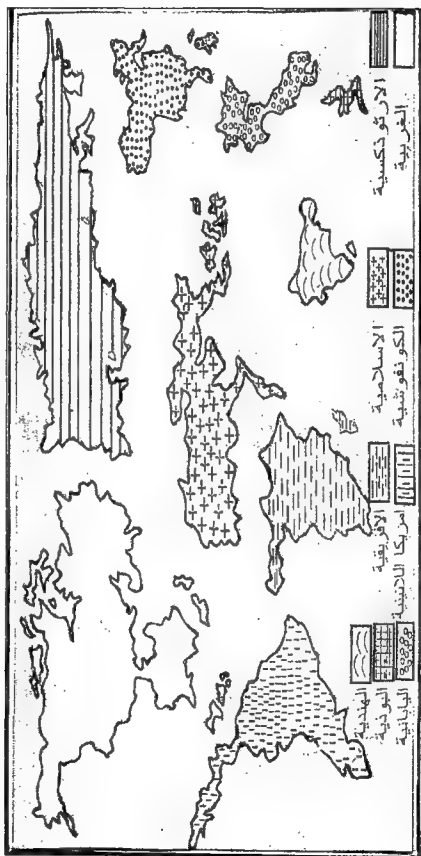
يهدف "هنتغتون" من هذا الطرح الى بقاء المواطن الأمريكي محافظاً على حالة الحرب حية في ذهنه، بل أنه أكثر من هذا ينطلق من نقطة محددة هي ذهنية صناع القرار داخل البنتاغون والمؤسسة العسكرية للذين فقدوا مؤقتاً مبررات بقائهم بعد نهاية الحرب الباردة، والذين يعينهم الآن خلق مبررات جديدة لهذا الوجود.

تتألف القوى التي تتصارع في إطار فرضية "هنتغتون" من ثمان حضارات هي: الإسلامية والكنفوشية والغربية والهنوسية، واليابانية والارثوذكسية والافريقية والأمريكية اللاتينية. انظر خارطة (١).

^{٢٢} إدوارد سعيد : "صدام المفاهيم" ، مجلة الكرمل ، العدد ٥٣ ، ص ٤٨ ، ص ٤٨ .

^{٢٣} المصدر نفسه، ص ٤٩ .

خارطة (١)
الاقليم الحضارية بحسب رؤية هنتنغتون



المصدر : ابراهيم قاسم درويش : صدام الحضارات لهنتنغتون ، دراسة جيوبوليتيكية ، اطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٩ .

بعد "هنتنغتون" الدين العنصر الرئيس لتحديد المفهوم الثقافي ضمن الدائرة الأوسع للحضارة، فالدين عنده هو الأكثر أهمية في تعريف الحضارة، غير أنه ليس العنصر الاوحد فاللغة والتقاليد والتجارب التاريخية يمكنها أن تحدد ملامح الحضارة، ولكن حينما ننظر للتاريخ سنجد ان الدين أكثر أهمية²⁴.

كما يحاول "هنتنغتون" رسم ملامح علائقية متبادلة بين الحضارة الغربية والاقاليم الحضارية الأخرى عدا اقليم الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشية، من خلال اعتماده معايير القبول والرفض للتحديث والتمدن الغربي على نحو صنف فيه العلاقة بين الغرب والحضارات الأخرى الى ثلاثة اصناف رئيسية هي²⁵:

١. دول قبلت التحديث والتغريب مثل اليابان.
 ٢. دول تسعى للتحديث وليس لديها رفض التغريب مثل روسيا ودول يوغسلافيا (السابقة) ودول أمريكا اللاتينية ودول شرق أوروبا.
 ٣. دول تريد التحديث ، لكنها ترفض التعامل على الطريقة الغربية ، وتمثلها البلدان الإسلامية والكونفوشية. انظر خارطة (٢).
- ومن بين كل الحضارات يحاول "هنتنغتون" أن يفترض التعاون سيكون بين الحضارة الإسلامية والكونفوشية، على اساس وجود "عدو واحد" ومصلحة مشتركة تتمثل بالدفاع عن مصالحها ضد الحضارة الغربية فهو يقول: ان المجتمعات الإسلامية والصينية ترى عدوا لها وبهذا لديهما سبب للتعاون مع بعضها ضد الغرب²⁶.
- ومع ذلك فإن "هنتنغتون" كان يولي الإسلام اهتماماً تفصيلاً اكبر من ذلك الذي يوليه لاية حضارة أخرى، بما فيها حضارة الغرب . إلا أن " هنتنغتون" حاول أن يكرس حتمية الصراع من خلال استخدام اللغة بشكل بلاغي لكي يبرز الفارق بين "عالما" (نحن الاناس الطبيعيين المنطقيين المقبولين) وعالم الإسلام ذي الحدود الدموية والابعاد الناشئة حسب

24 سمويل هنتنغتون : "التنوع الديمغرافي سبب الاحتكاك بين الغرب والإسلام"، مجلة الكرمل ، العدد ٥٣ ، ١٩٩٧ ،

ص ٨٣ .

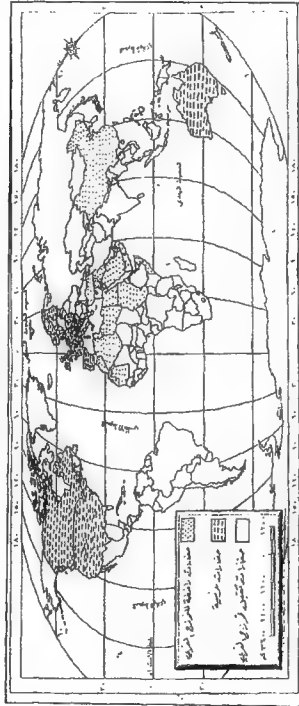
25 سموايل هنتنغتون : صدام الحضارات واعادة صنع النظم العالمي ، دار سيمون وشوستر الأمريكية للنشر ، ١٩٩٦

، ص ١٦٣ .

26 المصدر نفسه، ص ٢٤٦ .

تعبيره، وبالتالي فإن هنتنغتون لا يحل الوضع بل يتحدث عن مجموعة من الأفكار المحددة سلفاً، وهي التي تخلق الصدام الذي يزعم " هنتنغتون " أنه يكتشفه ويشير اليه^{٢٧}.

خارطة (٢) أضماط العلاقة بين الغرب والحضارة الأخرى بحسب معايير القبول والرفض للعديث والتحديث



المصدر : إبراهيم قاسم درويش : صدام الحضارات لهنتنغتون ، دراسة جيوبوليتيكية ، الطروحة دكتوراه ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ص ٧٠٠٥ ، ص ٥٩ .

أن تؤكد "هنتغتون" كون الحضارة الإسلامية حضارة دموية مولعة بالعنف والقتال هي مغالطة كبيرة وضد منطق التاريخ، إلا أنه بهذا الطرح يعطي زخماً لكبر من الدعم باقية ومشروعية استخدام القوة والعنف ضد المسلمين، وذلك لتحقيق عدة أهداف جيوبوليتيكية للولايات المتحدة الأمريكية لمرحلة ما بعد الحرب الباردة.

إلا أن ما يمكن للتأكيد عليه أيضاً هو أن الإسلام الذي تعرفه أوروبا والولايات المتحدة الآن، ينتمي إلى الخطاب الاستشراقي، أي أنه بنية "مفبركة" يتم توظيفها لالهاب مشاعر العداء في هذه البلدان ضد منطقة جغرافية معينة من العالم، تصادف أن احتلت مكانة استراتيجية حيوية بسبب وجود النفط فيها، وبسبب قربها مما يسمى بالعالم المسيحي، وبسبب تاريخ التنافس الطويل بينها وبين الغرب. لكن هذه الصورة تختلف جوهرياً عن الإسلام، كما يعرفه المسلمون الذين يعيشون في البلدان الإسلامية، بل أنه يوجد فارق كبير بين الإسلام كما تعرفه دولة إسلامية كاندونيسيا وبين الإسلام كما تعرفه دولة إسلامية أخرى كمصر^{٢٨}.

أن أضعف حلقات مقولة صدام الحضارات من الناحية النظرية هي تلك التي تفترض الفصل الجامد بين الحضارات المختلفة، فهذا افتراض خاطيء ومفسد لمفهوم الثقافة التي تنتعش من خلال التنوع والتعدد وتشابك العناصر المؤثرة في أبنية ثقافة.

إذاً لماذا يتم تناول العلاقات بين الحضارات من منظور الصراع والصدام؟ ليست ظاهرة التبادل والتفاعل الثقافي موضوعاً أجدى بالدراسة وأكثر نفعاً من موضوع الصدام هذا؟

إن الصدام بين الثقافات أو الحضارات هو ثمرة صدام سياسي أو هدف له، فلو انتفت الخلافات والاطماع السياسية سينتفي الصدام بين الحضارات^{٢٩}. إلا أن طروحات "هنتغتون" جاءت لتحقيق هدف جيوبوليتيك يسمح للولايات المتحدة باطالة عمر عقلية الحرب الباردة بعد انتهاء هذه الحرب، ونقلها إلى الزمن الحالي بعد إجراء التعديلات على طبيعة العدو.

²⁸ المصدر نفسه، ص ٦١.

²⁹ جميل مطر: "حوار الحضارات المسيحية الأولى"، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد ٣٢٥، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٦٢.

المبحث الثالث:

الاهمية الجيوبوليتيكية للأقليم الحضارة الاسلامية

يشمل الأقليم الحضاري المناطق التي تسود فيها مجموعة صفات تميزها عن المناطق الأخرى، وتسمى بالمناطق الحضارية الشكلية في حين تعرف المناطق التي تقوم بداء وظيفي سواء كانت سياسية أم دينية أم اقتصادية أو اجتماعية بالمناطق الحضارية الوظيفية³⁰.

يتميز اقليم الحضارة الإسلامية عن الاقاليم الأخرى ببعدين رئيسيين هما البعد الجيوثقافي والبعد الجيوسياسي.

أولاً: البعد الجيوثقافي

شكل الاقليم الجغرافي الإسلامي منذ ظهوره تأثيراً رئيساً في تاريخ الحضارة الإنسانية على نحو عام، وعلى تاريخ الديان على نحو خاص، وتتجلى تلك الفاعلية في الخصائص التي اتصفت بها بالشمولية المركبة للجوانب الروحية والمادية وحالة التوازن بينهما، لذلك كان ولايزال ينظر اليه من الانظمة الدينية والثقافية والحضارية المغيرة على أنه الدين الأكثر فاعلية في الانتشار والامتداد³¹.

وخلال قرن واحد (٦٣٢م - ٧٣٢م) كان المجتمع العربي الذي حمل لواء الإسلام قد امتد على قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا، وهذا الانتشار لايمكن أن يفسر بالقوة العسكرية، وإنما اقترن الانتشار العسكري والسياسي، بتطور التشريع والادارة ومؤسسات الدولة والصناعة والفن والادب والعلوم والترجمة، وفي هذا تكمن قوة الدين الجديد.

لقد تطلعت رغبة العداء للإسلام لدى الغرب وعمل على ايجاد المسموعات لاحتلال أرضه، إذ أخذ اهتمام أوروبا بالعالم الإسلامي ينتقل من القرن السابع عشر من الاهتمام الفردي والمؤسساتي المحدودة الى اهتمامات ذات غايات أبعد لم تقتصر على الابداع الادبي

³⁰ عبد الله علي الصنيع : اضاء على مفاهيم الجغرافية الاجتماعية والحضارية ، مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية ن العدد ٦٩ ، ١٩٨٩ ، ص ١٤ .

³¹ كلود كاهن : الشرق والغرب ، ترجمة احمد الشريخ ، دار سيناء للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ٧٩ .

فحسب، بل على صعيد المشاريع المعرفية المتخصصة المستجيبة لظهور الدولة المركزية القوية في أوروبا والحاجات لنموها الاقتصادي³².

أما في المرحلة الراهنة فقد مثل الجهد الأمريكي دوره في اعادة صياغة البنية الجيوبوليتيكية لمنطقة الشرق الأوسط الكبير (العالم الإسلامي) على اعتبار أنه المصدر الرئيس الذي يهدد المصالح الأمريكية.

لقد استندت الرؤية الجيوبوليتيكية للولايات المتحدة على تأطير حدود الشرق الأوسط الكبير المستند على بيئة ثقافية (دينية) من خلال اعادة هيكلة تلك البنى، ليس من خلال البنية الفوقية المتمثلة بالمقومات المادية للكيان الحضاري الإسلامي، بل يذهب الى رسم استشراف جديد، ليس وظيفته قراءة الخطاب الديني وتشويهه، وإنما تفكيك ذلك الخطاب وتهميش لاجزاء منه، لالتوافق وحضارة الغرب على نحو يعمل المشروع فيه على اعادة الهيكلة الثقافية للمنطقة، وتطبيق الفكر الحداثي بكل جزئياته على المجتمعات الإسلامية وهو لا يؤدي إلا الى زيادة التوتر والتصعيد لهيمنة الخطابات الثيوقراطية (الدينية) واختلافاتها، التي تؤكد (استحالة علمنة العالم الإسلامي، ويفرض على تحديث هذا الاخير ممرا الزاميا في قيادة الدين الإسلامي)³³.

ثانياً: البعد الجيوسياسي

تشمل الجيومستراتيجية نطاقاً مفاهيمياً أوسع من دلالات الجيوبوليتيك ، إذ تشكل الأخيرة نطاقاً محدوداً تستثمر فيه العناصر الجغرافية الثابتة (الطبيعية) والمتحركة (البشرية) وتفاعلاتها في رسم سياسات آنية ومستقبلية ضمن الإطار الاقليمي والدولي لأي كيان سياسي، في حين تضم الجيومستراتيجية مجموعة من النطاقات والتكتلات الجيوبوليتيكية، لتصبح نقطة محورية رئيسية في الستراتيجيات العالمية وأهدافها، لاسيما عندما توضع تصورات القوى الكبرى في إطار للتوسع والامتداد³⁴.

³² رسول محمد رسول : الغرب والإسلام ، دار اسماة للنشر والتوزيع ، عمان ، الاردن ، ١٩٩٩ ، ص ٨ .

³³ جابر الاشقر : الإرهاب : الإرهاب المقبل والفوضى العالمية ، ترجمة كميل داغر ، دار الطليعة ، بيروت ، ٢٠٠٢ ، ص ٧٦ .

³⁴ بيار منليزية : الجيوبوليتيكا والجيومستراتيجية ، ترجمة عاطف علي ، مؤسسة الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص ١٢ .

يمكن تحديد عناصر الجيوستراتيجية الفاعلة في العالم الإسلامي بعاملين هما الموقع الجغرافي والامكانات الاقتصادية:

١. أهمية الموقع الجغرافي:

تأتي أهمية للموقع الجغرافي للعالم الإسلامي من خلال ما يمتلكه هذا الموقع من مزايا جيوبوليتيكية، فاختراقه الواسع من خط طول (١٨) غرباً عند سواحل المحيط الأطلسي إلى (١٤٢) شرقاً عند أطراف اننوسيا. وبين دائرتي عرض (٥٥) درجة شمالاً عند الحدود الشمالية لجمهورية كازاخستان الآسيوية و(١٧) جنوباً عند الاطراف الجنوبية لجمهورية جزر القمر وموزنبيق جنوب افريقيا، جملة يستحوذ على (٧٢) دائرة عرض من الشمال إلى الجنوب، و(١٦٠) درجة من خطوط الطول من الغرب إلى الشرق، فهو يستحوذ على نسبة (٢٣%) من اجمالي مساحة العالم^{٣٥}.

لقد أثر الموقع الجغرافي المتميز للعالم الإسلامي على بناء شخصيته الحضارية وأهميته الجيوبوليتيكية، والتي يمكن إيجاز أبرز ملامحها وعلى النحو الآتي:

أ. يمكن إدراك أهمية العالم الإسلامي من خلال موقعه في النظريات الاستراتيجية العالمية، إذ يقع معظمه ضمن المنطقة الثانية من نظرية (القلب الأرضي لماكندر التي سماها بالهلال الداخلي والتي اطلق عليها مع منطقة قلب الياوس يتم فرض السيطرة على مناطق الهلال الخارجي ومن ثم السيطرة على جزيرة العالم ، وتحكمه بالعالم واقامة الامبراطورية العالمية)^{٣٦}. انظر خارطة(٣).

أما سيبكمان الذي عدل من رؤية "ماكندر" فرأى أن المنطقة الثانية بحسب توزيع ماكندر وهي منطقة (الهلال الداخلي) التي تضم العالم الإسلامي تتحكم في معظم المضائق البحرية العالمية وهي مفتاح القوة والسيطرة العالمية، واطلق عليها سيبكمان أسم (الإطار أو الحافة). وأكد أن هذا الإطار هو الذي يتحكم في جميع منافذ الحركة الأرضية والبحرية العالمية على عكس مما اشار اليه (ماكندر)^{٣٧} ليؤسس الفرضية الجيوبوليتيكية، ان من يحكم الإطار يتحكم في الجزيرة العالمية ومن يتحكم في الجزيرة يتحكم في مصير العالم. انظر خارطة(٤).

^{٣٥} مهتد عبد الرحمن آل ثاقبي : جيوبوليتيكية العالم الإسلامي ، الرأي ، العدد ١٥٧ ، ١٩٩٧ ، ص ٤ .

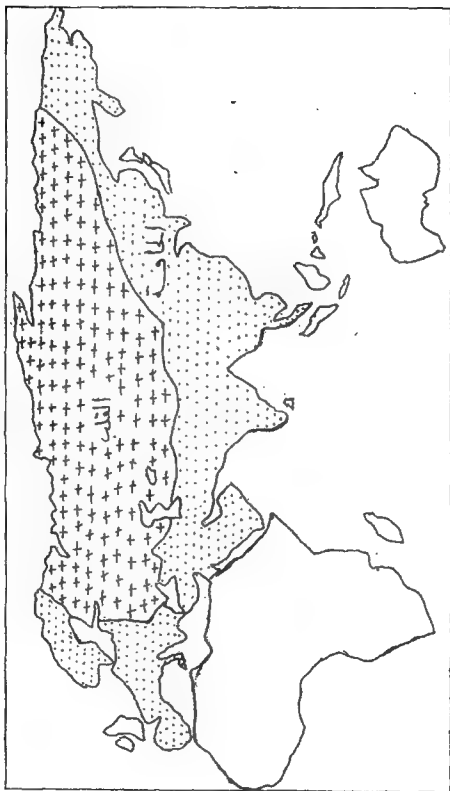
^{٣٦} محمد رياض : الاصول العامة في الجغرافية السياسية ، ط٢ ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٨٥ .

^{٣٧} أحمد خالد حسن : "المنظور الجيوستراتيجي للمضائق العالمية" ، مجلة الدبلوماسية ، الرياض ، ١٩٨٨ ، ص ٢١ .

خارطة (٣)
الانتماء الجيوسياسية للعالم الإسلامي بحسب رؤية مايكلر للعالم



خريطة (٦)
مناطق العالم الإسلامي في منطقة الشرق الأوسط



المصدر : إبراهيم فهد درويش : صدام الحضارات لينتقن ، دراسة جغرافية ، الطبعة الثانية ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص ٩٩ .

ب. يمثل موقع العالم الإسلامي أهمية من خلال احتوائه أو إطلالته على مجموعة من البحار والخلجان المهمة في العالم، فالبحر المتوسط الذي يقع حوضه الجنوبي في الشمال الغربي ضمن العالم الإسلامي يمثل اعظم ممر بحري في العالم. كما أن اتصاله بأربعة بحار أخرى هي (الأحمر والعربي والاسود وقزوين) إلى جانب الخليج العربي وانفتاحه أيضاً على طرق الملاحة العالمية عن طريق الاطلسي والهندي، إضافة إلى قناة السويس ، كل ذلك جعل منه الجسر الأرضي الذي يربط بين العالم القديم (آسيا وأوروبا وإفريقيا) كما مهل عمليات النقل البحري طول العام بسبب الظروف المناخية الدافئة السائدة فيه لوقوعه ضمن المنطقة المعتدلة والمدارية³⁸.

ومن هنا يمكن تصور مركز النقل الجيوبوليتيكي للعالم الإسلامي كونه المكان الذي تتوازن فيه القوى الاستراتيجية، والتي تدفع التكتلات الكبرى للسيطرة عليه والافتراء به.

ج. أما ما بعد الحرب الباردة، فإن هذا الموقع على وفق الرؤية الماكندرية الجديدة للتقسيمات الجيوبوليتيكية المعاصرة يعطي إمكانية التدخل السريع لمواجهة أي موقف يتعارض مع المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية³⁹.

د. يقع العالم الإسلامي ضمن الصياغة الماكندرية الجديدة على خط مستقيم يفصل بين نطاقين جغرافيين يكون امتداده من المغرب حتى اندونيسيا. وتتجلى بواعث (الماكندرية الجديدة) في انها نصب في مصالح قوة عظمى واحدة وهي الولايات المتحدة الأمريكية بعدما كانت (الماكندرية القديمة) تتوخى علاقات القوى الأوروبية من منظور توازن القوى⁴⁰.

لن ما يمكن للتأكيد عليه في هذا المجال أن محاولة هيمسة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم الإسلامي، هي فرصة لتطويق أي تكتل جيواستراتيجي يشكل في آسيا ولاسيما وجود مناطق احتكاك وتماس جغرافي للعالم الإسلامي مع كيانات سياسية تؤهله لل صعود في آسيا لتشكيل ذلك التكتل الجيواستراتيجي مثل الصين واليابان. كما يمنح الولايات

³⁸ صبري فارس الهيتي : الجغرافية السياسية مع تطبيقات جيوبوليتيكية ، دار وال ، عمان ، الاردن ، ٢٠٠٠ ، ص ٢٠٣ .

³⁹ كاتلم هاشم نصة : "الماكندرية الجديدة والوطن العربي" ، مجلة للدراسات السياسية ، طرابلس ، ١٩٩٩ ، ص ١١ .

⁴⁰ المصدر نفسه ، ص ١٢ .

المتحدة أيضاً السيطرة على جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية والسيطرة على الحدود الروسية شمالاً، فضلاً عن دورها في تحجيم دور الصين للرامي إلى الدخول في هذه المنطقة.

٢. الأهمية الاقتصادية :

يتمتع إقليم العالم الإسلامي بإمكانيات كبيرة يمكن طرحها على النحو الآتي^{٤١}:

أ. يعد العالم الإسلامي أكبر احتياطي للنفط في العالم ، إذ يشكل نسبة (٧٥%) من الاحتياطي العالمي من النفط، و(٣٥%) من الغاز الطبيعي، وتوزع أهم مناطق الإنتاج في منطقة الخليج العربي ودول جنوب شرق آسيا (ماليزيا ولندونيسيا وبروناي ووسطها الإسلامي وجمهوريات آسيا الوسطى وأذربيجان) فضلاً عن ليبيا والجزائر ونايجيريا والكامرون في أفريقيا.

ب. أما من حيث المعادن اللافلزية، فتحل الفوسفات المرتبة الأولى إذ تشكل ٥% من الإنتاج العالمي، وتعد المغرب أهم دول العالم الإسلامي من حيث الاحتياطي إذ يوجد فيها (٦٠) مليار طن، فضلاً عن ذلك فانه توجد كميات من المعادن النفيسة مثل الذهب والفضة والمانس.

ج. كما يمثل المطاط والجوت أهم المحاصيل النقدية التي تتوفر في العالم الإسلامي بكميات كبيرة إذ يشكل نسبة (٩٢%) و(٧٥%) من الإنتاج العالمي لكلا المحصولين بالترتيب.

د. ويعد العالم الإسلامي أيضاً أكبر سوق استهلاكية وذلك لكون حجمه السكاني الذي يبلغ مليار وربع للمليار نسمة بحسب بيانات عام (٢٠٠٠) وهذا العدد في زيادة مستمرة نتيجة لارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية حيث تتطلب هذه الزيادات توفير كميات من المواد الغذائية التي توضح مؤشرات الأمن الغذائي الإسلامي . إذ إن هناك العديد من الدول الإسلامية لا تستطيع توفير الحدود الدنيا منها^{٤٢}.

^{٤١} محمود أبو العلا : جغرافية العالم الإسلامي ، ط١ ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ١٩٩٦ ، ص٨١ .

^{٤٢} طه عبد العظيم رضوان : جغرافية العالم الإسلامي ، ج٢ ، ط١ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٨ ، ص٣٠٧ .

ثالثاً : الأمن الإسلامي

تعرض الأمن الإسلامي للعديد من التحديات الجيوبولتيكية تمثلت بالتهديدات الخارجية والتي يمكن إجمالها على النحو الآتي^{٤٣}:

١. الصهيونية العالمية وانشاء الكيان الصهيوني.
٢. التدخل الاجنبي في شؤون الدول الإسلامية ومماندة الأنشطة الانفصالية كما في السودان وتشاد وأفغانستان والصومال والبوسنة والهرسك وقبرص ومناطق إسلامية أخرى.
٣. النظام الدولي الجديد وهيمنة الولايات المتحدة على المنظمات الدولية والتدخل في الشؤون الداخلية لدول العالم بحجج لشرعية وحماية حقوق الإنسان ومكافحة الإرهاب.
٤. محاولة الدول الكبرى للسيطرة على المواقع السوقية في العالم الإسلامي كقناة السويس ومضيق باب المندب، والممرات المائية الأخرى التي يشرف عليها العالم الإسلامي، بل وصل الأمر في الآلفية الثالثة الى احتلال الولايات المتحدة دولتين إسلاميتين هما العراق وأفغانستان.
٥. الغزو الفكري للعالم الإسلامي ونشر البدع والقيم الغربية بحجة الديمقراطية وحقوق الإنسان وغير ذلك، والتشكك في العقيدة الإسلامية والدعوة الى اعتماد المناهج الغربية في التربية والتعليم، والنشاط الاستشراقي الذي يركز على الافكار الدخيلة والفلسفات الوافدة والمواقف المضطربة وضمها الى التراث الإسلامي لتثويبه.
٦. الشركات الاحتكارية العالمية التي تسعى للسيطرة على موارد للثروة الإسلامية ومحاربة الاقتصاد والانتاج والسلع للدول الإسلامية.
٧. المنظمات الاقتصادية الدولية التي تحاول محاصرة الاقتصاد الإسلامي وإضعاف قدرات الدول الإسلامية من خلال الاتفاقيات ولتي تعقدها دول تلك المنظمات وتأثير ذلك على السلع وانتاج الدول الإسلامية.

^{٤٣} صباح محمود : الأمن الإسلامي ، دراسة في التحديات الجيوبولتيكية ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مركز الدراسات والبحوث البهني، ١٩٩٤ ، ص ١٣ .

ولمواجهة تحديات الأمن الإسلامي يتطلب منا العمل وفق المحاور الآتية:

١. مواجهة كل دولة إسلامية للتهديدات الخارجية عليها وفق خطة تتجاوز فيها عوامل الضعف في أمنها الوطني الذاتية والموضوعية.
٢. مواجهة الدول الإسلامية مجتمعة، وفق أساليب ووسائل ثنائية وجماعية لتعزيز عناصر القوة في الأمن الإسلامي ومواجهة التهديدات الخارجية.
٣. تنسيق مواقف الدول الإسلامية في المنظمات الدولية باتجاه تعزيز الأمن الإسلامي.

المبحث الرابع

الحوار الحضاري ومستقبله الجيوبولتيكي

أولاً: مفهوم الحوار الحضاري

الحوار مفهوم سياسي فكري ثقافي-حضاري، اما مصطلح "حوار الحضارات" الذي شاع في منتصف عقد التسعينات من القرن الماضي فانه يتمحور لدى غالبية التيارات متجاوزاً الاختلافات الثقافية والعقائدية الدينية منها على نحو خاص، داعياً الى التعايش بين الأديان السماوية الثلاثة الرئيسية (اليهودية والنصرانية والإسلامية) وتوحيدها تحت مسميات مختلفة^{٤٤}.

وبعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الثنائية القطبية وتوقف الصراع الايديولوجي بين الشيوعية والرأسمالية، واشتعال ثورة الاثنيات والخصوصيات الثقافية، برزت الحاجة الى فهم العالم ثقافياً، اي اعتماد "منهجية التحليل الثقافي" الذي يعده السيد ياسين: المدخل الأساس لتحليل العالم المعاصر^{٤٥}.

^{٤٤} مراد هوفمان : الإسلام في الألفية الثالثة ، ديانة في صعود ، ترجمة عادل المعلم وبين ابراهيم ، مكتبة الشروق ، القاهرة ، ٢٠٠١ ، ص ١٧ .

^{٤٥} عيدا لله بلقرنيز : حوار مع السيد ياسين : "من أجل تحليل ثقافي لطواهر العالم المعاصر" ، مركز دراسات الوحدة العربية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد ٣١٩ ، ٢٠٠٥ ، ص ٢٩ .

لقد انتهت اليوم الاتساق الفكرية المغلقة وسقطت الثنائيات التي سادت في القرن العشرين، في مقابل ذلك يطرح السيد ياسين الاتساق الفكرية المفتوحة التي تعتمد على التركيب لكن الجديد فيها هو انه سيحصل تركيب بين عناصر مضادة^{٤٦}.

ان تحقيق الاتساق الفكرية المفتوحة يعني الوصول الى الفكر الآخر، كما تعني ان الثقافة العالمية بحاجة الى "حوار حضارات" على حد تعبير المفكر الفرنسي روجيه غارودي، إذ يتطلب الحوار تحطيم الحدود والحوالز بين الثقافات الدينية والقومية معياً للوصول الى نقاط التقائها من اجل الاسهام المشترك في حل المشكلات المعاصرة للإنسان^{٤٧}.

إلا انه لا يمكن أن يكون هناك حوار حقيقي ما لم يقتنع كل طرف بان يتعلم شيئاً من الآخر، ثم استعداده لاعادة النظر في معتقداته الخاصة^{٤٨}.

فحوار الحضارات إذن يبدأ من إرادة الاعتراف، ومن الايمان بوحدة الإنسانية، ولكنه يرتقي الى مستوى الوعي بضرورة الحوار الحضاري بصفته قانوناً أساسياً في حياة البشر. فالوعي الحضاري يشكل إذن ركيزة التطلع الجديد لعالم يفتش عن حضارة جديدة وعلى نحو عام ينقسم موقف التيارات الرئيسة في العالم الإسلامي من حيث قبولها أو رفضها للحوار وشروطه الى الاتجاهات الآتية^{٤٩}:

١. تيار التغريب: ويمثل الكتاب والمثقفين الذين ابهرهم النموذج الغربي في عمليات تحديث وتنمية المجتمع سياسياً واقتصادياً وثقافياً من دون النظر للمعطيات والبنس القيمية للمجتمعات الإسلامية سواء من حيث الدين او العادات والتقاليد، فهو تيار يدعو الى الاندماج الكامل مع الغرب.

٢. تيار الرفض القاطع: يرفض الحوار ويدعو الى مكافحة الغرب تماماً إذ يتوقف عند مجموعة ضوابط شرعية فضلاً عن طموحاته في العديد من قضايا العالم الإسلامي ومنها تكوين الدولة الإسلامية.

^{٤٦} المصدر نفسه، ص ٣٠.

^{٤٧} روجيه كارودي: في سبيل حوار الحضارات، ترجمة سليم العوا، ط٢، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، ١٩٩٩، ص ٣٧.

^{٤٨} المصدر نفسه، ص ١٣٩.

^{٤٩} محمد محفوظ: الإسلام: الغرب وحوار المستقبل، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨، ص ٢٤.

٣. التيار التوافقي (الواقعي): وهو تيار ينادي للعقلانية في علاقاته مع الغرب، من خلال التركيز على الجوانب المدنية والاستفادة الى الحد الأقصى من ذلك مع المحافظة على القيم الثقافية سواء كانت الدينية أم القومية، لذلك يضم هذا التيار مجموعة متباينة من الاتجاهات سواء الدينية أم القومية.

ولما كانت معظم الازمات السياسية والاجتماعية والفكرية الراهنة في عالمنا، انمسا تعود الى العوامل المعطلة للحوار الحضاري بين القارات والشعوب والفئات في المجتمعات البشرية، لذا فقد جاءت الدعوة الى حوار الحضارات لفهم عالمنا المعاصر.

ثانياً : نماذج من الحوار الحضاري:

لقد طرحت عدة نماذج للحوار الحضاري يمكن ذكر البعض منها:

١. الحوار العربي-الأوروبي:

بدأ هذا الحوار على مستوى المصالح والمواقف الآتية، إلا أنه لا يمكن أن يرتفع الى المستوى الحضاري الا من خلال نضال مشترك من أجل فهم متبادل أعمق وعلى مستوى المواجهة المشتركة للتحديات المشتركة. ليصل هذا الحوار الى بناء صداقة فكرية ونضالية من اجل تصور مشترك وعمل متساند، ضد الاخطار التي تهدد المصير الإنساني، الا ان الحوار الحضاري اليوم قيّد الحوار الحضاري بالموقف من مفهومي "الديمقراطية" و"المرأة" فالديمقراطية جعلها الصداميون الغربيون سبباً ومبرراً كافياً لنشوب صدام بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية، أما الحوار حول "المرأة" فيعتبره الغرب ركناً من أركان حضارته الغربية ويحاول فرض نموذج بالضغط السياسي والاقتصادي، ويعتبره الطرف الآخر موضوعاً اجتماعياً وليس دينياً، وان مجال للحوار الدخلي حوله ممتد من دون تدخل خارجي^{٥٠}.

٢. مشروع كارودي :

لطلق كارودي على مشروعه اسم "مشروع الأمل" الذي هو في الأصل بحث مقدم بعنوان "من أجل حوار بين الحضارات"^{٥١} تكمن فكرة كارودي الرئيسة للحوار بين

^{٥٠} جميل مطر : المصدر السابق ، ص ٥٩ - ٦٠ .

^{٥١} روجيه كارودي : المصدر السابق ، ص ١٠ .

الحضارات في إمكانية المجموعات البشرية لجمع في العيش بتعاون من دون أن يفرض أحد منهم في رأيه أو عقيدته إلى جانب ما يوفره الحوار من فائدة لا تقتصر على الجانب التاريخي فحسب، بل أنه يقوم بدور نهضوي يسهم في صنع المستقبل.

يتحدد الإطار الفكري للمشروع بالمفاهيم الآتية:

أ. يستلزم مشروع الأمل خلق نميج اجتماعي جديد يسهم في بناء مفهوم سياسي جديد. فكارودي لا يتحدث عن نظرية في السياسة بوصفها أداة السلطة ووسيلتها بمؤسسات وبأجهزة خارجية إلى جانب الإنسان، بل بوصفها تفكيراً يتناول الغايات والالتزام الشخصي والداخلي الذي ينهض به للفرد تجاه الكل⁶².

ب. يتطلب الحوار تحطيم جميع الحدود والحوالز بين الثقافات الدينية والقومية، سعياً للوصول إلى نقاط التقائها من أجل الاسهام المشترك في حل المشكلات المعاصرة للإنسان⁶³.

ج. لا يمكن أن يكون هناك حوار حقيقي ما لم يقتنع كل طرف أن يتعلم شيئاً من الآخر، ثم استعداده لاعادة النظر في معتقداته الخاصة⁶⁴.

د. أن الحوار بين الحضارات وحدة يمكن أن يولد مشروعاً كونياً يتسق مع صنع المستقبل ابتغاء من أن يصنع للجميع مستقبل الجميع. إن التجارب الحالية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية-تجارب "غاندي" وتجربة الثورة الثقافية الصينية-تجارب "تيريري" الجماعية في إفريقيا نتيج لنا أن نرسم منذ اليوم الخطوط الأولى لهذا المشروع الكوني في القرن الحادي والعشرين⁶⁵.

٣. مشروع محمد خاتمي:

يقوم نمط للعلاقة بين الحضارات عند خاتمي على التفاعل والتشابك فيما بينها، إذ تتأثر الحضارات ببعضها الآخر. إلا أن خاتمي يعتقد أن الحضارة الغربية تواجه أزمة في الفكر في جميع شؤون الحياة، وإن الحضارة الغربية التي يسجل لها السبق على الحضارات

62 المصدر نفسه، ص ١٠.

63 المصدر نفسه، ص ٣٧.

64 المصدر نفسه، ص ٣٩.

65 روجيه كارودي : الاصوليات المعاصرة ، ترجمة خليل أحمد خليل ، دار العين ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ص ١٨٩ .

الخرى منذ أربعة قرون أصبحت هرمة، إلا أنه لا يمكن التنبؤ بموعد زوالها، لكنها تسعى بالمقاييس عبر آليات النظام العالمي الجديد، ومن خلال القوى العظمى المنفردة (الولايات المتحدة الأمريكية) إلى استعادة الموقعية للتاريخية والبشرية والتكنولوجية التي تمتلكها للاستمرار في اظهار حاكميتها بصورة ظاهرة الاصلاح^{٥٦}.

يتضمن مشروع خاتمي لحوار الحضارات المفاهيم الآتية^{٥٧}:

١. احلال عقلية الحوار محل عقلية الآلة والنار.
 ٢. يقترح خاتمي عبر طرحه للنظرية حوار الحضارات أن يصل العالم وعبر الحوار الى السلام والعدالة والحرية في الالفية الجديدة.
 ٣. يؤكد خاتمي أن السعي في نفي الغرب هو محاولة لالغاء السلطة السياسية والثقافية والاقتصادية التي يريد الغرب فرضها علينا.
- وإذا اردنا الاستفادة من التجربة الغربية الحالية ورفض النقاط السلبية ، فلانمر من المعرفة الصحيحة للغرب^{٥٨}.

وإذا كانت كل الحقائق تؤكد أن "حوار الحضارات" هو المفتاح الحقيقي لتعاش الشعوب وتفاعلها فيما بينها لبناء حضارة جديدة، فإن أكثر نزاعات القرن العشرين كانت بسبب جهل المتحاورين أو الاستعجال الذي لحاط باطلاق الحوار أو لضغط الظروف السياسية والأمنية الى صدامات حضارية. ومن الامثلة على ذلك النزاع الاتني والاجتماعي الناشب في جزر مندناو بالفلبين ونزاع الاستقلال في جزيرة تيمور الشرقية بين السكان والاحتلال الاندونيسي، والنزاع على كشمير بين الهند والباكستان والحرب الانفصالية في الشيشان ، وكيانات أخرى في القوقاز والنزاع على إقليم فاغورنو كاراباخ بين الارمن والاربيين، والصراع الفلسطيني-الإسرائيلي، والنزاع للتركي-اليوناني على قبرص، وحروب البلقان الأهلية، والنزاعات في جنوب السودان وغربه وشرقه^{٥٩}.

^{٥٦} محمد خاتمي : نداء الى حوار الحضارات ، أوراق ومداخلات ، المؤتمر الدولي حول كيف نواصل مشروع حوار الحضارات ، دمشق ، ٢٠٠١ ، ص ٤ .

^{٥٧} محمد خاتمي : حوار الحضارات ، مركز حوار الحضارات ، طهران ، ١٩٩٨ ، ص ٤٢ .

^{٥٨} المصدر نفسه : ص ١٢٨ .

^{٥٩} جميل مطهر : المصدر السابق ، ص ٥٨ .

وانا اتفق مع الاستاذ جميل مطر في ان كل هذه الافكار الغربية كانت تسعى الى "التمهيد لصيغة جديدة لنظام امبراطوري تنتقل فيه الولايات المتحدة من موقع القطب الاوحد الى موقع المركز أي موقع مناسب لكيان يتمتع بالهيمنة السياسية الشاملة وتسود العالم معتقداته الثقافية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية، ولاسيما انه توافرت له أسباب الهيمنة العسكرية، ولم يتبق له سوى خلق الظروف المناسبة لنشأة وعي كوني واحد وشامل أي فرض الاتباع الثقافي والحضاري والعلمي على مختلف شعوب واقاليم الأرض".^{٦٠}

إن ما يمكن التأكيد عليه هو ان "حوار الحضارات" لا يمكن أن يتحقق الا إذا ادركنا ان هذا "الحوار" يعني الصعود الى منابع الحضارات وتتبع مسيرتها واكتشاف آفاقها، والكشف عن القوانين العامة واللغة المشتركة التي تقوم فيما بينها، وتوظيف ذلك كله في الجهد العام الذي تبذله البشرية في السعي لبناء عالم جديد.

القوميات وتأثيرها على العلاقات الدولية

المدرس المساعد

حسين مصطفى احمد^(١)

المقدمة

يحتل موضوع القوميات في السنوات الأخيرة أهمية استثنائية على صعيد العديد من دول العالم تلك التي يتكون سكانها من أكثر من قومية، ويشكل هذا الموضوع قضايا ساخنة تمس صميم أمن وكيان واستقرار تلك الدول، لاسيما بعد أن أخذ البعد القومي أو العرقي أو الديني أو الثقافي لكثير من القوميات أبعاداً أخرى نتيجة عوامل داخلية ومؤثرات خارجية، والتي تتمثل بكثير من دول العالم.

إن علم العلاقات الدولية يهتم بدراسة هذه الظاهرة انطلاقاً من أن حركات التحرر للشعوب تمثل لاعباً وفاعلاً مهماً في مسار العلاقات الدولية وطرفاً في رسمها وتغيير مجراها، لأن الإرث الاستعماري والتنوع العرقي الهائل وغياب الديمقراطية والحريات، قد جعل دول العالم تدفع تكاليف باهظة من أرواحها وأموالها واستقرارها ونماتها ثمناً للنزاعات والصراعات والمشاكل القومية، الأمر الذي يدعو للباحثين بالحاح لتكثيف الجهود في مثل هذه البحوث التي تتناول هذا الأمر.

فرضية البحث:

ينطلق البحث من فرضية مفادها إن قضايا القوميات هي من أهم العوامل المؤثرة في العلاقات الدولية والسياسة الخارجية لأنه تعين صانع القرار على التعامل الصحيح مع مشاكل القوميات وحقوقها لتوظيفها في اتجاه اغناء وتقوية العلاقات الدولية بدل أن تتحول إلى بؤرة استنزاف داخلي وتوتر خارجي ومدخل للتدخلات الأجنبية.

^(١) كلية العلوم السياسية - جامعة القاهرة

منهجية البحث:

يستعين البحث بالمنهج النظامي (Approach systemic) والمنهج التاريخي (Approach historic) لطبيعة الموضوع الذي يجمع بين السياسة والتاريخ، لمقتضيات الضرورة في الموضوع المبحوث عنه، والسعي لبلورة رؤية واضحة عنه تؤدي إلى وضعه في إطار علمي، فضلاً عن الاستعانة بالمنهج الوظيفي البنوي (Approach Functional and structural) الذي يساعد على تحليل الوظيفة التي تؤديها الظاهرة في البناء الكلي لظاهرة أكبر، وفي ضوء ذلك تحددت هيكليّة البحث.

المبحث الأول: مدخل لدراسة القومية

لقد تطرق الكثير من علماء السياسة إلى ظاهرة القومية عند حديثهم عن مكونات الدولة، كما فعل علماء الاجتماع السياسي وعلماء الأنثروبولوجيا والاثنولوجيا وعلماء الجغرافية البشرية والدين والفلسفة واللغة والأدب والتاريخ كل حسب مدخله الخاص ومن زاوية تعلق الأمر بعلمه وتخصصه، ولطبيعة الموضوع ينبغي معرفة ماهية القومية وكيف كانت وأصبحت عبر التاريخ، وعوامل تكوينها، وما النظريات التي تفسر ظاهرة القومية. أولاً: مفهوم القومية:

أختلف الباحثون في تحديد معاني القومية تبعاً لاختلافهم في المداخل والمصالح والإيديولوجيات المختلفة في نزاعاتهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية.

وعلى أية حال، فالقومية لغة مأخوذة من كلمة (قوم) وهي نوع من الولاء للقوم الذي ينتسب إليه^(١)، وقد وردت في القرآن الكريم كلمة قوم في (٣٨٣) آية وكلها بمعنى جماعة اجتماعية^(٢) وعند الغرب فإن كلمة القومية مأخوذة من الكلمة اللاتينية (Nascar) التي اشتقت منها كلمة أمة (Nation)^(٣) التي جاءت بدورها من الكلمة اللاتينية (Natio) التي تعني

(١) بوريد شيلر، القومية عرض وتحليل، ترجمة جعفر خصبله، وعدنان الحميري، بغداد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٦٢، ص ١٨.

(٢) عبد السلام إبراهيم بغداد، الوحدة الوطنية ومشكلات الاكليات في إفريقيا، الطبعة الأولى، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٣، ص ١٥٨.

(٣) بوريد شيلر، المصدر السابق، ص ٦٦.

المنحدرة من أصل واحد^(١) التي لها أصل كلمة (Natus) وكلاهما أخذتا من كلمة (Nascar)^(٢).

أما كلمة القومية اصطلاحاً فقد جاءت في وقت متأخر عند نداء الشريف حسين عام ١٩١٦، وشاع استخدامها وأصبح مدلولها يعني الانتماء العربي للشامل، ونحتت كلمة قوم التي تعني في التركية للقبيلة أو الشعب لتدل على الوجود القومي^(٣).

ولاشك إن القومية كظاهرة ومفهوم سياسي تشير إلى عصري الوعي الذاتي والحركة السياسية لدى أبناء الأمة في سعيهم لتقرير مصيرهم وإثبات حقهم في خلق سلطتهم وكيانهم المميز ثقافياً واقتصادياً، وإنجاز مشروع دولتهم المستقلة، فالقومية هي الوعي المتميز الذاتي الجماعي بوجود الأمة والحركة السياسية هي التعبير عنه بشكل سياسي للوصول إلى الهدف وهو إنشاء الدولة^(٤).

إن مفهوم القومية هو مجموعة من البشر تربط أعضائها صلات متعددة من وحدة الإقليم والأصل والعادات واللغة ويربط بين أفراد تشابه في الحياة والضمير الاجتماعي^(٥).

كما تعرف القومية بأنها حالة عقلية يكون الولاء الأسمى للفرد وعائديته للدولة القومية، أو الموقف الذهني الذي يحس بها الفرد من أن دولة الأمة هي محط الولاء العظماني الأسمى^(٦).

وهناك تعاريف أخرى لها معاني جانبية للقومية، فبدلاً من أن تكون القومية مجموعة بشرية قبل أي وصف آخر نراها تصرف للإطلاق على أمور هي من لوازم القومية وتوابعها مثل التعريفات الآتية كالرغبة في المحافظة على الهوية القومية أو الثقافية لشعب عندما تكون الهوية في خطر، أو أن القومية هي برنامج أو مثل أعلى يقوم على الوعي بالأمة، أو أنها

(١) ابتسم عبد الزهرة دور الأقليات القومية في قوة الدولة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠١، ص ١١.

(٢) بويد شيفر، المصدر السابق، ص ٦٦.

(٣) أحمد صلفي الحكيم، ملاحظات في نشأة الفكر القومي العربي، عن كتاب القومية العربية في الفكر والممارسة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، دت، ص ٣٠٩.

(٤) سعد الدين إبراهيم ولخرون، المجتمع والدولة في الوطن العربي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٦، ص ٤٤.

(٥) ساطع الحصري، ما هي القومية؟ أبحاث دراسات على ضوء الأحداث والنظريات، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، ص ٣٥.

(٦) اسماعيل حسين فضل، المشكلة الكردية في العراق، رسالة ماجستير غير منشورة، الخطوم، معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية، ١٩٨٥، ص ٤٩.

مجموعة الخصائص المعبرة عن وجود أمة كحركاتها السياسية والثقافية المعبرة عن وحدتها إزاء الخطر الخارجي أو مخاطر الاستبداد الداخلي^(١٠) بهدف تطويرها وتقدمها.

ومن قراء التعريفات آنفاً نشير إلى الملاحظات الآتية^(١١):

- ١- لا يشترط في القومية أن يكون جميع أفرادها في مكان واحد ولا في دولة واحدة.
- ٢- لا بد للقومية من أرض يعيش الناس عليها، مهما كان حجمها صغيرة أو كبيرة لأن تبلور شخصية أي قوم يكون عبر تحولات وتفاعلات في أرض معينة.
- ٣- قد يمارس ظلم معين ضد قبيلة أو طائفة من قومية لأي سبب وتهميش، وتشعر بالتمييز وتطالب بمطالب سياسية، ومثل هذه الحالات تعد قضايا دون القومية.
- ٤- قد يمارس ظلم معين بسبب الأرض أو السيادة أو الدين، وهذه الحالة تعد القضية فوق القومية.
- ٥- يختلف مفهوم القومية عن مفهوم (الرس Race) والملاحة لا توجد سلالات نقيية بالرغم من ادعاء الشوفينية، لذلك لا تعد وحدة الأصل من عوامل تأسيس القومية إلا في مجالات ضيقة كعامل مساعد.
- ٦- إن القومية غريبة عن إرادة الشر وأبعد ما تكون عن البغضاء فهي شعور الفرد بالولاء المطلق الواجب عليه نحو دولته القومية^(١٢).
- وأخيراً لا ننسى أنه قد تعلق بمعنى القومية معاني سلبية تدل على الشوفينية وكره الآخرين والاستعلاء العربي... الخ.
- إن اختلاف الباحثون في الوصول إلى تعريف للقومية يكون جامعاً لا بد من الإقرار بأن هذا التعريف فيه غموض واضح، ويرجع ذلك للأسباب الآتية^(١٣):-
- ١- تضارب المصالح السياسية واختلاف الدول التي تنشأ فيها أصحاب التعريف.

(١٠) مع زيادة، الموموعة الفلسفية العربية، بيروت، معهد الإمام العربي، ١٩٨٨، ص ١٠٨٢.

(١١) للتفصيل ينظر: مسيرة بحر، المسجل للدراسات اللغويات، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٢، ص ٨، وكذلك مثي أمين قنار، قضايا القوميات وأثرها على العلاقات الدولية (القضية الكردية نموذجاً)، المليمادية، مركز كريستيان للدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٣، ص ١٩.

(١٢) هانس كين، القومية معاًها وتاريخها، ترجمة أمين محمود الشريف، القاهرة، مطبعة النهضة، دت، ص ١.

(١٣) مثي أمين قنار، المصدر السابق، ص ١١-١٢.

٢- القومية ظاهرة اجتماعية، ومن شأن أغلب المصطلحات الاجتماعية أن تختلف فيها الروى والأفكار، لأنها تصاغ في مجتمعات متباينة تعبر عن تجارب مختلفة، ولا تعبر عن حقائق متطابقة، لأن الأمور الاجتماعية تختلف عن الأمور المادية الطبيعية التي تتفق حقائقها باختلاف الزمان والمكان.

٣- المذاهب الأيديولوجية واختلاف النظريات.

٤- اختلاف العلماء حول تكوين القوميات.

وتبعاً لذلك فقد اختلف الباحثون في تحديد معنى القومية في عناصرهم وثقافتهم ونزعاتهم السياسية واتجاهاتهم الفكرية.

ثانياً: نشأة وتكوين القوميات:

تحدث علماء السياسة عن العوامل المشتركة يمكن للشعوب الشعور بالخصوصية والتميز من الآخرين، واختلفوا في تقدير أهمية تلك العوامل وأولويتها في تشكيل تلك الأمة، ولكن يكفي أن تشعر مجموعة من الناس بوجود بصلات خاصة وروابط متميزة فيما بينها لكي يمكن أن يكونوا قومية خاصة بغض النظر عن المكون الأساسي لذلك الشعور لتلك المجموعة من الناس في أن تحافظ على خصوصياتها، وفي أن تعيش في مساواة وبحقوق كاملة مع باقي الشعوب التي تختلف معها.

وفي ضوء هذه الحقيقة، فثمة عوامل تساهم في تكوين القوميات، يمكن إجمالها على النحو الآتي^(١٤):-

١- اللغة: وتشكل الوعاء الفكري والثقافي لأي أمة، فهي أداة للاتصال والتفاعل والتلاحم، وقد تم الإحساس بوحدة اللغة حتى أصبحت سياسة متبعة في كل الدول والقارات، ولعل ألمانيا دليلاً على ذلك.

٢- الدين: وهو أعز الانتماءات عند الإنسان وأعلاه قيمة، وفي نظرة للقضايا القومية المشتعلة حالياً لا تدع فرصة في تغليب العامل الديني على غيره، مثل القضية الفلسطينية وقضية كشمير وصراعات المسلمين والهندوس في الهند والأكران في كوسوفو... الخ.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٢-٢٤.

٣- الأرض: وتعد من العوامل الرئيسية في تكوين القومية في كل الأحوال، فمشكلة الأرض من أعقد المشكلات في الصراعات القومية وسبباً رئيساً في تعجزها، فالأمة التي تفقد الأرض تفقد كيانها شيئاً فشيئاً.

٤- العرق: وهي من العوامل الرئيسية المكونة للقومية، فلاشك إن أمة مثل السود في أمريكا لا يجمعهم إلا لون البشرة، وبالتالي فإن هذا العامل يمكن أن يضاف إلى العوامل الأخرى قوة، فالسود في أمريكا لا يجمعهم في الغالب إلا لون البشرة.

٥- التاريخ: وهي من العوامل الأساسية المكونة للقومية، ويلجأ دعاة القومية إلى كتابة التاريخ القومي، والتفكير بأجداد الماضي لتوحيد الأمة في الحاضر وخلق الشعور المشترك بوحدة المصير في المستقبل.

٦- العادات والتقاليد: وهي من الأمور المهمة التي تضيف لوناً خاصاً لأي قومية وتعطيها للتمييز والشخصية.

وهناك عوامل أخرى ذات أهمية تذكر أو جانبية التأثير على النشأة القومية مثل إرادة الحياة المشتركة ووحدة المصالح الاقتصادية والمدنية والفكرية، ووحدة الآمال والألام والوحدة الثقافية والإرادة الحرة^(١٥).

أما نشوء القوميات فإنه تعزى إلى جملة من المصبات يمكن إيجازها على النحو الآتي^(١٦):

١- وجود القومية نتيجة لعامل العزلة والتحول في الميول للجماعة، لاسيما إذ كانت تحتل منطقة معينة من الدولة، عندئذ فإنها تكسب الشعور بالعزلة، الأمر الذي يدفعها بتكوين دولة خاصة بها، ولعلتها كجماعات الباسك في أسبانيا.

^(١٥) مجيد حميد عارف، «توغرافيا شعوب العالم»، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ٨٠-٨١، وقارن مع صباح محمود وآخرون، «الجغرافية السياسية»، مكان النشر بلا، دار النشر بلا، دت، ص ٧٧.

^(١٦) للتفصيل ينظر: محمد محمود إبراهيم الدوب، «الجغرافية السياسية»، أسس وتطبيقات، القاهرة، المكتبة الفنية الحديثة، ١٩٧٣، ص ٢٠٣، وكذلك محمد متولي ومحمود أبو العلا، «الجغرافية السياسية»، الكتاب الأول، القاهرة، المطبعة الفنية، دت، ص ١٠٧-١٠٨، وكذلك عبد الرزاق عباس حسين، «الجغرافية السياسية مع التركيز على المفاهيم الجيوبوليتيكية»، بغداد، مطبعة اسعد، ١٩٧٦، ص ١٧٦-١٧٧.

٢- ظهور القومية نتيجة الجمع الاصطناعي لعدة قبائل أو قوميات مختلفة من قبل المستعمر في وحدات إدارية، أو برسم الحدود السياسية بشكل يقسم للقومية الواحدة بين دولتين أو أكثر، وأمثلةها قضية الطوارق المنتشرة في مالي والنيجر وليبيا والجزائر^(١٧).

٣- بروز للقومية نتيجة لموجات الغزو التي تعرضت لها الدولة، كالقومية الألمانية في الألمان.

٤- ظهور القومية من بقايا الشعوب التي تعيش في بلادها نفسها دون أن تزاخمها عناصر أخرى، وأدى نزول عناصر جديدة في البلاد تمتاز بكثرة عددها، مما جعل العناصر القديمة تنزوي في أماكن معينة تعزلها عن العناصر الجديدة الغالبة، وأمثلةها الاستراليين الأصليين في استراليا والهنود الحمر في الولايات المتحدة الأمريكية.

٥- نزوح جماعة بشرية من منطقة كانت تعيش فيها إلى منطقة أخرى، وكان عددها قليلاً، مما خلق فيها أقلية قومية، وأمثلةها الأقلية التركمانية في العراق.

ثالثاً: نظريات تفسير نشأة وتكوين القوميات:-

تشترك ثمة نظريات في تفسير نشأة وتكوين القوميات تقف في مقنمتها:

١- النظرية الأملية:

تتادي هذه النظرية بان العرق واللغة هي العوامل الرئيسية المكونة للقومية مع الادعاء بوحدة العرق الاربي الذي ينسبون إليه حسب مدعاهم.
ومن الذين تبنوا هذه النظرية وكانت ركائز لهم هيردر (١٧٤٢-١٨٠٣) وفيخته (١٧٦٢-١٨١٤).

^(١٧) عبد السلام إبراهيم وسعد ناجي، الأمن القومي العربي ودول الجوار الجغرافي، أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات الاستراتيجية، ١٩٩٩، ص ٥٩.

ولقد كان لأراء هيردر وفيخته في شأن أهمية اللغة أثر عظيم في بعث الروح القومية للألمان. ودفعت كثير من المفكرين إلى الاهتمام بالبحوث والدراسات اللغوية والاجتماعية والسياسية والقومية.

ولعل الألمان أول من استفاد من هذه النزعة القومية، وكانت نتيجة ذلك الوحدة التي أدت أن تكون ألمانيا الآن إحدى الأقطاب الثلاثة اقتصادياً بعد أمريكا واليابان.

كما أضاف البعض إلى العرق ووحدة اللغة ووحدة الجغرافيا الطبيعية، ومن هذا المنظور يرى جيسبي مازيني إن كلاً من جبال الألب والبحر المتوسط يشكلان حدود الأمة الإيطالية. وكذلك اللغة فحيثما كانت الإيطالية لغة الحديث يكون وطن الشعب الإيطالي^(١٨).

ومع كل هذا فإن النظرية الألمانية عرضة إلى انتقادات عدة، أخذت شكلها في اتجاهين رئيسين فبعضهما يستند إلى وقائع تاريخية، وبعضها الآخر يستند إلى ملاحظات نظرية^(١٩).

الأولى: إن هناك دولاً تضم أناساً يختلفون في لغاتهم مثل سويسرا وبلجيكا، وهناك دول انفصلت عن بعضها البعض، على الرغم من وحدة لغاتها مثل أمريكا الشمالية والجنوبية، الأمر الذي يدل على إن القومية لا ترتبط باللغة.

الثانية: إن العاطفة والمثينة شيان أهم من اللغة لأنها تؤثر في تكوين الأمة أكثر من اللغة، فاللغة عاملاً ثانوياً وليس عاملاً أصيلاً.

٢- النظرية الفرنسية:

تنادي هذه النظرية بأن الإرادة والرغبة في العيش المشترك داخل الحدود الطبيعية هي أساس القومية.

ومن أبرز رواد النظرية المؤرخ الفرنسي المعروف دي كولانج وأرنست رينان، وجاءت هذه النظرية كرد للنظرية الألمانية ونتيجة لتضارب المصالح بين الألمان والفرنسيين لأن سياسة الفرنسيين ترمي إلى التوسع في الشمال حتى نهر الراين لغرض الاحتفاظ بإقليم

(١٨) إدوارد مكثل بيرنز، أفكار في صراع النظريات السياسية في العلم المعاصر، دار النشر بلا، دت، ص ٣٤٩.
(١٩) سلفج المصيري، الأصول القومية لسلفج المصيري، سلسلة التراث القومي، القسم الثاني، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ١٨٢٦-١٨٢٧.

الأكراس الناطق بالألمانية، وهو ما استولت عليه فرنسا في عهد لويس الرابع عشر وضمنته بموجب معاهدة ويستفاليا ١٦٤٨ المشهورة.

يقول (دي كولانج) في الاحتجاج لصحة نظرياتهم، إن للقومية لا تتعين باللغة، بل إنها تتعين بالرغبة والمشينة، فالعدالة تقضي بمراعاة الأكراسيين، وتحقيق رغباتهم في هذا المضممار (٢٠).

ويرى أرنست رينان في تعليقه على هذه النظرية بأن للتاريخ المشترك والتراث والعيش المشترك والأمال المشتركة تؤدي إلى خلق وتطوير الإرادة المشتركة للحياة معاً وتكوين أمة واحدة، إلا إن ما يؤخذ على هذه النظرية أموراً كثيرة منهم (٢١):-

- ١- الإرادة قد لا تكون واعية، وتخضع للكثير من العوامل.
- ٢- الإرادة نتيجة وليس سبباً في إيجاد الأمة.
- ٣- الإرادة نظرية منحازة ناتجة عن النفع عن مصالح سياسية معينة وليست تحليلاً أكاديمياً مجرداً موضوعياً.
- ٤- الإرادة ليست ثابتة، وقد تتغير بالمتغيرات والمصالح السياسية والاقتصادية.. وهكذا.

٣- النظرية الماركسية والاشتراكية (النظرية الاقتصادية):

تأتي نظرية ماركس في إطار النظريات التي تقوم على أساس إن المصالح الاقتصادية والطبقية هي العامل الأساس في تكوين الأمة، وبالتالي تزول الصراعات والفوارق بجميع أشكالها التي تعتمد على اللون أو اللغة أو الجنس والعرق.. الخ.

ويرى ماركس وانجلز الصراعات القومية مظهراً من مظاهر الصراع الطبقي، أما الصراعات القومية المحضة فكانا يقولان عنها حثالات للتاريخ لأنها تصنع تطور نفسها ضد تطور القوى المنتجة (٢٢) ولعل المانيفستو الشيوعي لم يكن مخطئاً حينما قال الشيوعية لا تؤمن

(٢٠) إيوارد مكثال بيرنز، المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٢١) مثنى أمين قاهر، المصدر السابق، ص ٢٧-٢٨.

(٢٢) ليويلد مرسورا، الأمة والأمية (قضايا وقلق مفهوم اشتراكي للأمة)، ترجمة ميشيل كبلو، دمشق، منشورات وزارة الثقافة السورية، ١٩٩٣، ص ٢١.

بالقومية، والخلاقات القومية في طريقها إلى الزوال، وإن سيطرة الكادحين ستسرع الخطى^(٢٣).

وانتقد ماركس وانجلز في جميع كتاباتهما المبدأ القومي ووجوب إزالة القوميات على سطح الأرض، لأنها مجرد اختراعات برجوازية، فالنظريات والأفكار الشيوعية التي أعلنها قادة الفكر الشيوعي وزعماءه حول القومية قد اصطدمت بواقع الحياة، وهو ما أدى إلى خروج الكثير من المفكرين الشيوعيين على المنهج في محاولات تصحيحية على حسب مدعاهم بغية أن يفهم رفاقهم الماركسيون المسألة القومية كمسألة حاسمة في مجرة التاريخ بجانب الصراع الطبقي، وسميت هذه المحاولات من للتقليديين بأنها محاولات تحريفية وإبداعية، وكان أغلب أصحاب تلك المحاولات من دول العالم الثالث^(٢٤)، لأنها تترك المشكلة بسبب التجربة التاريخية الخاصة بها، واعتمد هؤلاء آرائهم بأنها إعادة إنتاج صلاحية الماركسية وتوسيع أبعادها وتحولها إلى مدرسة مواكبة للمتغيرات.

٤- النظرية الدينية:

تنادي هذه النظرية بأن الدين والعقيدة أقوى عامل في تكوين الأمم، إذ يشكل وحدة الفكر والمعتقد، ووحدة الشعور والوجدان، ووحدة الهدف والغاية، ووحدة الثقافة والتشريع، ووحدة الولاء والبراء.

وتحت تأثير هذه النظريات قامت الدعوات المختلفة لتشكل الأمم على أساس ديني، وأمتلتها الوحدة الدينية العالمية عند (كانت)^(٢٥) ودعوة اليهود لجمع الشعب اليهودي وتكوين أمة ودولة دينية مثلما قامت فلسطين فعلاً.

وكثيراً ما كان العامل الديني منبع الإحساس القومي، وظهر هذا الأمر كثيراً في يوغسلافيا، فالصرب والكروات والبوسنيون أصل عرقي واحد وبيئة واحدة، ولغة واحدة، ولكن الصرب أرثوذكس، والكروات كاثوليك. والبوسنيون مسلمون، ومن ثم فإنهم ينظرون

(٢٣) عبد الرحمن البزّاز، هذه قوميتنا، القاهرة، دار القلم، دت، ص ٣٦.

(٢٤) مثلي أمين قنر، المصدر السابق، ص ٣٠.

(٢٥) محمود عاطف هنا، التنظيم السياسية، القاهرة، دار الفكر، ١٩٨٤، ص ١٩.

إلى أنفسهم ككثاثة أمم مختلفة، وقد حصل فيما بينهم تلك الحروب الطاحنة والمجازر الدامية في البلقان المعروفة التي استهدفت في التسمينات الإبادة العرقية للمسلمين^(٢٦).

١- أما الإسلام فإنه يفرق بين الشعوب أو الشعب وبين الأمة ولا بعدهما نقيض بعض، بل يكمل بعضها البعض، كما قوله تعالى ((يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله اتقاكم))^(٢٧) أو ((وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأن ربيكم فاعبدون))^(٢٨).

وفي مقابل النظريات الأربعة التي تطرقت فيها عن تفسير القوميات، فإن هناك نظريات وأفكار تناولت الأشكال نفسها بالتحليل ولكن من وجهة نظر عنصرية، وأمثلتها أفكار أرسطو التي تتبع من مفهوم ومنهج (الحنمية الجغرافي) الذي يرى خضوع البشر في قابليته وتطوره الاجتماعي والحضاري لعوامل البيئة والمناخ الجغرافي^(٢٩) وأفكار بودان ومونتسكيو في كتابة روح القوانين، وقد ظلت تلك الأفكار العنصرية عالققة في الأذهان حتى القرن العشرين.

كما كان لظهور نظرية دارون دور كبير في تأكيد هذه المفاهيم، ووقع في الخطأ نفسه فلاسفة مشهورون أمثال ديفيد هيوم وإدوارد لونك والأمريكي مورغن، ونوت، وكليدون وبلومناخ وباغون^(٣٠).

ولعل النظريات العنصرية الحديثة لجوزيف آرثر دي جوبينيو (١٨١٦-١٨٨٢) وهوستون ستوبارت (١٨٥٥-١٩٢٧) والفيلسوف الألماني هاينرخ فون تريتشكه هي الأكثر عنصرية على الإطلاق.

^(٢٦) للتفصيل ينظر: برومبة بوديني، الاثنوس والتاريخ، موسكو، دار التقدم، ١٩٩٨، ص ٢١، وكذلك عبد العزيز المهني، البوسنة والهرسك، القضية والمأساة، الرياض، دار الهلال، ١٩٩٢، ص ٧٥ وما بعدها.

^(٢٧) سورة الحجرات، الآية ١٣.

^(٢٨) سورة الأنبياء، الآية ٩٧.

^(٢٩) فتحي أبو عينة، دراسات في الجغرافيا البشرية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ١٤.

^(٣٠) فريش النوري، مدارس الانثروبولوجيا، بغداد، جامعة بغداد، ١٩٨٩، ص ٧٦-٨٠.

وكانت هذه النظريات تروج وتنتشر وتدعم وتوفر الغطاء لعمليات الجشع والمعاملة الإنسانية للعمال السود، فضلاً عن تبرير تجارة الرقيق، حتى وصل الأمر إلى تغليف هذه النظريات بغلاف الدين^(٣١).

وفي رد عليها اجتمع لغيف من العلماء والمختصين في علوم الوراثة والأحياء والنفس والاجتماع والانثروبولوجيا في مقر اليونسكو في باريس بشرحون فيه بطلان النظريات العنصرية، وأُشتمل البيان على عدة نقاط^(٣٢):-

- ١- إن الناس جميعاً ينتمون إلى الجنس البشري وينحدرون من أصل واحد، على الرغم من وجود جدل حول زمن كيفية تفرع الجماعات البشرية من الأصل الواحد.
- ٢- الفوارق الموجودة بين الجماعات البشرية تعزى إلى التكوين الوراثي، كما يعزى البعض الآخر للبيئة.
- ٣- ليس من الضروري أن تكون الجماعات الدينية والوطنية والثقافية مطابقة لجماعات عرقية.
- ٤- الفوارق الموجودة بين الجماعات البشرية لا تقدم أي دعم للأفكار الشائعة عن أي تفوق أو انحطاط عام.

المبحث الثاني: الدولة القومية والدولة المتعددة القوميات

تؤكد الأحداث والوقائع الدولية أن الدولة القومية الحديثة الكاملة السيادة لم تكن معروفة قبل أربعة قرون، على الرغم من وجود مؤشرات تدل ظهور الدولة كنظام سياسي أبعد منها تاريخياً.

وللوقوف حول هذا الموضوع ينبغي معرفة الدولة القومية وكيف كانت وأصبحت عبر التاريخ، والدولة المتعددة القوميات التي كان من جملة ما يمكن أن تضم الأقليات القومية.

^(٣١) نيتون هنري زيغ، المؤسسة العرقية في بريطانيا، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٣، ص ١٨-١٩.

^(٣٢) للتفصيل انظر: عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠.

أولاً- الدولة القومية Nation-State:

تعد الدولة القومية كياناً سياسياً فاعلاً ومؤثراً في العلاقات الدولية لأنها صاحبة السيادة، ولاسيما وحدتها وعدم قابليتها للتجزئة ولا توجد سلطة أعلى منها^(٣٣)، حتى إن القانون الدولي لا يعترف بوجود سلطة يمكن أن تكون بديلاً عنها.

أن مفهوم الدولة القومية هي الدولة التي يعيش فيها شعب من قومية واحدة خالية من الأقليات والانقسامات وموحدة حضارياً وذات سيادة^(٣٤)، ويندر أن نجد مثل هذه الدولة، وقليل جداً من الدولة ينطبق عليها الوصف، بأنها دولة قومية لعدم تجانسها قومياً، فالدول خليط من تجمعات تاريخية كان توحيدها بفعل التطورات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاصلة فيها^(٣٥).

كما تعرف الدولة القومية بأنها وحدة سياسية تتضمن إقليمياً جغرافياً محدد تحديداً دقيقاً يسكنها مجموعة من السكان منظمين أنفسهم داخلياً بما يضمن لهم نوعاً من القوة، ويعد السكان أنفسهم أمة لهم مشاعر قومية موحدة^(٣٦).

وقد اختلف الكتاب حول الحقيقة التي ظهرت فيها الدولة القومية، فبعضهم يرجعها إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر^(٣٧)، والبعض الآخر يرجعها إلى حقبة زمنية أقدم من عصر النهضة الأوروبية^(٣٨).

ويبدو في الواقع أن قبول فكرة الدولة القومية ترجع إلى فلسفة هيجل (١٧٨٠-١٨٣١)^(٣٩)، إذ تمثل النسق الهام للفكرة، ودافعاً للدولة الأوروبية للتخلص من

(٣٣) منظر الشاوي، نظرية السيادة، بغداد، جامعة بغداد، منشورات العدالة، ٢٠٠٢، ص ٢٣.

(٣٤) عبد الرزاق عباس حسين، للمصدر السابق، ص ١٧٥.

(٣٥) أحمد عباس البديع، الأقليات القومية وأزمة السلام العالمي، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٤، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٢، ص ١٦٦.

(٣٦) De, Bilj. Harm J, man shaped the Earth: Atopical Geography, Publishing California, 1994, P. 246.

(٣٧) بريد شيلر، للمصدر السابق، ص ٣٩٢.

(٣٨) فرحي ميلاد، موجز تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، الطبعة الأولى، ليبيا، منشورات جامعة قرطاج، ١٩٩٨، ص ٢٣.

(٣٩) إسماعيل علي سعد، علم السياسة، دراسات نظرية وميدانية، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ١٢١.

السيطرة الأجنبية، فضلاً عن إنها وسيلة لزيادة العقلانية في تنظيم المجتمع، ووسيلة لتحقيق عقلانية وحتمية التاريخ.

أن فكرة الدولة القومية هي نتاج أوروبي يرجعه البعض الى معاهدة ويستفاليا الشهيرة عام ١٦٤٨^(٤٠)، التي أنهت الحروب الدينية في أوروبا واقترحت قواعد التعامل بين الدول الأوروبية المكونة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي نتج عنها إقرار مبدأ المساواة ومبدأ الاستقلال وقيام مجتمع دولي لأول مرة في التاريخ^(٤١).

وعلى الرغم من أن المعاهدة لم تنه الإمبراطوريات الأخرى (العثمانية والنمساوية والهنغارية) القائمة آنذاك، كما لم تمنع من قيام إمبراطورية جديدة خاصة خارج أوروبا وأمتنتها الإمبراطورية الفرنسية-البريطانية^(٤٢)، إلا أن المعاهدة اقترحت فكرة الدولة القومية الذي هيا المجال أمام ظهور النظام الدولي الأوربي^(٤٣)، حتى أصبحت (الدولة) هي الوحدة الرئيسية في التنظيم الدولي المعاصر، فعصبة الأمم ثم من بعدها الأمم المتحدة لا تقبل في عضويتها الكاملة إلا بالمفهوم الذي عرفناه^(٤٤).

أما العوامل التي أدت إلى نشوء الدولة القومية، فيمكن إجمالها على النحو الآتي^(٤٥):

- ١- الانحلال الإمبريالي، وانفصال المستعمرات واستقلالها.
- ٢- الأوضاع الجيوبوليتيكية المتميزة التي أقيمت عليها الدولة القومية.
- ٣- علاقة الدولة القومية بجهات القوة العالمية.

(٤٠) إسماعيل صبري مقلد، نظريات السياسة الدولية، الطبعة الثانية، الكويت، منشورات دار الصلصال، ١٩٨٧، ص ١٥٥.

(٤١) عصام العطية، للقانون الدولي العام، الطبعة الخامسة، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٩٢، ص ٢٠٣-٢٠٤.

(٤٢) بريد شيفر، المصدر السابق، ص ٣٩٣.

(٤٣) مازن الرضائي، القوى الدولية الجديدة والمرب والنظام الدولي الجديد عن كتاب النظام الدولي الجديد-آراء ومواقف، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٢٤٣.

(٤٤) سعد الدين إبراهيم وآخرون، المصدر السابق، ص ٤٤-٤٣.

(٤٥) هيد الرزاق عباس حسين، المصدر السابق، ص ٤٨.

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الدولة القومية على البدء بالسير خطوة فأخرى نحو دولة قومية متكاملة متلافية بذلك كل نقاط الضعف السابقة، حتى كانت الجيوش وطنية وجعل التعليم مجانياً، وتوحيد الأوزان والمقاييس وقوانين الأعمال وظهور الإعلام والأشيد الوطنية لبعض الدول^(٤٦).

وللوقوف على المراحل التي مرت بها الدولة القومية، يمكن الإشارة إلى المراحل الآتية:-

المرحلة الأولى: الدولة القومية قبل مرحلة الحرب الباردة:-

تبدأ هذه المرحلة من عقد معاهدة ويستفاليا للسلام عام ١٦٤٨ وتنتهي بقيام الحرب العالمية الثانية وتعرف بالمرحلة التقليدية ومن سماتها:-

- تعد الدول للفاعل الوحيد في العلاقات الدولية، وكان لكل من إنكلترا، فرنسا، بروسيا (ألمانيا بعد ذلك)، مملكة هابسبورج (النمسا) وأخيراً روسيا مكانة متميزة خلال تلك المرحلة، كما كانت أوروبا مركز الثقل السياسي^(٤٧).
- انخفاض عدد الدول، فالإمبراطورية الألمانية التي تتألف من (٩٠٠) دولة انخفض عددها إلى (٣٥٥) دولة^(٤٨).

توزيع الدول إلى مجموعتين، دول كبرى وأخرى صغرى^(٤٩)، والتي اتسمت علاقات الدول الكبرى ببعدين أساسيين، أولهما احترام مبدأ السيادة، وثانيهما التنافس على الدول الصغرى^(٥٠).

^(٤٦) المصدر نفسه، ص ١٦، وكذلك هانس كين، المصدر السابق، ص ٧.
^(٤٧) حسن حمدان الطنك، العرب وأمريكا والنظام الدولي الجديد، المجلة العربية للدراسات الدولية، العدد ٤/٣، الإمارات العربية، المعهد العربي للدراسات الدولية، ١٩٩٣، ص ٧.

^(٤٨) أنيس ل. كلود، النظام الدولي والسلام العالمي، ترجمة عبد الله العريان، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٤، ص ٤٣.

^(٤٩) حامد ربيع، الحوار العربي الأوربي واستراتيجية التعامل مع الدول الكبرى، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ١٠٠.

^(٥٠) مازن الرضائي، المصدر السابق، ص ٢٤٣-٢٤٤.

- ولادة الحلف المقدس أو المحفل الأوربي المكون من بريطانيا وفرنسا والنمسا وألمانيا وروسيا في كونجرس فيينا عام ١٨١٥ وقد تم على عاتقه المسؤولية وحق التدخل في الشؤون الداخلية.

وباستخدام حق التدخل، أهدمت القوى الكبرى، الثورات التحررية في إيطاليا (١٨٢٠)، أسبانيا (١٨٢٣) والانتفاضة في ولاية فالاكيا الرومانية ضد السيطرة التركية (١٨٢١)، والثورات في كثير من الدول الأوروبية الصغرى ما بين عامي (١٨٣٠-١٨٤٨).

ومع كل هذا فإن جهود الحلف المقدس لمنع انتصار النظام البرلماني التحرري في أوروبا أصبحت عديمة الجدوى أخيراً^(٥١)، كما شهدت تلك المرحلة سمات ومعالم أخرى هي:-
- إقامة التكتلات والأحلاف المتوازنة، فالنوازن الدولي لم يكن عالمياً، بل كان ذا نطاق أوروبي^(٥٢).

- السماح للدولة العثمانية بالانضمام إلى عضوية المجتمع الدولي عام ١٨٥٦ بسبب حرب القرم، فضلاً عن ولادة المنظمات الدولية كاتحاد البرق العالمي عام ١٨٦٥ والاتحاد العام للبريد علم ١٨٧٤^(٥٣).

- إقامة عدة مؤتمرات بمثابة وقفات أوروبية للإبقاء على التوازن الدولي والاتفاق على القواعد التي تحكم التنافس الاستعماري ابتداءً من تصفية الأقاليم التابعة للدولة العثمانية في البلقان والصرب، ولتتهاءً بتقطيع أوصال أفريقيا واقتسامها بين الدول الاستعمارية وأمتنتها مؤتمر باريس ١٨٥٦، مؤتمر لندن ١٨٧١، ومؤتمرات برلين ١٨٧٨، ١٨٨٤، ١٩٨٥، ثم اتفاقات لاهاي لسنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٧ التي تضمنت قواعد الحرب والحياد، وكيفية تسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية.

(٥١) سحر الأبحر، السياسة الدولية بعد الحرب الباردة، قراءات استراتيجية، العدد الثامن، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠١، ص ٣.

(٥٢) حمد ربيع، المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٥٣) محمد سامي عبد الحميد، قانون المنظمات الدولية، الطبعة الثانية، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩، ص ١٤.

ومع كل هذه السمات، شهد العالم الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) أفرزت بدورها سمات جديدة بعد نهايتها كولادة عصبة الأمم في عام ١٩٢٠، كما إن الأسرة الدولية امتد نطاقها إلى دول خارج القارة الأوروبية كاليابان والولايات المتحدة^(٥٤)، فضلاً عن ولادة نظام الأمن الجماعي بعد إخفاق نظام توازن القوى في الحيلولة دون اندلاع الحرب العالمية الأولى^(٥٥).

كما إن السلوك العدواني للقوى العظمى الجماعية، ولاسيما ألمانيا والاتحاد السوفيتي والذي عبر عن نفسه في اتفاقية مولوتوف ريبنتروب الذي يقسم بروتوكولها السري مناطق النفوذ وسط أوروبا، والذي أدى إلى العدوان ضد بولندا ١٩٣٩ واحتلال الأقاليم الرومانية ببساربيا والشمال بوكوفينا ١٩٤٠ والذي أقر فينا بين ألمانيا وإيطاليا ١٩٤٠ والذي بمقتضاه احتلت المجر ترانسلفانيا، وبهذا لجأت القوى العظمى إلى الاعتداء الواضح والصريح على الدول الصغرى، الأمر الذي أدى بدوره إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)^(٥٦)، وكان من نتيجتها انتصار الحلفاء وهزيمة المحور، ولاسيما بعد ضرب هيروشيما ونكازاكي بالقنابل الذرية عام ١٩٤٥.

المرحلة الثانية: الدولة القومية في مرحلة الحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١):

وهي المرحلة التي بدأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية بخروج القوى التقليدية وتربع كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على قمة الهرم السياسي، وبذلك أصبح النظام الدولي نظاماً ثنائي القطبية، كما لم تعد أوروبا تشكل المركز بالنسبة إلى العالم، وقد اتسمت بالآتي:-

- انقسام العالم إلى معسكرين اشتراكي ورأسمالي تقود كل منهما دولة عظمى هي الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، إذ تملك كل منهما من القوة العسكرية ما يفوق تلك التي لدى حلفائها مجتمعين^(٥٧).

(٥٤) حمد ربيع، المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٥٥) روبرت كلنتون، السياسة الدولية المعاصرة، ترجمة احمد القاهر، بلا، مركز القتب الأدنى، ١٩٨٩، ص ٢٠٥.

(٥٦) سحر الأهرام، المصدر السابق، ص ٤.

(٥٧) عبد المنعم سعيد، العلاقات السوفيتية الأمريكية بين الصراع الاستراتيجي والتعاون من أجل الحد من التسلح، مجلة السياسة الدولية، العدد ٨٣، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٨٦، ص ٢٤-٢٥.

- تصاعد أخطار سباق التسلح بفعل اشتداد حدة الحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٥٦) التي امتازت بكل أسباب الصراع العقائدي والتوتر السياسي والحرب النفسية والضغط الاقتصادي^(٥٨).
- تكوين الأحلاف وأمثلتها حلف شمال الأطلسي (الناتو) ١٩٤٩، وحلف وارسو ١٩٥٣.
- ولادة قطب ثالث في السياسة الدولية يعرف بحركة عدم الانحياز.
- التحرر من الاستعمار^(٥٩).
- تزايد أهمية الدول في نظر القطبين الأعظم، حتى أصبحت مسرحاً للتنافس الدولي^(٦٠).
- بروز سياسة التعايش السلمي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي (١٩٥٧-١٩٦٩) لأدراك الطرفين عدم جدوى المجابهة العسكرية المباشرة^(٦١).
- بروز مرحلة الوفاق الدولي (١٩٦٩-١٩٨٠) التي تعني التخفيف من حدة التوتر بين القوتين العظيمتين^(٦٢).
- بروز اتجاهات استقلالية إلى حد ما بين المعسكرين كرومانيا في المعسكر الشيوعي وفرنسا في المعسكر الرأسمالي^(٦٣).
- ولادة مؤتمر الأمن والتعاون (١٩٧٥) أو بما يعرف بمؤتمر هلسنكي^(٦٤) وقد ظلت الاتفاقية تعمل خمسة عشر عاماً طالبت العالم بإحداث متغيرات.

(٥٨) سحر الأبحر، المصدر السابق، ص ٤.

(٥٩) رياض الصمد، العلاقات الدولية في القرن العشرين-تطور الأحداث لفترة ما بين الحربين ١٩١٤-١٩٤٥، الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة العلمية للدراسات والنشر، ١٩٨٣، ص ٩.

(٦٠) إسماعيل صبري المقلد، الاستراتيجية والسياسة الدولية، المفاهيم والحقائق الأساسية، الطبعة الثانية، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٥، ص ٥٥.

(٦١) جمال عبد الملك، الاستراتيجية في العصر الذري من الردع إلى حرب النجوم، الطبعة الثانية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨١، ص ٣٩.

(٦٢) حسن البزاز، القوى العظمى بين شريعة الغاب وصراع القبيلة، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٨، ص ٢٣.

(٦٣) دانيال كولار، العلاقات الدولية، ترجمة غدير غدير، الطبعة الثانية، بيروت، دار الطليعة، ١٩٨٥، ص ٩١-٩٢.

(٦٤) محمد الدوري، النظام الدولي الجديد والقانون الدولي، عن كتاب للنظام الدولي الجديد-أراء ومواقف، الطبعة الأولى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٥٠ وما بعدها.

- تصاعد بعض الدول الاقتصادية ذات التأثير الدولي المنافس للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كاليابان وألمانيا.
 - تراجع حالة للوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي إلى حالة الحرب الباردة الثانية (١٩٧٩-١٩٨٥) بسبب التدخل السوفيتي في أفغانستان ١٩٧٩، ونصب صواريخ (أس-٢٠) في أوروبا الشرقية^(١٥)، فضلاً عن إعلان ريغان (مبادرة الدفاع الاستراتيجي IDC)^(١٦)، ولكن مع وصول غورباتشوف للسلطة في الاتحاد السوفيتي ١٩٨٥ عادت مرحلة الحرب الباردة الثانية إلى مرحلة الوفاق من جديد.
 - ولادة مؤتمر باريس ١٩٩٠، وكان انعقاده تكريساً للأمن الجديد للنظام الدولي على النطاق العالمي، حتى كان يعرف بـ (عهد المتغيرات العميقة والآمال التاريخية)^(١٧).
- المرحلة الثالثة: الدولة القومية بعد مرحلة الحرب الباردة:**
- تتصف هذه المرحلة بسمات ومعالم تختلف عن تلك المراحل التي سبقتها، يمكن إجمالها على النحو الآتي:-
- التأكيد المطلق والحاسم على انتهاء الحرب الباردة وانتهاء دور الاستقطاب الثنائي (الاتحاد السوفيتي) الذي كان يمثل الاتجاه المنافس والمعارض للولايات المتحدة الأمريكية^(١٨).
 - الانفراد الأمريكي في أمور السياسة الدولية.
 - انهيار الاتحاد السوفيتي والتحولت في أوروبا الشرقية.
 - ولادة الثورة الصناعية الثالثة.
 - التكتلات الاقتصادية العالمية.
 - عالمية الاتصال.

^(١٥) عبد القادر محمد فهمي، الصراع الدولي وانعكاساته على الصراعات الإقليمية، الموصل، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر، ١٩٩٠، ص ١١٦.

^(١٦) ألين وهابدي توفلر، الحرب الباردة المضادة، الحفاظ على الحياة في القرن المقبل، تعريب صلاح عبد الله، ليبيا، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٩٥، ص ١١٣.

^(١٧) محمد الدوري، المصدر السابق، ص ٢٢.

^(١٨) ليث عبد الحمن الزبيدي، الناطق العربي والتنظيم العالمي الجديد، مجلة لثقى عربية، المند ٥، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٢، ص ٥٨.

- تضال دول العالم الثالث^(١٩).
- اتساع الفجوة بين عالم الشمال والجنوب.
- تراجع الصراع الإيديولوجي ونمو الصراع العلمي.
- إضعاف دور الأمم المتحدة في اتخاذ القرارات بشأن الدول التي تقف عائقاً أمام القوى الكبرى.
- تطبيق الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق الأقليات القومية أو الأقليات الأخرى، لكن تحت التهديد والعقوبات والسيطرة الأجنبية، وهي ما حدث فعلاً في يوغسلافيا^(٢٠).
- العمل على إزالة أسلحة الدمار الشامل بطريقة إزدواجية.
- الإعلان على الحرب ضد الإرهاب وتسخير كل الامكانيات والنفقات لكسبها، وعلى أساس ذلك تم غزو أفغانستان والعراق، ولأسيما بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١.
- تجميع الحلفاء على أساس مبدأ معنا أو ضدنا، والتحكم بالأمم المتحدة ومجلس أمنها.
- تبني سياسة الضربة الاستباقية أو الوقائية ضد مراكز الإرهاب المفترضة.
- الإعلان الشهير للقوى الكبرى عن وجود محور الشر وللتعهد بتصفيته.

واستناداً لما سبق يمكن القول إن بزوغ الدولة القومية بشكلها الحالي لم يكن وليدة أحداث آنية بل عبر مخاض وصراع، نتج عنه هذا الانتقال ووفق مراحل كان الهدف في النهاية الانقلاب على كل ما من شأنه أن يحد من حرية الإنسان، وكان تطور الدولة إلى شكلها الحالي يدور في فلك واحد، وهو الإنسان الذي يسعى لهذا الانتقال به من دولة عهد العصور المظلمة والسلطات المستبدة إلى دولة فيها الإنسان هو المسير للأمر، ولا دولة من

^(١٩) مازن إسماعيل الرمضاني، النظام العفدي والنظام الدولي الجديد، تعلق عربية، العدد ١٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١، ص ٣٠٠-٢٩٩.

^(٢٠) سحر الأبهر، المصدر السابق، ص ٦.

دون شعب على أن يحكم هذا الشعب قانون لا يحد من حريته بقدر ما يحفظ له حقه في العيش والعمل والانتقال ويؤمن له الحماية في ظل الدولة القومية الحديثة.

ثانياً: الدولة المتعددة القوميات (State of multiful nationalities):

يعد موضوع الدولة المتعددة القوميات في عالمنا الراهن من الموضوعات التي تعالجها أدبيات العلاقات الدولية على ضوء المقومات الجيوبولتكية للكيان السياسي الذي يضم خليطاً من الشعوب والقوميات.

إن مشكلة القوميات ومعالجة مطالبها ومطامحها في الاستقلال والانسلاخ من الدولة الأم، برزت بشكل واضح في مؤتمر السلام بباريس عام ١٩١٩، الذي يكرس هيمنة المنتصرين في الحرب على حساب المنهزمين ولقائم على منطق القوة.

ويبدو إن النظام الدولي لا يسمح في الغالب بانسلاخ القوميات من دولها الأم، لكن ذلك قد يحدث في الأزمات التي تحدث تغييراً أو تبدلاً في النظام الدولي ولاسيما بعد الحروب الكونية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) ^(٧١) والحرب الباردة (١٩٤٧-١٩٩١) أو مرحلة انتهاء الحرب الباردة.

وفي ضوء ذلك فالشعوب المكونة للأمم، أما تكون شعباً بسيطاً يمتاز بعدم التمافر الاثنوغرافي، برغم تعدد السلالات في تركيبه، أو شعباً ملتئماً، وهو مكون من عدة شعوب، ذات لغة وحضارة خاصة بكل منها ولكن ليس فيها من ينأوي للدولة أو يبغى الانفصال عنها، فبريطانيا شعب ملتئم فيه ثلاث قوميات (الإنكليزية والاسكتلندية والويلزية) وهكذا، أما النوع الثالث من الشعوب فهو الشعب المركب، وهو أخطر الأنواع، ويعبر عن دولة لم تتضج قومياً، ولم تمتزج عناصرها ببعضها، وتتكون من قوميات متعددة يدعم انفصالها حولجز اقتصادية واجتماعية ^(٧٢)، كما كان الحال في جمهورية يوغسلافيا السابقة.

^(٧١) كظم هاشم نعمة، العلاقات الدولية، بغداد، شركة اريد للطباعة، ١٩٧٨، ص ٢٨٥-٢٩٨.

^(٧٢) للتفصيل ينظر: محمد محمود إبراهيم الديب، المصدر السابق، ص ١٩٨، وكذلك محمد متولي محمود أبو العلا، المصدر السابق، ص ١٠٣.

ووفقاً لهذا الطرح تمتاز الدولة المتعددة للقوميات بمظهرين، أما أن تكون ذات قوميات متكافئة فيها تحافظ على توازن الدولة للقومي، أو أن تكون هناك أقلية قومية إلى جانب الأغلبية في الدولة^(٧٣).

وفي أدبيات العلاقات الدولية، فإن انفجار قضايا القوميات في الدولة المتعددة القوميات تعود إلى عدة عوامل منها انتشار الفكرة القومية في العالم والنظريات القومية التي تدعو إلى استقلال كل شعب وقومية بكيان خاص، وانتشار ثقافة حق الشعوب في تقرير المصير، ورواسب الاستعمار كخلق كيانات دينية جديدة في الكثير من الدول عن طريق التحالف والتبشير أو الحدود السياسية التي رسمها المستعمر، أو حركات التحرر من نير الاستعمار، كل هذه الأمور أدت إلى مطالبة القوميات بحقها في تقرير مصيرها أو المطالبة بالانفصال عن الدولة الأم.

وفي ضوء هذه الحقيقة سوف نختار عينات ونماذج من مناطق مختلفة بقدر المعلومات المتاحة حتى تكون الصورة أكثر شمولاً وتكاملاً.

١- المشكلة القومية الإبخازية والصراعات العرقية في القوقاز:

تقع إبخازيا على ولجة البحر الأسود في شمال غرب جورجيا، ويقدر سكانها بنحو ٥٢٥,٠٠٠ ألف نسمة، ويجمع سكانها لغة واحدة (لغة القوقاز)، إذ تشكل نسبة ١٨% من سكان إبخازيا وأفرادها يدينون بالإسلام مع أقلية مسيحية، أما مساحتها فهي بنحو ٨٦٠٠ كم^٢^(٧٤).

وتؤكد حقائق التاريخ إن الإبخاز يشكلون حتى عام ١٨٦٤ الأغلبية المطلقة، ثم سرعان ما أخذ عددهم في التناقص مقابل زيادة سكان الجورجيون، فالتركيبة العرقية بعد زوال الاتحاد السوفيتي، كانت على النحو الآتي: - الجورجيون ٤٥%، الأرمن ١٩,٤%، الإبخاز ١٨%، الروس ١٢%، اليونانيون ٢,٨%، الأوكرانيون ٢,٢%، وبعد حرب

(٧٣) ابتسم عبد الزهرة، المصدر السابق، ص ٢١.

(٧٤) محمد رفعت الإسلام، جورجيا والأزمة الإبخازية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١١٧، للقاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ٢٠٠٢، ص ١٤١.

الاستقلال الابخازية بين عامي (١٩٩٢-١٩٩٣) ونزوح حوالي ٢٥٠ ألف جورجي عاد الابخاز من جديد يمثلون الأغلبية العديدة للإقليم^(٧٥).

وعلى الرغم من جورجيا ذات طابع مركزي، وتهمين عليها الأغلبية الجورجية فقد تم إقصاء الأقلية عن أي مشاركة سياسية وعن أي تمثيل في الحكومة، إذ تتعامل معها بمنطق الإخضاع، وهو ما أدى بها إلى حرب الاستقلال التي قادها الابخاز للحفاظ على وجودهم القومي، إذ يتطلعون فيها إلى الاستقلال التام عن جورجيا، وللقبول مرحلياً بصيغة فدرالية للدولة الجورجية، وهي في رأي الكثيرون بان ابخازيا جزء من جورجيا، وإن امتيازاتهم جاءت كسياسة من الدولة السوفيتية التي قسمت جورجيا لثلاثة أقسام، وأوجدت فيها كيانات ثلاث تتمتع بالحكم الذاتي ومنها ابخازياً وأوسيتيا الجنوبية وهو ما دفع بجورجيا إلى إلغاء حكمها الذاتي وضمها إلى دولة جورجيا بعد زوال الاتحاد السوفيتي، لاسيما إن النظرية القومية الجورجية تقسم للقوميات إلى نوعين: أصيلة (الجورجيون، الابخاز، الانجار) وخلاء (داغستان، الأذربيجان، الأرمن، الأوسيت) وهؤلاء للخلاء أمامهم خيارات أما الذوبان أو الهجرة، ولما كانت غالبية الجورجيون ارتئونكس فإنهم ينظرون إلى الانجار بأنهم جورجيون اعتنقوا الإسلام، ومن ثم فلا حاجة للإبقاء على وضع خاص بهم، الأمر الذي لابد من إرسال البعثات التبشيرية لإعادتهم إلى الأمة^(٧٦).

إن المشكلة الابخازية القومية والصراعات الموجودة في القوقاز تعد من أهم الأمثلة على كيفية تأثير قضايا القوميات على السياسات والعلاقات الدولية وإعادة رسم التحالفات، إذ يوجد في القوقاز خمس صراعات عرقية رئيسة هي^(٧٧):-

- الصراع الأرمني-الأزري حول جيب كاراباخ.
- الصراع الجورجي-الأوسيتي حول أوسيتيا الجنوبية.
- الصراع الأوسيتي-الأنجوشي حول بريجوروندي رايون في أوسيتيا الشمالية.

(٧٥) المصدر نفسه، ص ١٤١.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤-١٤٥.

(٧٧) للتفصيل ينظر: تشيترين فوكس، جلدية الصراعات العرقية ومشروع النفط في القوقاز، أبو ظبي، مركز الإمارات لدراسات والبحوث الاستراتيجية، دت، ص ٧٨ وكذلك عصمت برهان عبد القادر، جنود وأبعاد الصراع الشيشاني الروسي، الموصل، مكتبة الجبل، ١٩٩٩، ص ٣٣ وما بعدها.

- الصراع الروسي-الشيشاني حول الشيشان.
 - الصراع للجورجي-الابخازي حول ابخازيا.
- ويمكن تفسير هذه الصراعات المتعددة لسببين هما^(٧٨):

- ١- إن هذه الصراعات لم تكن وليدة أحداث آنية، بل قديمة تعود جذورها إلى العشرينات، ولكنها ما وجدت فرصة للاشتعال إلا بعد زوال الاتحاد السوفيتي.
- ٢- سياسات السوفييت القمعية والتعسفية للقوميات والخرائط العشوائية التي وضعت لتسهيل تحكم الدولة المركزية لغرض المزيد من السيطرة وأمتلتها كوضع إقليم كاراباخ ذي الأغلبية الأرمنية في أذربيجان ووضع ناخيتشيفان بين أرمينيا وإيران ويلاص للحدود التركية-جمهورية حكم ذاتي في أذربيجان، ولم تعط قوميات أخرى أي حكم ذاتي في الاتحاد السوفيتي مثل الطاليش في أذربيجان والأكرد في أرمينيا، وفي النهاية مما أدى إلى تحول هذه الصراعات من محلية إلى إقليمية ودولية، وسرعان ما تتحول إلى نزاعات خارجية عندما تتدخل دولة لصالح أحد الأطراف المتنازعة لحصولها على مواطني قمع، أو مصالح معينة تحققها، أو دعم القومية التي تنتمي لها مثل دعم الأتراك للأذربيجانيين ضد الأرمن، وتدخل الروس لصالح الأرمن، ووقوف الشيشان مع الابخاز، وهكذا فإن انفجار مثل هذه القضايا يمكن أن يكون مصدر تحدٍ للسلم والأمن.

٢- القضية القومية الصومالية:

تقع الصومال في شرق أفريقيا، يحدها من الشمال والشرق والجنوب المحيط الهندي، كينيا وإثيوبيا من الغرب، ومن جهة الشمال الغربي جيبوتي، أما مساحتها أكثر من ٩,١٠,٠٠٠ مليون نسمة وعاصمتها مقديشو، وتمثل صادراتها الموز والمواشي والجلود^(٧٩).

^(٧٨) للتفصيل انظر: مثنى أمين قادر، المصدر السابق، ص ٦٤-٦٥ وكذلك تشرتيان فيكن، المصدر السابق، ص ١٤، وكذلك زيبنتو بريجنسكي، الفوضى-الاضطراب العالمي عند مشارف القرن الحادي والعشرين، ترجمة نرجس علي فضل، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨، ص ٧٥، وقرن مع محمد الأطرش، حول الأزمة الاقتصادية لدولة الرأفة، عن كتاب العرب وتحديات التكامل العالمي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ص ٣٠.

^(٧٩) يولا محسن، الجغرافية، الموسوعة الثقافية العامة، بيروت، دار الجبل، ١٩٩٩، ص ١٥٧.

ويمتلك الشعب الصومالي لغة واحدة وأصول عرقية مشابهة، وأفراده يدينون بالإسلام مع أقلية مسيحية ويعيشون على أرض خاصة بهم، إذ يملكون كل مقومات القومية الواحدة التي لا بد أن تكون مجتمعة واحدة، ولكنه تم تقسيمه إلى خمسة أقسام وكيانات سياسية، الأمر الذي تم تجسيده في العلم الصومالي الذي يحتوي على نجمة من خمسة أضلاع لتدل على أجزاء الشعب الصومالي المتناثرة في كل من الصومال وإثيوبيا وجيبوتي وكينيا^(٨٠).

إن القومية الصومالية لم تتبعث كرد فعل لمقاومة الحكم الاستعماري، أو نتيجة للتأثر بآراء الغرب، ولكنها نبتت أساساً من طبيعة الشعب للصومالي الذي لم يفتت من وحدته، نتيجة تجزئته للشعب بين دول استعمارية متعددة^(٨١)، فالصومال منذ قرابة نصف قرن يقسم على النحو الآتي^(٨٢):-

- استمرار السيطرة البريطانية على الصومال الشمالي.
- استمرار السيطرة الإيطالية على الصومال الجنوبي، رغم توحيد الشطرين الشمالي والجنوبي عام ١٩٦٠.
- استمرار السيطرة الفرنسية على إقليم عفار وعيسى (الصومال الفرنسي/جيبوتي).
- وجود جزء من الصومال ضمن المستعمرة البريطانية لكينيا.
- استمرار السيطرة الإثيوبية على الصومال الغربي (هرر وأوغادين وما حولها) وهكذا أصبحت أجزاء من الأراضي الصومالية تحت الهيمنة الإثيوبية.

وتبعاً لذلك، تعد كل من إثيوبيا وكينيا هذه الأراضي جزءاً متمماً لدولتها لا يمكن التفريط به، ولا إعطاءه حق تقرير المصير، الأمر الذي يرفضه الصوماليون بشدة.

(٨٠) نبيهه الأصمبهي، المواجهات المسلحة الإثيوبية الصومالية، مجلة السياسة الدولية، العدد ٥٤، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٨، ص ٢٢.

(٨١) توفال، القومية الصومالية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١، القاهرة، مركز للدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٦٥، ص ١٦٤.

(٨٢) عبد السلام إبراهيم بخادي، المصدر السابق، ص ١٦٥.

وتبعاً لذلك فإن القضية القومية الصومالية تؤثر بكل أو بآخر على العلاقات الدولية، إذ شهدت منطقة القرن الأفريقي تأثيراً كبيراً وصراعاً مريراً بسبب تطلعات تلك القومية لطموحاتها في التحرر والاستقلال من جهة، وتعتد الدول المعنية من جهة أخرى.

فالولايات المتحدة من ألد أعداء القومية الصومالية منذ القدم، إذ مساندت إمبراطور إثيوبيا (هيلاسلاسي) من حقوق وتطلعات الصوماليين، وكملت له مساعدات عسكرية ضخمة في حربه مع الصومال، إذ دخلت الدولتان في حربين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧٧^(٨٣)، وحاول الصوماليون إعادة أوغادين وهرر إلى الصومال، ورفضت الولايات المتحدة مساعدة للصومال عموماً وتزويدها في السلاح لأنها كانت تحتفظ بقواعد اتصالات عسكرية في البحر الأحمر وتحديداً في إرتيريا التي نالت استقلالها عام ١٩٩٣ بعد أن كانت جزءاً من إثيوبيا^(٨٤) كما شهدت للعلاقات الصومالية الفرنسية والصومالية البريطانية قطيعة وتوترات بسبب دور الدولتين في رسم خريطة للمنطقة وعدم مساندتها لحقوق الصوماليين.

وعلى صعيد القوى العظمى وتأثير هذه القضية عليها، فقد توجه السوفييت والصينيون إلى مساعدة الصوماليين مدة من الزمن لمواجهة الوجود العسكري الأمريكي في القرن الأفريقي والبحر الأحمر.

وبعد تصفية حكم هيل سلاسي عام ١٩٧٧ في إثيوبيا، ووصول منغستو ميريام إلى مقاليد الحكم سرعان ما ساءت العلاقات الصومالية السوفيتية، ووقفوا مع الإثيوبيين وبنوا قواعد عسكرية في البحر الأحمر، وبدأت العلاقات الصومالية تتحرف تدريجياً نحو الولايات المتحدة، وأعلنت الصومال في تلك الأثناء على موافقتها على موضوع تقديم تسهيلات عسكرية للولايات المتحدة والسماح لها باستخدام المرافق الجوية والبحرية التي كان الاتحاد السوفيتي قد أنشأها في الصومال منذ عدة أعوام^(٨٥).

ولكن الولايات المتحدة بعد دراستها للأمر الواقع اضطرت للتراجع خشية حدوث حرب دولية كبيرة بين المعسكرين بسبب الوضع في القرن الأفريقي.

(٨٣) توفال، المصدر السابق، ص ١٦٧.

(٨٤) عبد السلام إبراهيم وسعد تلجي، المصدر السابق، ص ٩٤-٩٦.

(٨٥) موسى زناد، القواعد العسكرية الأجنبية، بغداد، الدار العراقية للتوزيع، ١٩٨٥، ص ٩٢.

وبناءً على ما تقدم فالقضية القومية الصومالية تؤثر بشكل واضح في كل مشاريع السياسة الخارجية للدول المعنية بالقرن الأفريقي، ولاسيما الدول الأربعة المعنية بالمشكلة، كما إن لها تأثيرها على التغيرات والسياسات الداخلية التي تنعكس على السياسات الخارجية.

٣- أسبانيا وإقليم الباسك:

باسك كم منطقة هي سبعة مقاطعات ثلاث منها في فرنسا، وأربع منها في أسبانيا (مالاكا، بسقاية، جيبوتكو، نافارا) وهو إقليم يقع في الشمالي الشرقي من أسبانيا ويمتد إلى جنوب فرنسا، ويمكن أغلب شعب الباسك البالغ تعداده (٣) مليون نسمة س المقاطعات الأسبانية على سفوح جبال البيرينية القريبة من فرنسا، إذ تعد هذه المنطقة مركزاً مهماً للصناعات الأسبانية^(٨٦)، وكان هذا الإقليم يوماً ما له كيان نظامي بحد ذاته، ففي عام ١٩٣٦ أصدرت الحكومة في أسبانيا قانون الحكم الذاتي للمقاطعات، وانتخب رئيساً لها، ولكن نظام فرانكو الحاكم أصدر قانوناً بإلغاء الحكم الذاتي سنة ١٩٣٧، وذهبت حكومة الباسك إلى المنفى في المكسيك^(٨٧).

ومنذ ما يقارب سبعاً وأربعين عاماً نشن حركة إيّا الانفصالية حرباً عنيفة ضد الحكومة المركزية في مدريد لفصل الإقليم واستقلاله وأسفرت تلك العمليات عن سقوط آلاف الجرحى، فضلاً عن فاتورة مالية باهظة وخسائر تقدر بملايين الدولارات.

ومنظمة إيّا (E.T.A) هي اختصار لأسم باللغة الباسكية من الحروف الآتية (Euskadi Taaskata Suna) ومعناه بلاد الباسك والحرية، وتأسست عام ١٩٥٦ في اجتماع سري، وشعارها (٤+٣+١) يطالبون بإقامة دولة مستقلة تضم إقليم الباسك الأسباني والفرنسي^(٨٨).

وفي عام ١٩٥٩ ظهرت منظمة إيّا على مسرح الأحداث، وبدأت العمل العسكري المسلح عام ١٩٦١ من خلال وضع للمتفجرات في مقرات الجيش والشرطة، وعقدت

^(٨٦) محمد القمام، الإرهاب في الديمقراطيات الغربية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٠٧، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٩٢، ص ٩٦.

^(٨٧) نازلي معوض، النظم الأسباني ما بعد الجنرال فرانكو، مجلة السياسة الدولية، العدد ٤٣، القاهرة، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، ١٩٧٦، ص ١٦٠.

^(٨٨) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

اجتماعها الأول عام ١٩٦٢، وحددت هويتها كمنظمة ثورية، وفي عام ١٩٧٣ قامت باغتيال بلانكو رئيس حكومة فرانكو في مدريد^(٨٩). حتى بلغت ذروتها في المدة المحصورة بين عامي ١٩٧٨ - ١٩٨٠، التي شهدت فيها أسبانيا حكومة ديمقراطية، وتحديدًا بعد صدور دستور جديد للبلاد أعطى ميزات حكم ذاتي للإقليم، وقام سكانه عام ١٩٨٠ باختيار المجلس التشريعي المحلي، ولكن المنظمة رفضت هذه الصيغة.

وتضم منظمة إيتا جناحين: الجناح العسكري والجناح السياسي، الذي يتكون من المتعاطفين معها الذين يجتمعون في الائتلاف المسمى (هري باتا سونا Heri Bata Suna) ومعناه الشعب المتحد^(٩٠)، ومع كل هذا فإنه لا يتمتع بتأييد شعبي في إقليم الباسك، إلا في مقاطعتي جيبوتكا وبسكاي.

وفي إقليم الباسك توجد أحزاب مؤيدة للانفصال مثل الحزب الباسكي الوطني وحزب ايسكو الكارتاسونا، وحزب لوسكال هريتا روك أو الجناح السياسي لمنظمة إيتا، إذ حصلت هذه الأحزاب مجتمعة على ٥٢% من الأصوات في المجلس التشريعي المحلي عام ١٩٨٨، الأمر الذي يوضح الثقل السياسي لها^(٩١).

لقد تضمنت قائمة ضحايا إيتا الكثير من كبار رجال الدولة والمسؤولين الأسبان منهم رئيس الوزراء (بلانكو) والحاكم العسكري لمريد، والحاكم العسكري لمقاطعة جيبوتكا وغيرهم من الصحفيين والمدنيين ممن تعدهم المنظمة من الخونة لعملاء النصفية الجسدية^(٩٢). ومع إن إيتا أعلنت أواخر التسعينات الهدنة مع الحكومة، إلا إنها لم تتوقف عن أعمال العنف، واشتدت هجماتها من عام ٢٠٠٠، وتحاول الحكومة الأسبانية أن تضغط على الأحزاب الباسكية التي منحتها كل الصلاحيات السياسية والاقتصادية والإدارية والقضائية، ولم تحتفظ بالصلاحيات إلا في مجالي الدفاع والخارجية، ولكن منظمة إيتا لا تقبل إلا بفكرة

^(٨٩) محمد القلم، المصدر السابق، ص ٩٧.

^(٩٠) Salvador ciner: Laconguista del caos. Terrismo y sociedad Democrática, Madrid, 1982, P. 9.

^(٩١) عزة سامي، إيتا الانفصالية: صحيفة الأهرام، القاهرة في ٢١/٧/٢٠٠١.

^(٩٢) محمد القلم، المصدر السابق، ص ٩٨.

الاستقلال، رغم إن (٢٥%) فقط من إجمالي الشعب الباسكي في أسبانيا يؤيدون الانفصال عن أسبانيا، أما الباقون فيفضلون البقاء في دولة أوروبية كبيرة ديمقراطية^(٩٣).

أما بالنسبة للعلاقات الدولية فإن مشكلة الباسك تخلق دوماً متاعب للدولة الأسبانية داخلياً وخارجياً، وأبرز ما تجلت به هذه المتاعب هو أحداث ١٩٧٥، حينما أقيمت الحكومة على تنفيذ حكم الإعدام في خمسة من الناشطين من الإقليم، اثنان من زعماء إيتا، وثلاثة من زعماء الجبهة الثورية الماوية المناهضة للفاشية بتهمة قتل رجال الشرطة متجاهلة مناشدات دولية وضغوطات عديدة من أجل منعها عن هذا الفعل، الأمر الذي أعطى دفعة قوية لحركة تحرير الباسك، حينما طالب رئيس المكسيك وقتها بطرد أسبانيا من الأمم المتحدة، وهاجم رئيس الوزراء السويدي أولف بالمه حكومة مدريد، ووعد بتقديم معونة مالية لحركة الباسك، واستدعت كل الدول الغربية باستثناء أيرلندا سفراءها من مدريد للتشاور، وصدر قرار إدانة من مجلس وزراء خارجية السوق الأوروبية المشتركة، أدان فيه تصرفات حكومة مدريد، الأمر الذي فرض عزلة على أسبانيا^(٩٤).

٤ - كندا والمشكلة القومية في كيوبك:

تعد كندا إحدى الدول الصناعية السبع الكبرى في العالم، إذ تقع في قارة أمريكا الشمالية، وهي تنتمي إلى الدول الديمقراطية ذات التجربة القومية والعرقية ولاسيما في مقاطعة كيوبك، لما لها من تأثير على الدولة الكندية داخلياً وخارجياً، وبما يؤثر على مستقبلها السياسي كدولة موحدة.

ينقسم السكان في كيوبك إلى جاليتين إنجليزية (الأكثريّة) وفرنسية (الأقلية)، إذ تبلغ مساحتها ٥٩٤,٨٦٠ كم، وهو أكبر مقاطعة مساحةً، وتحتل المرتبة الثانية من عدد السكان الذي يبلغ تعدادده (٧) ملايين نسمة، كما إنها تشكل المرتبة الأولى في إنتاج البوتاسيوم

^(٩٣) El País Diario Independient, No. 8.240, Madrid 2 de marzo de, 2000, P. 12.

^(٩٤) محمد القنام، المصدر السابق، ص ٩٨-٩٩ وما بعدها.

والنحاس^(١٥)، وتسهم بنحو ٢١% من إجمالي الناتج المحلي الذي بلغ عام ١٩٩٥ (٦٠٠) مليون دولار أمريكي^(١٦).

ويشكو سكان كيوبك من تسلط الإنجليز وهيمنتهم الثقافية والسياسية والاقتصادية عليهم، منذ وقوعها في أيدي الإنجليز عام ١٧٦٠ حتى انضمامها للاتحاد الفيدرالي للكندي عام ١٨٦٧ كمقاطعة فرانكفونية وحيدة في كندا، الأمر الذي أدى إلى ذوبان شخصيتهم المستقلة وثقافتهم الخاصة، ومن ثم مخاوف الفرنسيين الناجم عن المواليد الفرنسية في المقاطعة، والتغيير الديمقراطي بالنسبة للمهاجرين الذي غالباً ما يختارون اللغة الإنجليزية، وهو ما يؤدي لزيادة عدد الإنجليز^(١٧).

لقد أدى هذا التهميش والإقصاء إلى ظهور تيارات سياسية تتبنى الوحدة، وبعضها تتبنى الانفصال، ومن الأحزاب السياسية المؤيدة للانفصال هي^(١٨):-

١- حركة الأكيانس: وقد ظهرت هذه الحركة بين عامي (١٩٥٧-١٩٦٢) وهي مدعومة من اليمين السياسي والكنيسة الكاثوليكية.

٢- حركة تحرير كيبيك: وهي الجبهة التي أنشئت عام ١٩٦٢، وتتبنى أفكاراً ثورية، تمثل امتداداً للمنظمات الماركسية في كوبا وبعض الدول الشيوعية، ونسفت المباني، وولدت الرعب في السلطات المركزية ولاسيما في أحداث ١٩٧٠، واختفت من الوجود بعد أن اعتقل منهم ٥٠٠ ناشط.

٣- حركة التجمع للاستقلال RANA: وهي الحركة التي ظهرت على مسرح الأحداث عام ١٩٦٢ بزعامة (مارسيل شابو) وتحمل شعار كيبيك للكيبيكيين، وتحدد هوية السكان بالفرنسية والكاثوليكية.

^(١٥) متى محمد طه، مشقتل التعدد العرقي في بناء الدولة الحديثة، مجلة دراسات استراتيجية، العدد ١٣، الخرطوم، ١٩٩٨، ص ١٢٢.

^(١٦) محمد خال، صحيفة الحياة، العدد ١، لندن في ١٩٩٦/١١/١.

^(١٧) متى محمد طه، المصدر السابق، ص ١٢٤.

^(١٨) المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.

٤- الحزب الكيكي: وهو الحزب الذي ظهر عام ١٩٦٧، ويحمل أفكاراً سياسية انفصالية، إذ وصل الحزب إلى الحكم في المقاطعة ثلاث مرات، وأجرى استفتاءين للانفصال عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٥، ويعد الآن لاستفتاء آخر.

أما بالنسبة للعلاقات الدولية، فلا جدال إن هذه القضية ووضع الفرنسيين فيها يعد من المتغيرات المهمة في العلاقات الفرنكوفونية ولاسيما فرنسا، إذ يسودها التوتر أحياناً وهو ما حدث بعد زيارة الرئيس الفرنسي (ديغول) في الستينات للمقاطعة ودعوته في خطبه إلى الحفاظ على الطابع الفرنسي للمقاطعة، إذ اعتبرته كندا تحريضاً وتدخلًا في شؤونها الداخلية.^(٩٩)

ويرى الاتجاه المؤيد لانفصال كيبيك بأن المقاطعة تتمتع بكل مقومات دولة ناجحة، في حين يصف بعضهم بأنها تمثل خمسة ملايين سجين سياسي، ونتائج الاستفتاءات تحمل زيادة المشاعر الانفصالية، إذ حصل الانفصاليون في الاستفتاء الأخير لعام ١٩٩٥ على ٤٩,٤% مقابل ٥٠,٤% في استفتاء ١٩٨٠.^(١٠٠)

وفي ضوء ذلك يبدو لنا مدى التأثير الذي تتركه قضايا القوميات على العلاقات الدولية، فضلاً عن إيجاد بؤر إقليمية للصراع، وعرقلة مشاريع التكامل والتعاون بين الدول المعنية بهذه الصراعات وحقوق تلك القوميات.

^(٩٩) صحيفة الحياة، لندن في ١٩٩٨/٨/٧.
^(١٠٠) منى محمد طه، المصدر السابق، ص ١٢٥.

الختامة:

لقد تبين من خلال البحث إن هناك تعريفات كثيرة ونظريات متعددة تختلف في تحديدها لعوامل تكوين القوميات، ولكن في الواقع نجد إن عاملاً واحداً مثل الدين واللغة يكون كافياً أحياناً لتشكيل شخصية قومية من القوميات.

إن الشعور القومي بالخصوصية والتميز ظاهرة عالمية لا تخلو في أي مكان من العالم، إذ تمثل جزء من الفطرة البشرية ومن ثم فإن هذا الشعور يكمن في توافر صفات لهذه المجموعة (كاللغة، والدين، والعرق، والثقافة والعادات) ومن ثم لا بد من المحافظة على تلك الصفات لأنه حق من الحقوق وجزء أصيل من طبائع البشر، ولا ينبغي التخلي عنها مهما كانت الأسباب لأنها تحمل في طياتها استخفافاً بقيم الآخرين والاستعلاء على ما هم عليه.

إن الدعوة إلى القومية اكتسحت في القرن التاسع عشر روح الرجعية القديمة، مما نتج عنه استقلال أمم كثيرة خضعت طويلاً لغيرها وقامت كدول جديدة عرفت بالدول القومية ولدت بعد معاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨، ومن بين هذه الدول ظهرت الدولة المتعددة القوميات التي يضم سكانها خليط من الشعوب والقوميات، فأما أن تكون قوميات متكافئة تحافظ على توازن الدولة القومي، وأما أن تكون أقاليم قومية ذات أغلبية في الدولة.

أن لجوء تلك القوميات إلى الاستقلال يكون اعتماداً على الحق الطبيعي لكل قومية بالاستقلال والتمتع بحرية استناداً إلى مبدأ حق المصير وبسبب شعورها بالاضطهاد ومن القومية الأكبر أو نزوعاً إلى الاستقلال يعود أما بسبب تدخلات خارجية، أو بسبب كونها منتهكة الحقوق، فنتطالب بالاستقلال لاستعادة مركزها وتطالب بحقوقها، وهذه الحقيقة تبين لنا الأثر الذي تركه العامل القومي على العلاقات الدولية وفي الاستقرار الداخلي والإقليمي وحساسية التعامل معه.

الصدمة النفطية الثالثة لأسعار النفط في الأسواق العالمية

المدرس المساعد

عوض عباس النداوي (*)

المقدمة:

تبرز أهمية النفط في كونه واحداً من أهم السلع الاقتصادية المنفردة في تأثيراتها على حركة الاقتصاد العالمي ، وبالتالي لم يعد النفط سلعة اقتصادية فحسب ، بل سلعة استراتيجية ذات أبعاد اقتصادية وسياسية وعسكرية متداخلة . وقد شهدت الأسواق النفطية الدولية منذ خمس سنوات تطورات ملحوظة في مؤشرات الرئيسية وبخاصة ظاهرة أسعار النفط التي سجلت ارتفاعات قياسية وعلى مستويات غير مسبوقة مما شكل صدمة ثالثة لأسعار النفط في الأسواق العالمية .

وتعكس تداعيات هذه الظاهرة على الدول المنتجة للنفط باتجاهين : الأول إيجابي بزيادة العائدات المادية للدول المصدرة للنفط ومن ثم ازدهار الحياة الاقتصادية فيها في كافة الميادين ، والثاني سلبي : بزيادة الصراع والتنافس الدولي على المناطق المصدرة للنفط لفرض فرض الهيمنة العسكرية على بعض هذه المناطق لضمان التحكم بكميات النفط المصدرة للأسواق العالمية .

خلفية تاريخية :

عرف الإنسان النفط منذ القدم في بلاد العراق وفارس ومصر وغيرها من دول العالم . وكان يستعمل في التدفئة ورصف الطرق والبناء وصنع العقاقير وصيانة السفن . وقد ابتدأ العصر الاقتصادي للنفط في تاريخ البشرية منذ ١٤٨ سنة خلت ، وتحديداً عقب حفر أول بئر للنفط في ولاية بنسلفانيا الأميركية واستغلاله لأغراض اقتصادية عام ١٨٥٩م^(١)

(*) مدرس العلوم السياسية، جامعة القاهرة.

(١) د. حلف بوجاس : الصراع الدولي على النفط العربي ، طبع بيسان للنشر والتوزيع والأعلام بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٠ م ، ص ٢٢ .

وجرى أول تسعير تجاري له عام ١٨٦٠م بنحو (٩) دولارات للبرميل ، ثم بدأ السعر بالتراجع المستمر ليصل بنهاية الحرب العالمية الثانية إلى (١,٨) دولار للبرميل الواحد . وقد شهد عقد السبعينيات في القرن العشرين الصدمتين الأولى والثانية لأسعار النفط . كانت الأولى عام ١٩٧٣م حيث قفز سعر برميل النفط وبشكل مفاجئ من ٢,٧ دولار ليصل بعد حرب تشرين/أكتوبر ١٩٧٣ إلى (٤٠) دولار ، وجاءت الصدمة الثانية بعد توقف تصدير النفط الإيراني في شباط/فبراير ١٩٧٩ عقب سقوط نظام الشاه^(١) . ومنذ ذلك الحين تراوح سعر البرميل بين ٢٠-٣٥ دولار .

وتجئ الصدمة الثالثة لأسعار النفط في الأسواق العالمية مختلفة عن سابقتها من حيث المضامين والدلالات ، لتسجل تصاعد الأسعار بشكل تدريجي بعد احتلال الولايات المتحدة للعراق في نيسان / أبريل ٢٠٠٣ ليصل إلى أكثر من (٤٠) دولاراً في عام ٢٠٠٤ ثم إلى أكثر من (٥٠) دولاراً عام ٢٠٠٥ ليواصل ارتفاعه إلى أكثر من (٧٠) دولاراً في منتصف عام ٢٠٠٦^(٢) . ثم ليتخطى حاجز (٩٠) دولاراً للبرميل الواحد في نهاية ٢٠٠٧ . وعلى الرغم من استمرار التصدير من الدول المنتجة للنفط ، وفي مقدمتها دول منظمة الأقطار المصدرة للنفط (الأوبك) ، إلا أن الارتفاع الزاحف لأسعار النفط لا زال مستمراً وسجل أرقاما غير مسبوقه في بورصات بيع النفط العالمية .

تسعير النفط: تؤثر على تسعير النفط العديد من العوامل ، في مقدمتها :

١. أن القيمة الحقيقية للنفط ينبغي أن يُعبر عنها بالسعر الذي يدفعه المستهلك النهائي مقابل ما يحصل عليه من فوائد حقيقية باستهلاك المنتجات النفطية المكررة وباستقطاع مجمل التكاليف من البئر حتى أسواق الاستهلاك النهائية ، و ينتج ما يعرف اصطلاحاً بالربح النفطي .

٢. يتوزع صافي الربح بين حكومات الدول المستوردة للنفط معبرا عنه بنصيبها بما تفرضه من ضرائب على استهلاكه ، وبين الدول المصدرة للنفط معبرا عنه

(١) خضير عيسى الندوي : أسعار النفط في الأسواق العالمية ، الواقع والتوقعات ، مجلة النفط والتنمية ، العدد الخامس ، أيلول - تشرين الأول ١٩٨٧ ، بغداد ، ص ٨٩ .
(٢) المزيد من التفاصيل انظر صحيفة الزمان ، ٢٠٠٥/٨/٣٠ .

بنصيبها بصافي سعر النفط الخام ، مطروحا منه ما تتكلفه في البحث والاستكشاف والإنتاج.... الخ . ويتوقف نصيب كل من الطرفين من صافي الربح على مستوى سعر النفط الخام، إذ كلما انخفض السعر ، انخفض نصيب الدول المصدرة منه، والعكس صحيح .

٣. أن ما يتقل كاهل المستهلك النهائي لا يتمثل في سعر النفط الخام ، وإنما فيما تحصل عليه حكومات الدول المستوردة للنفط من ضرائب تتجاوز في الدول الأوربية ٧٠% من السعر الذي يتحملة هذا المستهلك . وقد برهنت للتجارب عبر نصف القرن الماضي على أن نصيب تلك الحكومات من صافي الربح كان يتجاوز ٨٥% ، بينما لا يتجاوز نصيب الدول المصدرة منه سوى ١٥% .

٤. لا بد أن يعبر عن سعر النفط بالسعر الحقيقي أو السعر بدولارات ثابتة القيمة ، والذي يكشف عن تطور السعر عبر فترة زمنية بعد استبعاد ما طرأ عليه خلال تلك الفترة من عوامل التضخم النقدي والتغيير في سعر صرف الدولار الذي يتخذ أساما لتسعير النفط في الأسواق العالمية ، كما يعتمد الطلب على النفط على الظروف الاقتصادية في العالم والتي تؤثر على تحديد أسعار النفط في الأسواق العالمية .

٥. يعتمدُ تسعير برميل النفط في البورصات العالمية على مكان المنشأ (مثلاً تكساس، الجزائر ، دبي .. الخ) أو عن طريق كثافته (خفيف ، متوسط ، ثقيل) إضافة إلى محتواه من الكبريت^(٤) . كما تُستخدم تقييمات أخرى للاسترشاد بها للتسعير منها : نفط مزيج برنت ، نفط وسط تكساس لزيت شمال أميركا ، و نفط دبي كعلامة استرشادية لزيت الشرق الأوسط ، و نفط تاييس في ماليزيا كمرجع للزيت الخفيف في الشرق الأقصى ، و نفط ميناس في اندونيسيا كمرجع للزيت الثقيل في الشرق الأقصى . فضلاً عن نفط سلة الأوبك التي تضم الزيت الخفيف

(٤) لمزيد من التفاصيل حول آليات تسعير النفط في الأسواق الدولية يمكن الرجوع إلى الموسوعة الإلكترونية على شبكة الانترنت والمتوفرة على الموقع : www.wikipedia.org

في المملكة العربية السعودية ، دبي بدولة الإمارات العربية المتحدة ، الجزائر ، فنزويلا ، والمكسيك ، رغم انه لا يتبع منظمة الأوبك .

العوامل الاقتصادية لارتفاع الأسعار :

١. زيادة الطلب : عكست أرقام إجمالي الطلب العالمي على النفط منذ عام ٢٠٠٢ والتي لم تفلح القدرة الإنتاجية الاحتياطية للنفط عن مواجهة الزيادة الغير مسبوقه التي طرأت على الطلب العالمي والتي بلغت نحو (٧) مليون برميل يومياً خلال الأعوام الخمس الأخيرة . كما لم تستطع القدرة الإنتاجية أن تخفف من حدة ارتفاع أسعار النفط في الأسواق العالمية و انعكس أداء الاقتصاد العالمي خلال ٢٠٠٥ على معدلات نمو الطلب عل النفط خلال العام المذكور ، حيث بلغت الزيادة (١,٢) مليون برميل يوميا وذلك مقارنة بمعدلات النمو العالمية للطلب على النفط خلال عام ٢٠٠٤ والتي بلغت (٢,٩) مليون ب/ي خلال عام ٢٠٠٥ وفي هذا السياق فقد بلغ إجمالي الطلب العالمي على النفط (٨٣,٣) ب/ي خلال عام ٢٠٠٥ أي بزيادة قدرها (١,٥%) مقارنة بعام ٢٠٠٥ وتساعد الطلب العالمي على النفط ليصل على (٨٤,١) ب/ي خلال ٢٠٠٦ (الجدول رقم (١))

الجدول (١) : إجمالي الطلب العالمي على النفط ٢٠٠٦-٢٠٠٢

السنة	إجمالي الطلب/مليون برميل يوميا
٢٠٠٢	٧٧,٨
٢٠٠٣	٧٩,٤
٢٠٠٤	٨٢,٣
٢٠٠٥	٨٣,٣
٢٠٠٦	٨٤,١
٢٠٠٧ ^(١)	٨٥,٨

المصدر : (OPEC : Monthly Oil Market Report ,P.42, available at : www.opec.org)

(١) تقديرات منظمة الأوبك .

٢. نقص طاقة التكرير : تسبب نقص طاقات التكرير لمصافي النفط في الدول الغربية والاختناقات في طاقات التكرير العالمية والتحويلية ، وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية ، عن تلبية احتياجات الاستهلاك مما أدى إلى رفع أسعار المشتقات النفطية بصورة حادة^(١) ، وبالتالي ارتفاع أسعار النفط الخام في الأسواق العالمية .

٣. انخفاض إنتاج النفط : على الرغم من تصاعد الطلب العالمي على النفط فقد تزامن معه تذبذب إنتاج النفط في نيجيريا^(٢) وبحر الشمال ، في حين لم تتمكن بعض الدول من زيادة إنتاجها كما كان متوقعاً .

٤. انخفاض الدولار : استمرت أسعار صرف الدولار بالانخفاض خلال عام ٢٠٠٦ مقارنة مع بقية العملات الدولية ، وبحلول الشهر الأخير من عام ٢٠٠٦ أنخفض الدولار الأمريكي بنسبة ٢,٦% مقابل اليورو ، و ٢,٨% مقابل الباون البريطاني ، و ٢,٤% مقابل الفرنك السويسري ، و ٢% مقابل اللين الياباني ، مما أدى إلى ارتفاع أسعار نفط سلة الأوبك بنسبة ٤,٥% أي من (٥٥,٤) دولار إلى (٥٨) دولار للبرميل الواحد في أسواق النفط العالمية^(٣) .

٥. عمليات مزج البنزين بالايثانول : عمدت العديد من مصافي تكرير النفط في الولايات المتحدة الأمريكية إلى مزج البنزين بالايثانول لأسباب بيئية تنفيذاً لقوانين أقرت في غالبية الولايات الأمريكية ، مما أدى إلى زيادة الطلب على البنزين .

^(١) أنظر صحيفة الشرق الأوسط، العدد ١٠٢٩٤ في ٢٠٠٧/٢/٣ .

^(٢) صحيفة الزمان، ٢٠٠٦/٩/١٣ .

^(٣) جامعة الدول العربية وآخرون : التقرير الاقتصادي العربي الموحد ، ٢٠٠٦ ص ٦٠ . وكذلك

العوامل الجيوسياسية لارتفاع الأسعار : تتأثر أسعار سلعة النفط وبشكل حاد جداً بالأحداث والتطورات التي يشهدها العالم* . وقد ساهمت العديد من التهديدات الجيوسياسية في مختلف مناطق العالم بارتفاع أسعار النفط بالأسواق الدولية وفي مقدمتها الآتي :

١ . تطور الإحداث في العراق : على الرغم من امتلاك العراق لثاني اكبر احتياطي نفطي في العالم ، إلا انه يعاني من اضطراب الوضع الأمني منذ أربع سنوات والذي تسبب في ارتفاع حجم الأضرار التي تكبدها القطاع النفطي جراء استمرار عمليات التخريب . وطبقاً لتصريحات المفتش العام لوزارة النفط العراقية السيد علي العلاق ، فقد تكبد العراق لخسائر تقدر بخمسة مليارات دولار أميركي جراء استمرار عمليات التخريب التي طالمت أنابيب النفط والمنشآت النفطية الأخرى ، مما تسبب في تراجع إمكانيات التصدير العراقية أو انقطاعها لمدد طويلة كما حصل لتوقف تصدير النفط عبر الأنابيب العراقي التركي مما ساهم بارتفاع أسعار النفط في الأسواق العالمية^(١) .

٢ . الأزمة الإيرانية مع الغرب : تمثل الأزمة النووية الإيرانية واستمرار توتر المواقف مع الغرب لحد أهم العوامل التي دفعت باتجاه زيادة أسعار النفط في الأسواق العالمية ، وخاصة في ظل التهديدات التي يطلقها المسؤولون الإيرانيون ، كلما تعثرت مفاوضاتهم مع الغرب بشأن الملف النووي الإيراني وطبقاً لنشرة ميس الاقتصادية في حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ فقد هدد المرشد الأعلى للجمهورية الإيرانية السيد علي خامنئي بأن إيران ستغلق

*في مؤتمر صحفي لجيمس بيكر وزير خارجية أميركا الأسبق في ٩ / كانون الثاني / ١٩٩١ عقب فشل مباحثته في جنيف مع وزير خارجية العراق آنذاك طارق عزيز حول أزمة الكويت : قال في المؤتمر (سيدتي سعاتي للأسف فطى مدار أكثر من ست ساعات لم أسمع شيئاً يوحى بأي مرونة عراقية لها ككتت بامتناعهم لقرارات الأمم المتحدة) وأشاعت كلمة "الأسف" الاضطراب في البورصات العالمية أما أسعار النفط فقد ارتفعت من ٢٣ دولاراً للبرميل الواحد عندما بدأ المؤتمر الصحفي إلى ٣١ دولاراً للبرميل الواحد في نهاية المؤتمر الصحفي . لمزيد من التفاصيل أنظر : جيمس بيكر : سياسة الدبلوماسية "مذكرات جيمس بيكر" ، مكتبة مبدولي ، ١٩٩٩ ، ص ٥٣٢ .

^(١) أنظر المقابلة الصحفية مع المفتش العام لوزارة النفط العراقية السيد علي العلاق والمنشورة في صحيفة المدى العراقية في ٢٠٠٦/٥/١٠ .

منافذ تصدير النفط المصدر من الخليج إلى الأسواق العالمية في حال تعرض بلاده إلى ما اسماء بخطوة خاطئة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية (عمل عسكري) . وقد اتخذت هذه الأزمة لتجأها آخر عقب صدور قرار مجلس الأمن الدولي المرقم ١٦٩٦ في ٢٠٠٦/٧/٣١ والذي طالب إيران بتعليق جميع أنشطتها النووية المتعلقة بتخصيب اليورانيوم وإعادة التجهيز ، على أن يخضع ذلك للتحقيق من قبل الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، لاسيما وأن هذا القرار صدر استناداً للمادة (٤٠) من الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة لجعل القرار ملزماً لإيران^(١٠) مما يعني التلويح باستخدام القوة العسكرية من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها ضد إيران ، وبخاصة أن الحكومة الإيرانية رفضت تطبيق هذا القرار ، وأعلنت في شهر كانون الأول ٢٠٠٦ بأنها ستطلب من مشتري نفطها بأن يدفعوا باليورو بدلا من الدولار الأمريكي ، ورغم أن شركة النفط الوطنية الإيرانية أعلنت بكونها ما زالت تسعر مبيعاتها النفطية بالدولار الأمريكي ، لكنها تحصل على ٧٥% من إيرادات صادراتها النفطية باليورو الأوروبي^(١١) . وفي الاتجاه ذاته هدد المرشد الأعلى للجمهورية الإسلامية الإيرانية السيد علي خامنئي في ٢٠٠٧/٢/٨ الولايات المتحدة الأمريكية باستهداف مصالحها في كل مكان في العالم في حال اعتدائها على إيران^(١٢) ، وبتاريخ ٢٠٠٧/١١/٢٧ أعلن رئيس مجلس الخبراء الإيراني هاشمي رفسنجاني (بأن الأمن الدولي مرتهن بأمن منطقة الشرق الأوسط الإستراتيجية وأن الجميع يدرك بأن مفتاح أمن الشرق الأوسط هو بيد إيران)^(١٣) لذا فإن أي تصعيد مرتقب في مجريات

^(١٠) لمزيد من التفاصيل أنظر نص قرار مجلس الأمن الدولي ١٦٩٦ في ٢٠٠٦/٧/٣١ على الموقع الرسمي لمنظمة

الأمم المتحدة على شبكة المعلومات (الانترنت) في www.un.org/arabic/se.

^(١١) صحيفة الوطن الكويتية في ٢٠٠٦/١٢/٢٣ .

^(١٢) للإطلاع على تفاصيل حديث السيد علي خامنئي ، أنظر : www.alarabiya.net .

^(١٣) وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية - أيرنا في ٢٠٠٧/١١/٢٧ .

الأزمة الإيرانية مستعكس سلباً باتجاه تصاعد أسعار النفط في الأسواق العالمية.

٣. الصراع على النفط في نيجيريا : تحلّ نيجيريا المركز الأول بإنتاج النفط في إفريقيا ، والسادسة على المستوى العالمي ويصل معدل إنتاجها إلى (٢,٦) مليون برميل يومياً ، وقد قامت العصابات المسلحة بالعديد من الهجمات على المنشآت النفطية في منطقة دلتا النيجر مما تسبب في خسارة أكثر من (٦٠٠) ألف برميل يومياً . وبحسب بيانات المجموعة النفطية الهولندية العملاقة (رويال دوتش شل) فقد أدت الهجمات إلى انخفاض صادرات نيجيريا من النفط الخام إلى (٤٠٥) ألف برميل يومياً^(١٤) . مما ساهم بارتفاع أسعار النفط بالأسواق العالمية .

٤. تأميم النفط في بوليفيا : أعلن الرئيس البوليفي الجديد (إيفو موراليس) في الأول من أيار / مايو ٢٠٠٦ عن تأميم قطاعات المحروقات ووضع حقول النفط والغاز تحت إشراف الشركة الوطنية العامة للمحروقات ، وينطبق قرار التأميم على ٢٦ شركة أجنبية منحت حق التنقيب عن النفط في بوليفيا عام ١٩٩٦ ومنها شركة ريبسول الإسبانية وتوتال الفرنسية ولكسون موبيل الأميركية وغيرها^(١٥) مما أدى إلى إحداث مشاكل بين الحكومة البوليفية والشركات المذكورة وبالتالي تذبذب إمكانيات تصدير النفط البوليفي للأسواق العالمية .

^(١٤) صحيفة الزمان ، ٢٠٠٦/٩/١٣ .

^(١٥) انظر صحيفة للمدى البغدادية ، ٢٠٠٦/٥/٣ .

انعكاسات ارتفاع أسعار النفط :

١. التركيز على دول الخليج العربي : أجمعت العديد من الدراسات الاقتصادية بوجود ست دول من دول الأوبك ممن ستكون لديها القدرة على توسيع إمكاناتها الإنتاجية ، بحيث ترتفع بقدراتها الإنتاجية من (٢٣) مليون ب/ي إلى (٤٤) مليون ب/ي في غضون السنوات العشرين القادمة وهذه الدول هي السعودية ، الإمارات ، الكويت ، والعراق وإيران ثم فنزويلا .

٢. ارتفاع عائدات النفط : تنقسم الدول المنتجة والمستهلكة عائدات الربح النفطي . وهو ما يزيد في السعر للمستهلك النهائي فوق مجمل التكاليف ، ويتوزع الربح النفطي (بعد استبعاد كافة التكاليف ، وإرباح الشركات الوسيطة) بين الدول المصدرة للنفط ، وحكومات الدول المستوردة (معبراً عنها بما تحصل عليه في صورة ضرائب تفرضها على استهلاك المشتقات النفطية) . وتختلف توزيع الربح النفطي بين الدول المنتجة للنفط والدول المستهلكة له تبعاً لقوة أو ضعف أسعار النفط الخام ، إذا كلما انخفض سعر النفط الخام يتضاءل نصيب الدول المنتجة من ذلك الربح وكلما ارتفع سعر النفط الخام تساعد نصيب الدول المنتجة من الربح النفطي .

٣. استخدام المصادر البديلة : يلعب الارتفاع الحالي لأسعار النفط دور المحفز للتحويل أكثر فأكثر إلى استخدام المصادر البديلة للطاقة على حساب النفط وهذا هو جوهر مبادرة الطاقة المتقدمة التي اقترحها الرئيس الأميركي جورج بوش في شباط / فبراير ٢٠٠٦ ضمن خطاب حالة الاتحاد والتي تهدف إلى تطوير مصادر طاقة نظيفة أرخص ويمكن الاعتماد عليها . وقد رُصد لهذه المبادرة مبلغ عشرة مليارات دولار أميركي لتطوير هذه المصادر وزيادة الاستثمارات في مجالات تطوير تكنولوجيا الطاقة البديلة ونسبة ٢٢% عما كانت عليه قبل المبادرة . وقد عرض الرئيس الأميركي جورج بوش في خطابه السنوي عن حالة الاتحاد في ٢٣/١/٢٠٠٧ خطة جديدة لمواجهة ارتفاع أسعار النفط

تضمنت ثلاث فقرات الأولى : تنويع مصادر الطاقة الأميركية باعتماد الوسائل التكنولوجية المتقدمة . والثانية : زيادة إنتاج النفط الأميركي باستخدام أساليب حساسة مراعية للبيئة . والثالثة : مضاعفة المخزون الاحتياطي الإستراتيجي من النفط ^(١٦).

٤. إضعاف الإصلاحات الاقتصادية : ساهمت فوائض عائدات النفط غير المتوقعة في البلدان المنتجة له بإضعاف عمليات الإصلاح الاقتصادي في هذه البلدان. وطبقاً لتقرير البنك الدولي الصادر في حزيران /يونيو ٢٠٠٦ ، عن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا فقد زادت السعودية إنتاجها من النفط من (٧،٤) مليون برميل يومياً إلى (٩،٢) مليون برميل يومياً . كما شهدت دول الخليج الأخرى زيادات كبيرة في معدلات الإنتاج حيث ارتفع إنتاج الكويت بنسبة ٣٣% وقطر ٢٤% ودولة الإمارات ٢٣% . وتزامن مع هذه الزيادات طبقاً لذات التقرير ، تزايد الإيرادات المالية الحكومية لصادرات النفط . حيث تضاعفت خلال السنوات الثلاث الماضية مرتفعة من (١٥٤) مليار دولار أميركي عام ٢٠٠٢ إلى (٣٦٥) مليار دولار أميركي عام ٢٠٠٥ عدا ليبيا وسوريا . كما تضاعفت الاحتياطات المالية في الخارج من (١٤٠) مليار دولار عام ٢٠٠٣ إلى (٣٠٠) عام ٢٠٠٥ مما أدى إلى الاعتماد على الفوائض النفطية لتنشيط الاستثمارات في مختلف القطاعات الاقتصادية وإسدال الستار عن مشاريع الإصلاحات الاقتصادية . و قد مكن الربح النفطي النظم الحاكمة في دول مجلس التعاون الخليجي من تقديم الخدمات لمواطنيها بتكلفة بسيطة أو من دون تكلفة على الإطلاق ، وفي المقابل أن يبقى نشاطهم السياسي في الحدود المرسومة من قبل حكوماتهم ^(١٧).

^(١٦) أنظر خطاب بوش عن حالة الاتحاد في ٢٠٠٧/١/٢٣ والمنشور على الموقع الرسمي لوزارة الخارجية الأميركية على شبكة الإنترنت الدولية والمتوفر على الموقع الرسمي : www.usinfo.state.gov .
^(١٧) مبارك مبارك أحمد : تغير القيادة والتحول الديمقراطي في دول مجلس التعاون الخليجي ، مجلة آراء حول الخليج ، إصدار مركز الخليج للأبحاث ، دبي ، العدد الخامس عشر ٢٠٠٦ ، ص ٣٧ .

التوقعات المستقبلية :

أ. وكالة الطاقة الدولية : تنبأت وكالة الطاقة الدولية في تقريرها السنوي لعام ٢٠٠٦ بتساعد أسعار النفط في الأسواق العالمية جراء تراجع إنتاج النفط الخام من الدول غير الأعضاء في منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) وبخاصة : المكسيك والنرويج وكندا وسيؤدي ذلك إلى زيادة الطلب بنسبة (١,٨%) أي (١,٥٥) مليون ب/ي في عام ٢٠٠٧^(١٨) ، وذلك بسبب استمرار تصاعد الطلب من الصين ثاني أكبر مستهلك للوقود في العالم بعد الولايات المتحدة الأميركية .

ب. صندوق النقد الدولي : أكد الصندوق في تقرير له عن التوقعات الاقتصادية الدولية صدر في تشرين الأول ٢٠٠٧ ، بأن أسواق النفط العالمية تعاني من ضغوط على جانب العرض والتوترات السياسية والتي ستدفع أسعار النفط نحو الارتفاع عن مستوياتها القياسية لتتجاوز سقف (٩٥) دولارا للبرميل الواحد بحلول ٢٠٠٨^(١٩).

ج. معهد اليابان لأقتصاديات الطاقة : حدد التقرير السنوي للمعهد المذكور ثلاث سيناريوهات للأسعار خلال عام ٢٠٠٧ وبداية عام ٢٠٠٨ وكما يلي :

الأول : استمرار الأسعار الحالية : والتي تتراوح في المتوسط ما بين (٦٠-٦٥) دولار للبرميل الواحد .

الثاني : السعر المرتفع : ممثلاً ببروز عوامل تأثير جديدة ، كان يسجل الطلب العالمي على النفط ارتفاعاً في العام ٢٠٠٧ قدرها (٦٠١) مليون ب/ي عن العام السابق ، مما يؤدي لزيادة أسعار النفط ما بين (٧٠-٧٥) دولار للبرميل

^(١٨) وزارة النفط بدولة الكويت : تقرير التطورات في السوق النفطية ٢٠٠٦ ، والمنشور على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) في : www.moo.gov.kw .
^(١٩) صحيفة الشرق الأوسط في ٢٠٠٧/١٠/١٨ .

الواحد . وفي حالة حصول إنقطاعات في الأمدلات فقد يكون المتوسط أعلى بحوالي خمسة دولارات (٧٥-٨٠) دولار للبرميل الواحد .

الثالث : السعر المنخفض : ويتمثل في تسجيل الطلب العالمي على زيادة معتدلة قدرها (١,٢) مليون ب/ي عن العام السابق وسيكون معدل سعر النفط خام ما بين (٦٠-٦٥) دولار أميركي للبرميل الواحد^(٢٠).

ج. وزير البترول السعودي : تؤثر قرارات المملكة العربية السعودية في خفض أو زيادة كميات إنتاج النفط المصدر للأسواق العالمية في تثبيت الأسعار ، كونها أكبر منتج و مصدر للنفط في العالم ، ويتراوح إنتاجها حالياً بين (٨,٥ و ٨,٦) مليون برميل يومياً ، وتستحوذ على ٣٠% من كميات النفط التي تصدرها دول منظمة الأوبك . وطبقاً لتصريحات وزير النفط السعودي السيد علي النعيمي^(٢١)، تخطط السعودية لزيادة أنتاجها إلى (١٢,٥) مليون برميل يومياً ، وفي المرحلة الحالية لا يوجد ما يدعو للتغيير إذا ظل الاتجاه على ما هو عليه مع تحسن السوق النفطية ، ومما يعني ضمناً استمرار أسعار النفط في عام ٢٠٠٧ وبدلية عام ٢٠٠٨ على مستوياتها المرتفعة .

د. ريتشارد هاس : توقع المذكور استمرار ارتفاع أسعار النفط في الأسواق العالمية ، نتيجة للطلب المتزايد من قبل الصين والهند والناتج المحدود للجهود التي قامت بها الولايات المتحدة الأميركية للحد من ظاهرة الاستهلاك وزيادة

(٢٠) لمزيد من التفاصيل أنظر تصريحات البروفيسور (كين كويلما) مدير قسم أبحاث الصناعة والإستراتيجية في معهد البايان لأقتصاديات الطاقة والمنشورة في صحيفة للزمان في ٢٠٠٧/١/١٧ .
(٢١) صحيفة الشرق الأوسط السعودية في ٢٠٠٧/٢/١٣ .

احتمالات حدوث نقص في التغذية النفطية وعندئذ سيتجاوز سعر برميل النفط (١٠٠) دولار أميركي^(٢٢).

٥. الرئيس الفنزويلي : طالب الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز في خطاب له ألقاه في مؤتمر قمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) والذي عقد بالرياض في المملكة العربية السعودية في ١٨/١١/٢٠٠٧ بضرورة قيام منظمة الأوبك بدوراً مؤثراً، وطالبها بتكريس نفسها لاعبا جيوسياسيا مهما على المستوى العالمي ، وحذر من احتمال وصول أسعار النفط إلى (٢٠٠) دولارا للبرميل الواحد إذا هوجمت إيران من قبل الولايات المتحدة الأميركية ا و اتخذت خطوات مماثلة ضد فنزويلا^(٢٣).

^(٢٢) سبق وأن عمل ريتشارد هاس مديراً لبرنامج الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي الأمريكي في إدارة الرئيس بوش الأب ، ثم عمل مديراً للتخطيط السياسي بوزارة الخارجية الأمريكية في الفترة الأولى لإدارة بوش الابن وخرج عام ٢٠٠٣ ، ويصل حالياً رئيس المجلس الأمريكي للعلاقات الخارجية ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Richard N. Hase : The New Middle East, Foreign Affairs, November/December 2006, available at : www.foreignaffairs.org

^(٢٣) صحيفة الزمان اللبنانية في ١٩/١١/٢٠٠٧ .

الخلاصة:

بضوء ما تقدم ، نستنتج الآتي :

١. تختلف الصدمة النفطية الثالثة لأسعار النفط من حيث البعد الزمني الذي استغرقته ومبرراتها الاقتصادية والسياسية عن الصدمتين السابقتين ، لذا فإن أسعار النفط عقب الصدمة الثالثة مرشحة للاستمرار والتصاعد بعكس ما حصل بعد الصدمتين الأولى والثانية حيث تراجع السعر عقب انحصار تأثير مبررات الصدمتين السابقتين .
٢. حصلت الصدمة الحالية بتصاعد تدريجي لأسعار النفط ، مع وجود خزين استراتيجي لدى الدول المستهلكة وبخاصة الولايات المتحدة الأميركية ، مما ساعد على التحكم النسبي في اتجاهات العرض والطلب .
٣. بظل الظروف التي يشهدها الاقتصاد العالمي وانتشار تأثير العوامل السياسية على ثلاثة قارات في العالم العراق وإيران في آسيا ونيجيريا في إفريقيا ، وبوليفيا في أمريكا اللاتينية ، لذا فإن أي توجه نحو تصعيد التوتر السياسي واحتمال التصادم العسكري بين إيران والدول الغربية سيدفع بارتفاع أسعار النفط لتتجاوز (١٠٠ دولار) في الأسواق العالمية وعندئذ سيلقي هذا الارتفاع بظلاله القاتمة على الاقتصاد العالمي .

أشكالية ضعف الدولة الغنية

المدرس المساعد

رعد قاسم صالح^(١)

المقدمة:

أن بقاء ضعف الدولة الغنية بمعطيات جغرافيتها الوطنية بسبب بعدها عن احتضان تعابير قوانين التطور العلمي والنظم والتشكيلات الموائمة له، وعجزها عن توظيف هذه القوانين في المواكبة المستديرة للتطور التكنولوجي في فن التنظيم الحالي لتعبئة الذكاء والموهبة مع الموارد المادية، ويقائها رهينة للمفاهيم التقليدية في ضمان أمنها القومي دون رفده بالحلقات العالية التقنية والكفاءة سيجعلها أسيرة التفوق الاقليمي والدولي ومنطقة استقطاب للتنافس والصراع الدوليين عليها.

والضعف المقصود هنا، شاملاً لطبيعته عندما يتعلق الأمر بالدولة لكيان هرمي متشابك والذي يحتاج من أجل تطوره والمحافظة عليه إلى نظام سياسي قادر على استيعاب الواقع المحلي والتكيف مع الواقعين الاقليمي والدولي، ونظماً اقتصادياً قادراً على إشباع حاجات الناس وتطوير مستوياتهم المعيشية نحو الرفاهية مستوعباً لكل مايطرأ من متغيرات على النظام الاقتصادي الدولي، ونظماً اجتماعياً قادراً على إيجاد المشترك العام لجميع كتله وأحزابه وطوائفه نحو الأهداف والغايات العليا ليشكل العلم رابطاً مهماً لهذا المشترك العام راعياً لمبادئ العدل والمساواة وضمان تمتع الأفراد بحرياتهم وحقوقهم من أجل الأبداع في تطوير هذا الرابط الذي يلعب دوراً مهماً في تفعيل وتوسيع مقدرات الأمن القومي في الدفاع عن المصالح والمؤسسات والقيم الوطنية، وتوجد هناك مقاييس لضعف الدولة من خلال مظاهر عديدة اقتصادية وسياسية وصناعية وأمنية، لعب العلم وتعبيراته دوراً مهماً فيها ليضيف مقياساً رئيسياً إلى المقاييس التقليدية ((ارتفاع أو انخفاض الدخل السنوي الفردي- ارتفاع أو انخفاض معدل الإنتاج والدخل القوميين-خلف أو تطور الإنتاج الزراعي

^(١)مدرس العلوم السياسية- الجامعة المستنصرية.

والصناعي-الواقع الصحي والتعليمي-الأداء الوظيفي... الخ)) إضافة إلى القدرة على الدفاع عن النفس تجاه التهديدات الخارجية، أو مدى التأثير على الدول الأخرى في المحيطين الأكليمي والدولي، والدولة التي لا تملك التطور العلمي المعاصر وإستيعاب مظاهره، وتحمل الأشارات السلبية في المقاييس التقليدية الأنفة الذكر تكون أسيرة دائماً للتفوق الخارجي وتعجز عن تأكيد أرادة شعوبها، وتكون النتائج كارثية عليها أن هي أتسمت بالضعف ولكنها تملك في أراضيها من موارد طبيعية ومواد أولية وموقع مهم مما يحتاجه الآخرون، وخاصة الأقوياء منهم.

لأن الصياغة الصحيحة للعلاقات الدولية وفق قواعد العصر الحالية لم تعد مبادئ يجري ترديدها عن المسافة والسكان وكمية ونوعية الموارد الطبيعية والمواد الأولية، وأما هي حركة نشطة ودورية وفاعلة لأن سرعة الأحداث وقوتها بفضل العلم والعمل تجعل من الصعوبة الرهان على المجهول مما تخبئه الأقدار، وهنا غاية بحثنا التي تعالج إشكالية وجود بعض الدول العاجزة عن أشباع حاجيات شعوبها بسبب محدودية مواردها الطبيعية، ودول من الممكن أن تشبع جميع حاجيات شعوبها بسبب وفرة مواردها الطبيعية، بيد أن تحليل الواقع الدولي أظهر أنقلاباً في هذه المعادلة، لأننا وجدنا بعض الدول القوية المؤثرة أستطاعت أن تشبع جميع حاجيات شعوبها الضرورية وهي لا تملك أي فائض من الموارد الطبيعية الرئيسية بل وتحتاج إلى معظمها، في المقابل وجدنا دولاً أعطاه الله سبحانه وتعالى أكثر مما تحتاجه شعوبها من الموارد الطبيعية ولا تملك المكانة المؤثرة وتقع دائماً أسيرة تفوق الآخرين وأتضح من خلال التحليل أن متغير القوة العلمية والبشرية قد لعب دوراً مهماً في خرق هذه المعادلة.

لذلك جاء بحثنا في أوله عن مظاهر القوة التقليدية ومাত্রاً عليها من متغيرات ومبحثه الثاني عن كيفية احتضان العلم لتوظيف قوته في التطور، والثالث عن تعبيرات القوة العلمية في مضامين الأمن القومي والدفاع عن النفس ذلك الدفاع الذي يرتب الحرية في أستثمار وتوظيف خيرات المعطيات الجغرافية بعيداً عن أستغلال الأقوياء الآخرين.

المبحث الأول

مظاهر القوة التقليدية

أن ظاهرة الاحتلال والاستعمار جاءت بتفوق بعض التنظيمات السياسية والاقتصادية والعسكرية لبعض الجماعات البشرية على الأخرى، ومن ولب هذه التفوق وأدامه بكافة عناصر القوة المتطورة مع استيعاب كافة المتغيرات المحلية والدولية أستطاع البقاء كقوة احتلالية استعمارية أو أي مسميات أخرى تتفق مع جوهر أهداف هيمنة دول على دولة أخرى، ومن بقي خارج هذه المواقبة فقد قوة التأثير وتحقيق عين الأهداف وقد يتعرض إلى التهميش والعزلة وحتى الاحتلال بسبب عدم قدرة مقومات القوة التقليدية مجابهات المقويات الحديثة المتطورة بفعل المتغير العلمي:

١. البيئة الجغرافية: لم تقتصر مخاطر تخلف الدولة الغنية في مضامين العلم والتكنولوجيا على أمنها القومي فحسب، بل قد يتعدى ذلك الى حقها في البقاء في البيئة الدولية ونقصد بالدول الغنية بمعطيات جغرافيتها من الثروة الطبيعية والمواد الأولية والأرض والموقع والطقس... الخ، التي اعتبرها أصحاب المدرسة الجيوبوليتيكية التقليدية عناصر قوة رئيسية، متقاسمين الآثار الجسيمة التي سببتها التخلف العلمي التكنولوجي والذي انعكس على الدولة في التفاعلات الدولية، فقد أكد مفكروها ومنذ قيام الدول القومية في القرن الثامن عشر وحتى بدايات القرن العشرين على أهمية معطيات الجغرافية الوطنية في رسم السياسة الداخلية والخارجية وتبوء نوع المكانة في العلاقات الدولية، بشكل مبالغ فيها، حتى أطلق البعض على هذه العلاقة (الحمية الجغرافية) التي وجدت تعبيراً جازماً لها في أطروحة حيث قال: (أعطوني خريطة بلد وهيئته ومناخه ومياه Vector Cusin فيكتور كوزان ومجموع نباتاته وحيواناته... الخ وأنا اتكفل بأن أقول لكم جازماً من سيكون رجل هذا البلد وما سيكون دور هذا البلد في التاريخ ، وليس في زمن معين بل في جميع الأزمنة)^١. مستنداً في أطروحته على اعتبار أن الدولة التي تم التعرف عليها متصلة بأرض تمارس عليها كامل أشرافها، وإن الإمام بها لاينفصل عن الإمام بها لاينفصل عن الإمام بالأرض. وإن الأرض وما تحتويه

^١ بير رينولفان ، وجان باتيست ، مدخل الى تاريخ العلاقات الدولية - مكتبة الفكر الجمعي - لبنان - بيروت - ١٩٦٧ ص-١٦.

تؤثر في زيادة سلطة الدولة أو أنقاصها، وإن أهم صورة عن هذا التأثير هو تمكثها بحرية من توفير الاحتياجات الأنثوية والمستقبلية للسكان، والمحافظة على هويتها الخاصة المتأنتية من خلال التفاعل العميق في التاريخ بين البيئة الجغرافية والمبادئ الأساسية لقيمها وتكون في وضع أقل تبعية حيال الدول الأخرى لأنها تملك القدرة التقليدية لحماية أرضها ونستترك هنا مقولة راتزل الشهيرة عن الأرض وحمايتها حيث قال: (إن كل دولة هي بالضرورة في صراع مع العالم الخارجي للدفاع عن الفراغ الذي تشغله ، وكل دولة متينة التنظيم تحاول زيادة فراغها بمختلف الوسائل لتأمين موارد ومنافع أكبر)^٢ أربط ذلك بمفهوم الأمن القومي التقليدي الذي دمج بين فكرة فرض الإرادة على الآخرين وحق حماية الذات، حين خول الدولة استخدام ما يتوفر لديها من الوسائل المادية وغير المادية لبقائها وذاتها ومصالحها.

ويوعز الباحثون من المدرسة السلوكية أصل هذه الفكرية الى خاصية العدوانية لدى الإنسان البدائي وبالذات عدوانية التملك الذي يبدأ من امتلاك الذات وقد لاينتهي إلا عند امتلاك العالم^٣.

يبد أن ما بهمننا إن هذه الأفكار أظهرت مفهوم (الفراغ الحيوي) الذي أعتمدته المدرسة الجيوبوليتيكية التقليدية حيث أعتبرت حينها أن سيطرة روسيا على النجود والسهوب المحيطة بها والتي كانت معبر الغزوات الكبرى عملية تنظيم الفراغ وفي نفس السياق أعتبرت إمعان ضم ألمانيا الهتلرية لأجزاء كبيرة من بولندا وبلجيكا الى ألمانيا فترة ماقبل الحرب العالمية الثانية^٤.

وترادف مع هذا المفهوم ظهور فكرة (مركز القوة الطبيعية) وكان الكتاب كانوا فترة الحربين العالميين الأولى والثانية يوطرون السبل لتلبية الحاجة المستتمة للنظم الاقتصادية الأوربية في إيجاد الأسواق الجديدة والموارد الأولية الجديدة والأيدي العاملة الرخيصة مما أظهر صراعاً دولياً جوهره تنازع الإيرادات الوطنية، وهو تنازع ناتج عن الاختلاف في دوافع الدول وفي تصوراتها وأهدافها وتطلعاتها وفي مواردها وإمكاناتها ولكي تفوز هذه

^٢ المصدر نفسه ص ٣٩ .

^٣ د. محمد مصالحة - مسألة الأمن القومي - بين المفاهيم ، الواقع ، التصوص - شؤون عربية - العدد ٣٥ ، لسنة

١٩٨٤ .

^٤ بيير رينوفان ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٢ .

الدول في هذا الصراع أخذت تبحث عن مصادر جديدة لزيادة إمكاناتها وقدراتها ولذلك برزت الظاهرة الاستعمارية في العلاقات الدولية، وأن تغيير اللاعبين في هذه الظاهرة، حيث بقي البعض ورحل البعض وجاء غيرهم كان يفعل المتغير العلمي الاقتصادي الذي غير في خارطة التفوق الدولي.

٢. الأرض: أهم مكون في هذه البيئة وإن سعة الأرض وعدم انغلاقها وقربها من السواحل ومنافذ البحار ونقاط ارتكاز المواصلات الدولية وأحتوائها على وفرة الثروات الطبيعية والمواد الأولية وتنوع الطقس وللنبات الطبيعي وكثرة المحاصيل الزراعية والثروة الحيوانية. بالتأكيد تؤثر هذه المعطيات الحياتية للشعب وتوفر له حرية كبيرة للحركة نحو النمو والتطور والمكانة المرموقة (الهيئة الدولية) في البيئة الدولية وفي المقابل فإن الشعوب التي تشغل فراغاً صغيراً يفتقر إلى كل أو جزء من هذه المعطيات الإيجابية للجغرافيا تتصف باستعدادات فكرية أكثر تهيئاً وتواضعاً ولا ترتقي إلى المكانة المرموقة في البيئة الدولية، وغالباً ماتكون دولهم أسيرة الاعتمادية على الدول الكبرى، وأن حدثت استثناءات في هذه الدول ستكون بالتأكيد بفعل العامل الأنساني المقرون بالتطور النوعي للإنسان، حين وظف العلم في السيطرة على فضاء دولته وفضاءات الدول الأخرى، أو على السيطرة على مياهه الإقليمية والمياه الإقليمية للدول الأخرى.

٣- الثروة الطبيعية والموارد الأولية: تصاعدت أهمية الطاقة مع تقدم التقنيات الصناعية، فقد أعطى الفحم في تفاعلات العلاقات الدولية أهمية متفوقة للدول التي تملك طبقات فحمية كبرى وجاء عهد الطاقة المائية ليدخل في حياة الصناعة الكبرى في مناطق جبلية ظلت من قبل خارج حدود الاهتمام السياسي^٥.

وفي العقود الأولى للقرن العشرين ولغاية الآن تصاعد دور البترول في العلاقات الدولية جراء اتساع استخداماته لأغراض طاقة وأغراض عديدة للصناعة، الأمر الذي أبرز أهمية كبيرة للمناطق المنتجة له، والتي لم يولها أحد حتى ذلك الحين غير أهمية بسيطة، ثم جاءت مصادر الكونغو من اليورانيوم بعدد عام ١٩٤٥م التي استثمرت استثماراً واسعاً

^٥ ج. موريس و. ا. ج. ديكز - تاريخ العلم والتكنولوجيا، ج ٢ ترجمة أسامة أمين القوي - الهيئة المصرية للكتاب - القاهرة - ص ١٢.

فأسندت لهذا البلد المنسي حينها مركزاً هاماً ولو لحين من الزمن^٦. ومع التطور العلمي أخذت التكنولوجيا الصناعية تلبي بصورة مستديمة تنوعاً ونوعاً احتياجات المجتمعات الاستهلاكية فأرتفعت الأهمية السياسية لمناطق الأخشاب والقصدير والنحاس والحديد والألمنيوم والكبريت... الخ، وبسبب عدم التعادل في مصادر الثروات الطبيعية والموارد الأولية المنتشرة في الكرة الأرضية، وبفضل التطور الملحوظ في وسائل النقل والمواصلات والاتصالات والتفوق العسكري للأوربيين، أصبحت الموارد الطبيعية والأولية أكثر عمقاً واتساعاً وأهمية في الصراعات الأولية^٧، وأصبحت المنافسة بين الدول عنلية حول الهيمنة على منافذ للموارد الطبيعية والأولية، وقد حدثت حروب عديدة بسببها، وكانت هذه الحروب تزداد ضراوة كلما كانت الشعوب ذات الخواص التنظيمية المتبينة الفاعلة وصاحبة الأماكن التكنولوجية المواكبة للتطور المستديم تمنع في سياسة الهيمنة على الثروات الطبيعية والموارد الأولية تجاه الدول (الضعيفة) وكان الحق معها في ذلك، وهل صحيح أن الواقع يفرض دائماً حقيقة أن الموارد الدفينة والثمينة تحت الأرض وفوقها لاتجدي إلا أولئك القادرين على أن يستخلصوا منها أفضل المنافع، والقدرة هنا تعني الإمكانية على تطبيق قوانين التطور العلمي التكنولوجي وتوظيفها في فاعليات قوة التأثير للاستحواذ على ما تحتاجه لدى الدول الضعيفة.

وبالعكس نستطيع أن نقول بأن الدولة التي لاتملك النظم والتشكيلات المتفاعلة مع التطور العلمي التكنولوجي، ولكنها تملك حظاً وافراً في الثروة الطبيعية والمواد الأولية، تكون عامل تصعيد في هذه المنافسات والصراعات التي تأخذ أشكالاً عديدة حسب تطور وتغير وسائلها.

٤- البيئة النفسية: الشعور بالراحة والأطمئنان على القيم والتراث ونمو الثقافة وتدعيمها كلها نجدها بالمنظور الأمني الحديث المتفاعل مع المبادئ الأساسية للبيئة النفسية في الأخلاق والقيم والأيدولوجيات الوطنية الذي أبرز جملة من المفاهيم أهمها (القدرة لحماية الأمة من خطر القهر على يد قوة خارجية) وفي تعريف آخر (لغة قدرة الأمة على حماية قيمها الداخلية

^٦ بيير ريفوفان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.

^٧ روبرت جيلين - الحرب والتغير في السياسة الدولية - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد - ١٩٩٠ - ص ١٤٩.

من التهديد الخارجي) وعرفه والتر ليبمان (تكون الدولة آمنة عندما لا تضطر الى تكريس مصالحها المشروعة لتقاضي الحرب، وهي أيضاً قادرة في حالة التحدي والضرورة على أن تكريس هذه المصالح لمواجهة الحرب)، وأخيراً يعرفه هنري كيسنجر (انه يعني أي تصرفات يسعى المجتمع عن طريقها الى تحقيق حقه في البقاء)^٨.

فالكل تحدث عن القدرة والمقدرة في توظيف المعطيات الجغرافية الاستراتيجية والعامل البشري النوعي لتحقيق التفوق أو التوازن بين الدول المتصارعة وقد يكون هناك هامش لتفوق البيئة النفسية لهذه الدولة أو تلك بيد أن التجارب الحديثة لم تحدثنا عن رقي هذا الهامش الى المرتبة الأولى قبل للقدرة العلمية والتكنولوجيا فلا مجال لصمود الجندي المقاتل البسيط المنجج بالقيم والأخلاق في ساحة المعركة أمام الجندي المنجج بالمعدات والأنوات العالية الكفاءة والقوة التدميرية مع أسناد فضائي، فالبيئة النفسية تكون آمنة وسليمة مع المقدرة العلمية والتكنولوجية وضعيفة ومهددة بدونها وينول ذلك الى التطور النوعي لطبيعة القدرة الذي أحدثته الثورة العلمية التكنولوجية، وبذلك تراجعت وبشكل جاد العلاقات الدولية القائمة على تقارب الأيديولوجيات لتحل محلها العلاقات القائمة على المنافع الاقتصادية والعلمية المنظمات الدولية ذات الطبيعة الاقتصادية العلمية أكثر حضوراً وتأثيراً من المنظمات الأيديولوجية والمذهبية.

٥- السكان: لم تعد القوة البشرية تقاس كما بعدد عشرات الملايين من الأفراد، فالتعبير الذي أحدثته للقوة العلمية غير ذلك بشكل كبير، فالمجتمعات التي أفرزت الأنظمة السياسية القوية ونظمها الاجتماعية المستقرة والمتطورة نجحت في خلق الشخصية الفردية الموائمة مع المتجدد من التطور التكنولوجي عن طريق النظم الاجتماعية والمؤسسات التعليمية والبحثية العالية الكفاءة والمتناسقة مع مجموعة القيم الحركية المتفاعلة مع المكون العلمي النظري والتطبيقي للمعارف والمكون المعيارى للمستند على المطابقة والمواكبة لأهداف المجتمع نحو التطور الاقتصادي والاجتماعي والأمني^٩، أي جعل عملية اكتساب المعرفة للأفراد وسيلة لغايات معبرة عن التطور وتحقيق أنجازات ترصد تفوق شعب على شعوب أخرى.

^٨ رافعت سيد أحمد، الأمن القومي العربي، تطور المفهوم، دراسات عربية، العدد ٣٥، ص ٨٠.
^٩ د. أحمد زايد - ميكولوجية العلاقات بين الجماعات - عالم المعرفة - العدد ٣٢٦ لسنة ٢٠٠٦ ص ٥٦.

وبذلك لكون الشعب قوياً بالانوعية المشبعة بعناصر مميزة وقادرة على التواصل مع النهج العلمي لمعالجة الواقع المحلي والأقليمي والدولي^{١٠}، بعيداً عن المنهج الميتافيزي الذي لايعطي للشعوب الضعيفة غير الأيحاء والحنس والمثالية^{١١} ويحرمها من التعاطي مع هذه الوقائع بصورة فاعلة ومؤثرة ويسحبها نحو الضياع أو الانعزال الضعيف.

والمجتمعات التي أجتهدت نحو هكذا تعليم وتربية والتي تشكل ٥/١ خمس سكان العالم أتممت بتملك التفوق والقدرة على التأثير والهيمنة على ٥/٤ أربعة أخماس سكان العالم الذين أبعدوا أولم يرشدوا نحو أهمية "العلم" وتعبيراته في القضاء على مشاكلهم الفارقين فيها كالتخلف والفقر والصراعات الداخلية وللشلال في توظيف القوة البشرية في مجالات الدفاع عنها أو حضورها المؤثر في التفاعل بين الشعوب أو في مجالات أستثمار مواردها الطبيعية ومواردها الأولية^{١٢}.

المبحث الثاني

أحتضان القوة العلمية

أن نهضة مستلزمات أحتضان الجهد الأنساني للتطور العلمي بأساليب بحثية موضوعية لرفد التطور التكنولوجي في أنشطة المجتمع والاقتصاد والصناعة والقوات المسلحة يتم بالتفاعل مع الدور المميز للمؤسسات البنيوية في الأعداد البشري لهدف ((صنع ثقافة علمية)) فالمعروف أن كل علم أياً كان موضوعه له أثار إيجابية على النظام الاجتماعي والسياسي والعلاقات الدولية من خلال قدرته على صنع شبكة ترابط وتشابك جميع مكونات المجتمع نحو التماسك والفاعلية مع نفسه ومع المجتمعات الأنسانية الأخرى.

في طبيعة العلم :

لكل علم طريقة منظّمه ومحددة للبحث، فالعلم هو معرفة مصنوعة بأداة خاصة ويجد الباحثون طبيعة هذا الشرط بأنه يجب أن تكون لكل علم طريقة وأدوات

¹⁰ عدل قاهر - الأسس الفلسفية للعلمانية - دار الساقي - بيروت - ١٩٩٨ ص ١٢٥ .

¹¹ أنظر هنري برجسون - الفكر والواقع المتحرك - ترجمة سامي الدوري - مطبعة الأنشاء - دمشق ص ٤٣ .

¹² كذلك أنظر - نادر خرجاني - برنامج الأمم المتحدة الأممي - تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٥ المستقبل العربي - العدد ٣٢٥ لسنة ٢٠٠٦ ص ١٩٢ - ١٩٣ .

Tooled knowledge^{١٣} وهذا يعني ضرورة توفير عدة تشكيلات بحثية Special Techniques خاصه به في البحث العلوم، خاصة العلوم الداخلة في صلب عملية التطور العلمي التكنولوجي مفتاح الدخول في التفوق الأكاديمي والدولي، وهذا يتم بفعل دعم النظم السياسية الاقتصادية الاجتماعية السليمة.

واقعية العلم:

يمتاز العلم بالتجريد، فالمعلم يقوم من هذه الناحية على دراسة الحالات الفردية بصرف النظر عن الاختلافات الخاصة بين تلك الحالات، فبالرغم وجود مميزات خاصة لكل حالة من الحالات الفردية إلا أنه توجد خصائص عامة مشتركة تجمعها، وتحديد هذا المشترك هو مانعنه بالتجريد، وهو ما يهتم به العلم ويوصلنا الى فكرة ((القانون العلمي)) الذي يعتبر قاعدة تحدد الخصائص العامة التي تتوفر في كافة الحالات الفردية فظاهرة من الظواهر، وبذلك يساعد في تحديد ما يحدث في المستقبل، لان القانون العلمي لا يقوم على مصادفات حدثت في الماضي وقد حدثت في الماضي وقد تحدث أو لا تحدث في المستقبل، بل هو يقوم على رابطة حتمية هي رابطة ((السببية)) وهذه الرابطة لا تتوقف على زمان معين أو مكان معين لأنها تترجم عن حقيقة منطقية مستمدة من طبيعة الظاهرة^{١٤} وهذا ما يفسر تطور أمكانية الدول المحتضة للعلم في الدفاع عن نفسها لأنها تولكب الاستكشافات العلمية وتأثيراتها وبذلك تكون على استعداد دائم لما قد يلجأ إليه الآخرون ممن أمثلوا هذه الاستكشافات.

عالمية القوانين العلمية :

القوانين العالمية نوعين، الأول مايشمل القوانين الطبيعية الرياضيات، الفيزياء، الكيمياء، الأحياء، الجاذبية، الأشعاعات،... الخ، وهي قوانين كاملة الأنطباق بمعنى أنها لا تتحمل الاستثناءات وهي قوانين الدرجة الأولى أوجدوا الله سبحانه وتعالى ، وما على العقل البشري إلا الاجتهاد في اكتشاف ما يمكنه اكتشافه منها وتغييرها لخدمة الإنسان والمجتمع

^{١٣} د. ليبي شفيق - تاريخ الفكر الاقتصادي - دار نهضة مصر للطبع والنشر - بدون تاريخ ص ٢١ .

^{١٤} المصدر نفسه ص ٢٢ .

والإنسانية، والفرق لا يكمن في قوانينها بل في الجهد الإنساني لمعرفتها وتوظيفها الذي يربط ميزة تفوقية للجماعة أخرى، إما النوع الثاني من القوانين هي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحكم في مجالات العلاقات الإنسانية والدولية، وهي احتمالية بمعنى أنها تحتمل الاستثناءات، فهي قوانين من الدرجة الثانية، تلعب البيئة الجغرافية والمبادئ الأساسية للشعوب دوراً مهماً فيها، والفرق في المبادئ الأساسية للشعوب لا يرتقي إلى العوامل التي تمنع احتضان قوانين التطور العلمي فباستطاعة الشعوب أن تحتضن قوانين التطور العلمي التكنولوجي بعيداً عن الوقوع بمأزق ((الصوت والصدى)) المتمثل بالتقليد الكامل عند بناء النظم والتشكيلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأمنية تحت وهم الحصول على نفس النتائج. وعلى سبيل المثال من دراسة التطور الاقتصادي لدول غرب أوروبا نرى ان هذا التطور قد سار وفقاً لنمط معين بحيث اتخذ مراحل متعددة، رتب كل منها على المرحلة السابقة لها التي تركت بصماتها على المرحلة التي تلتها^{١٥}، بيد أن هذه المراحل لن يمر بها التطور الاقتصادي لشعوب آسيا وأفريقيا، ونستخلص من هذا أن القوانين التي حكمت التطور الاقتصادي لغرب أوروبا ليست حتمية الأنطباق فيما يتعلق بالتطور الاقتصادي لشعوب أخرى، بيد أن قوانين التطور العلمي للتكنولوجي سنجدها تلعب دوراً مهماً في أي تطور اقتصادي في جميع أنحاء العالم، فتعبيرات العلم بالمكننة الزراعية ومعالجة آفاتنا أخرجت قانون تطور الإنتاج الزراعي عند توافر المستلزمات الأخرى لدى جميع شعوب ودول العالم.

القوانين العلمية والتطور:

أهم ميزة تطويرية على الصعيد الاجتماعي يوفرها العلم كقاعدة للانطلاق هي محاصرته للتأخر بين الآراء والذهنيات، فالعلم يوفر حقيقة واحدة يقبلها الجميع وأن اختلفت ميولهم، وهو القوة الرئيسية لمحرك المشترك العلم داخل المجتمع. أما على صعيد الدول التي أنقل إليها التطور العلمي التكنولوجي التي كانت غير مؤثرة في البيئة الإقليمية والدولية ولاتملك المقدرة عن الدفاع عن نفسها، نجدنا الآن امتلكت

^{١٥} د. اسماعيل محمد هشام - مذكرات في التطور الاقتصادي - دار الجامعة المصرية - ١٩٧٤ ص ٩.

التأثير والقدرة في الدفاع عن نفسها كإلند وباكستان وكوريا الشمالية على صعيد التكنولوجيا النووية، وهونك كونغ واليابان وكوريا الجنوبية وألمانيا على صعيد التكنولوجيا العلمية الاقتصادية والصناعية بعد أن رتب العلم لها مساحة أكبر من الحرية في توظيف مواردها الطبيعية والبشرية.

والتطور يظهر مظهرين في طبيعة الدول:

المظهر الأول : تغيير تطوري Development Change

ونعني بهذا التغيير إحلال نفوذ وأحكام أساليب جديدة في الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية وينتج عن عملية التحلل والأحلال هذه تطور مهم يصب في مجمله في مظاهر، يمكنها من التفاعل مع الدول المتطورة مثلها والأرقى منها نسبياً وفق مبادئ المصالح المشتركة، ويمكنها من الخروج من الآثار السلبية لأشكاله 'وجود حاجات إنسانية متعددة للمجتمع وموارد محدودة لأشباع تلك الحاجات مما يجعلها رهينة الاعتمادية على الغير' أو وجود موارد استراتيجية فائضة عن الحاجة المحلية للمجتمع، وتحتاج لها المجتمعات الأخرى مما يجعلها موضع طمع وأستقطاب الآخرين.

والتغيير التطوري هذا حتماً يتناسب مع الموارد الطبيعية والبشرية وفاعلية النظام الديمقراطي في الدول .

المظهر الثاني: تغيير أنكاسي Retrogressive change

ونعني بهذا التغيير هو تدهور مستويات الأداء والفاعلية في الواجبات السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية والأمنية، بسبب غياب المقدرة على اللحاق بالتطور والتفوق لدى دول الجوار أو دول للعالم الأخرى، وينتج عن هذا التغيير تدهور معم يصب في مجمله في قصور الدولة في الدفاع عن مصالحها في علاقاتها الدولية، ويجعلها عرضة للتدخلات الإقليمية والدولية. ويمكن أيضاً اعتبار الحالة أنكاسية على الدولة عندما تبقى مستويات الأنشطة في كافة المجالات على حالتها في مقابل حدوث تغيير تطوري نوعي في المجالات نفسها لدى الدول الأخرى وخاصة المجاورة.

والحالة الانتكاسية تتحسب على الدولة سلباً في هذا الوقت لكثرة من الفترات السابقة بعد أن أصبح النظام الاقتصادي العالمي المتخطي للقوميات حيث أصبحت فيه الدول عاجزة عن الخروج من تأثيرات ترابط وتشابك المصالح^{١٦} وبذلك تكون الغاية من احتضان القوة العلمية:

١- تدعيم الاستقلال السياسي.

٢- تدعيم البناء الاجتماعي.

٣- تدعيم الاقتصاد الوطني.

٤- حماية الأمن القومي.

التطور العلمي والحرية:

أساس للتطور العلمي هو الأبداع، والأبداع هو النزوع الى تجاوز المألوف وتنسيق المعارف وفق نمط جديد للآتيان بحلول جديدة للمشكلات المطروحة، فالمبدع صاحب تحليل دقيق وتفكير خلاق يولد الحقائق من رحم ركام معرفي بجهد علمي يكسر الأطار المعهود والأجتهادات السابقة وفق أسس قابلة للتحقيق، والمبدع يمتاز على جمع المعلومات وصهرها عقلياً وأخراجها في حالة جديدة تخدم عمليات التطور الاقتصادي والتقني والاجتماعي وأي حقول أخرى، ولكن لايمكن الحديث عن الأبداع العلمي والمبدعين في مناخ متوتر غير مستقر تغيب فيه الحرية وينعدم فيه الأمن النفسي والجماعي، فحينما حكمت القوه وحذفت الأصوات الحرة تراجع الأبداع وتراجع معه التطور العلمي، وتوقفت الحالات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية على حالها^{١٧}.

انعكاسات التطور العلمي والتكنولوجي في العلاقات الدولية :

التطور العلمي لحبة القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين أفرز المرحلة الأولى للثورة الصناعة، التي انعكست على واقع العلاقات الدولية لمظاهر (الاستعمار-

^{١٥} د. فؤاد مرسى - الرأسمالية تجدد نفسها - عالم المعرفة - العدد ١٤٧ - الكويت - ١٩٩٠ ص ١٥٠ .

^{١٧} سلطان بلخيت - تطور الجامعات العربية في دعم ثقافة البحث العلمي الأبداعى - شؤون عربية - العدد ١٢٧ لسنة ٢٠٠٦ ص ١٣٤ .

الأحتلال - السيطرة والهيمنة) بأساليب (الحروب - التحالفات العسكرية - المعاهدات الأمنية - أقتسام مناطق النفوذ - حروب النيابة) وبأدوات تشكل القوة العسكرية معظمها. أما انعكاسات الثورة التكنولوجية الحالية وتفاعلاتها في البيئة الدولية فأخذت مظاهر وأدوات مختلفة، ولكنها تتقارب أكثر في جوهر الأهداف، ومن أهم هذه الانعكاسات:

١. الرأسمالية طورت نفسها: ركزت الرأسمالية العالمية على المجالات البحثية العالمية وخلفت نظم وتشكيلات مطابقة لها، وقد أثبت هذا التطابق قدرة ملحوظة على التكيف والتجديد رتب تفوقاً ملحوظاً في القوى العلمية والقوى الاقتصادية على الطرف الشيوعي المواجه للرأسمالية، وكانت نتائج هذا التفوق تفكك المعسكر الشيوعي^{١٨} وتوجه معظم الدول التي وجدت بعض تفككه نحو النظام الاقتصادي الحر.
٢. تصحيحاً لمسار التقسيم الدولي للعمل والتجارة والنظام المالي وفي دورة اقتصادية جديدة بحيث لم يعد شئ في العلاقات الدولية بمنأى عن متناول الثورة العلمية التكنولوجية رتبة ذلك المظاهر:

المظهر الأول: تراكم الإنتاج مع تراكم المعلومات وأحتكار الحلقات العلمية التكنولوجية الأكثر تطوراً وتأثيراً لدى للرأسماليات الكبرى ضاعف من قدراتها في مجال التأثير على الدول (المختلفة في هذا المجال).

المظهر الثاني: ثورة في الاستهلاك وتخلف في أحتضان واستيعاب التطور العلمي التكنولوجي في الدول الضعيفة الأمر الذي أدى إلى أنكشاف المساحات الجغرافية لهذه الدول أمام زحف قوى الإنتاج للرسميل والتجارة^{١٩} والمال كجيش علمية اقتصادية من أجل الهيمنة على ثروات وموارد وعمالة الدولة (المختلفة في هذا المجال).

^{١٨} برنامج حرب النجوم الذي تبنته الولايات المتحدة الأمريكية أثبتت تفوقاً علمياً تكنولوجيا واضحاً تجاه الإتحاد السوفيتي السابق في مجالات سباق التسلح ، وكان من الأسباب المهمة في نهاية الإتحاد السوفيتي ونهاية العلاقات الدوائية في ظل نظام اللطيين الدولي ، لمزيد من المعلومات أنظر ميخائيل غورباتشوف .

^{١٩} أنظر د. سالم توفيق النجفي - حول مسألة الرأسمالية - رؤية للقرن الحادي والعشرين - بيت الحكمة - بغداد ١٩٩٩ - ص ٧٥ .

المظهر الثالث: زحف الرأسماليات الكبرى نحو الشرق الأوربي بفضل انهيار النظم السياسية الشمولية ونحو آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، طارحة معها مفاهيم العولمة المستندة على تفوقها العلمي والتكنولوجي والاقتصادي وحتى الدول القليلة التي استطاعت أن تحافظ على نظمها الشمولية قد لجأت الى تكييف نفسها مع هذه التفاعلات لإحداث إصلاحات وتعديلات في تشكيلاتها العلمية والاقتصادية والسياسية وخير مثال في ذلك الصين حيث إعتمدت تشجيع الاقتصاد الفردي، وربطت الاقتصاد الاشتراكي مع نظام السوق بعد إدخال أساليب الإدارة الاقتصادية الحديثة المتقدمة²⁰.

٣. مخاطر البيئة: إذا كان النشاط البيئي التقليدي للإنسان قد ألحق بالضرورة ضرراً بعدد من البيئات الطبيعية مثل الماء والتربة والهواء، فإن الثورة العلمية التكنولوجية المعاصرة قد عجلت بنمو القوة الإنتاجية إلى أقصى الحدود باستغلال العمل واستنزاف الطبيعة بحكم المنافسه والجري السريع وراء الربح وإن الاستخدام غير الرشيد للثورة التكنولوجية يؤدي الى تراكم وتزايد النفايات الضارة، ولم تعد الطبيعة قادرة بعد الآن على استيعاب هذه النفايات وكثير منها مام بالنسبة للطبيعة والإنسان أيضاً ومن أبرز مظاهر ذلك:

- تحول ٦ ملايين هكتار كل سنة من الأراضي الجافة المنتجة إلى صحاري ظاهرة التصحر لاقية لها.
- تدمير أكثر من أحد عشر مليون هكتار من الغابات سنوياً.
- محروقات الوقود المختلفة تؤدي إلى نشر ثاني أوكسيد الكاربون الذي يسبب في الزيادة التدريجية للحرارة في العالم بصورة عامة بما يكفي لإلغاء العديد من المناطق الزراعية، ورفع مستويات البحار وغرق المدن الساحلية وتهديد غلاف الأوزون الذي يحمي القشرة الأرضية بفعل التصاعد الكثيف للغازات الصناعية.

²⁰ أنظر د. عدنان منقي - اشتراكية السوق - النموذج الصيني - المؤلف العربي - بغداد - العدد ٢٩ لسنة ٢٠٠٠ - ص ١٠.

- الإخلال بدورة الغذاء في المحيطات وللإنسان نفسه بما يعرضه إلى أمراض جديدة أكثر فتكاً ، كذلك الانتشار الملحوظ لأمراض السرطان^{٢١}.
- مخاطر الجسيمة لما يسمى بمخاطر الاستخدامات السلمية والحربية للطاقة الذرية فإن تشييد مصنع ذري يستغرق حوالي ١٠ عشرة سنوات، أما فترة عمله فلا تزيد على ٤٠ سنة، غير إن النفايات الذرية التي سوف ينتجها تفضل تشع عدة ألوف من السنين وتخلق مشكلة بيئية بالنسبة لآلاف الأجيال المقبلة، وسوف تتأثر ظروف الحياة بإحتمالات الموت الذري البطيء للنفايات والمزارع والحيوانات والإنسان.

عملية نقل الأضرار:

- الدول ذات النظم والتشكيلات العلمية والتكنولوجية المنضبطة التنظيم ومعظمها في الدول الرأسمالية الصناعية الكبرى، تستطيع أن تنقل، بل ونقلت الأضرار والنفايات إلى أطراف أخرى بعيدة عن بيئتها، وتحاول في الوقت نفسه حماية بيئتها الداخلية عن طريق:
١. إدخال تدابير عملية وعلمية في الإنتاج.
 ٢. إدخال الطبيعة في إطار اقتصاد السوق، أي جعل الطبيعة ملكية خاصة ترتب تكلفة صيانتها على أرباب العمل^{٢٢} ومتابعة أعمالهم وإجبارهم على إدخال التحسينات المناسبة للبيئة في الإنتاج والخزن والنقل، عن طريق نظمها وتشكيلاتها الفاعلة.
- السؤال المهم هنا :** أين الدول المتخلفة من كل هذا؟ وماذا ستفعل في حال تعرض بيئتها الداخلية للمخاطر جراء الاستثمارات الأجنبية أو انتقال هذه المخاطر إليها، وإن أتركت هذه المخاطر فإنها لا تملك التدابير والإجراءات لدرءها، وستكون المحاولات الخارجية لمساعدتها سواء طلبتها أو فرضت عليها مدخلاً للتدخل في الشؤون الداخلية من قبل الدول الأكثر تفوقاً على الصعيد الإقليمي والدولي، وسيقوض أكثر استقلالها السياسي وتكون عاملاً آخر مضافاً

²¹ تقرير البيئة للدولاة للتنمية - عالم المعرفة - العدد ١٤٢ - ص ٢٧ .

²² د. فؤاد مرسي - مصدر سبق ذكره - ص ٧٨ .

لعامل عجزها العلمي والتكنولوجي في تصعيد حدة الصراعات بين الدول القوية للهيمنة عليها، في عالم أصبح صغيراً جداً ومتداخلاً.

٣. عملية غزو الفضاء أعلن المعلنون والمسؤولون في برامج غزو الفضاء ومنهم وكالة ناسا الأمريكية بأن العام ميسهد للفترة من ٢٠١٠ - ٢٠٢٠ البدء برحلات فضائية الى سطح القمر والمريخ من أجل إنشاء مستعمرات بشرية هناك، وبالتأكيد سيكون البحث عن مواد أولية إستراتيجية بديلة لتلك المعرضة للنفاذ في الأرض الأمر الذي سيرتب مكانة ووضعا متميزاً.

المبحث الثالث

القوة العلمية والأمن القومي

أثرت القوة العلمية في شكل ونطاق الأمن القومي، فما عادت الدول القوية المتقدمة ترصد وترقب حدودها وأجوائها فحسب، بل أمتلكت القدرة على المعرفة لما يحدث في فضاءات وأراضي الآخرين ورصد ما يجري في البحار والمحيطات والنخب لكل ذلك ولهذا اتسعت ظاهرة الإجراءات الأحترازية والضربات الأجهاضية لديها.

وأصبح العالم يرتب نفسه على أساس حقائق القوة بمضامينها العسكرية والاقتصادية والعلمية وليس وفقاً لمقتضيات أخلاقية أو قانونية لذلك تدخل القوة العلمية في ترتيب أشكال القدرة أو العجز، فعندما تكون الدولة عاجزة لضعفها تكون مدعوه فقط لحقوقها، وعندما تكون مقنطرة لقوتها تكون مؤكدة وساعية لهذه الحقوق دون الحاجة الى طلب مساعدة الآخرين وتقديم التنازلات لهم، فالقوة العلمية أفرزت سياسات لاتراعي أمن الضعفاء، حيث أصبح الضعف عامل تصعيد لتأثير المتغير الدولي على الدولة الضعيفة، كذلك أفرزت سياسات التهريب والترغيب بين الدول القوية والضعيفة، وأفرزت أيضاً سياسات الاعتمادية الأمنية بينهما^{٢٢}.

^{٢٢} لمزيد من المعلومات انظر د. خضير عبد صطوان - وضع العرب في النظام الدولي - شؤون عربية - القاهرة - العدد ١٢٧ لسنة ٢٠٠٦ من ٢٢٦ كذلك بحثة - العرب والتولات الدولية - مجلة شؤون عربية القاهرة - العدد ١٢٠ لسنة ٢٠٠٤ من ١٠٥ - ١٠٦.

وإن التحليل عن دور القوة في علاقات الدول ببعضها، يجب أن لايفصل هذا الدور عن طبيعة تلك العلاقات، فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وحتى منتصف للقرن العشرين، كانت عبارات الاستيلاء على أراضي الغير بالقوة، أو عبارة تغيير نظام الحكم بالقوة، أو التدخل الأجنبي بالقوة، أو باستخدام القوات المسلحة تعطي معنى واحداً، فكان مفهوم القوة مرادف لمفهوم العنف واستخدام القوات المسلحة والاستعداد العسكري، وبعد منتصف القرن العشرين أخذ مفهوم القوة شكلاً أكثر اتساعاً تحت تعريف مؤاده "أنها المقدرة على التأثير في سلوك الدول الأخرى وبالكيفية التي تخدم أهداف الدول الممتلكة لها" وبدون ذلك فقد تكون الدولة كبيرة أو غنية أو عظيمة ولكنها ليست قوية"²⁴ وقد اتفق الخبراء في العلاقات الدولية على ترتيب لعناصر قوة الدولة كالآتي:

- ١- العوامل الجغرافية.
- ٢- الإمكانات والموارد المادية والطبيعية.
- ٣- السكان.
- ٤- مستوى النمو الاقتصادي والصناعي.
- ٥- درجة التطور التقني والتكنولوجي.
- ٦- الاستعداد العسكري.
- ٧- كفاءة المؤسسات السياسية والدعائية²⁵.

وبفضل الثورة العلمية وخلال العقود الثلاثة المنصرمة ظهر واقع العلاقات الدولية ترتيباً جديداً لعناصر قوة الدولة، ليجعل العلم العنصر الأول في هذا الترتيب بعد أن أصبح قوة بحد ذاته ويكون النشاط الاقتصادي المترابط مع الثورة العلمية التكنولوجية العنصر الثاني وحتى الاستعداد العسكري تراجع بأستثناء الحلقات العالية المستوى التقني والعلمي وذات الكفاءة والمقدرة، وأنعكس هذا الترتيب الجديد على الوسائل والأدوات التي تلجأ إليها (الدول القوية) في سياسات الربح والضغط والتأثير والهيمنة وبذلك أفرزت للتفاعلات الدولية الجديدة مفاهيم أمنية جديدة وتحديات جديدة، مثل التطور العلمي-الأمن العلمي. الاحتياط للنطسي-

²⁴ د. اسماعيل صبري مفاد - مصدر سبق ذكره - ص ٨٥ .

²⁵ روبرت جالين - الحرب والتغيير في السياسة الدولية - بغداد - ١٩٩٠ - ص ٥٦ .

الأمن النفطي . تطور الخبرة العلمية-أمن المعلومات وأمن العلماء. البيئة-الأمن البيئي.
القدرة النووية-الأمن النووي... الخ.

التحديات التي أفرزتها الثورة العلمية التكنولوجية على أمن الدول (الضعيفة):

الدولة الضعيفة (المتخلفة) هي تلك الدولة التي لا تملك القدرة الذاتية على الدفاع عن كيانها، الأمر الذي يدفع بها إلى البحث عن الحماية الخارجية والقبول بنتائجها فكيف الحال بها وقد أضافت الثورة التكنولوجية أعباء وتحديات كبيرة عليها، الأمر الذي سيرتب استقطاباً أكبر للتدخل في شؤونها والمنافسة على ثرواتها جراء بحثها باتجاهات متعددة عن المساعدة لتدعيم قدراتها لمواجهة هذه التحديات الجديدة سيما وأن امتلاك للحلقات الرئيسية للثورة التكنولوجية أصبح حكراً لدى مجموعة من الدول تتوزع في آسيا وأوروبا وأمريكا، فكيف سيكون أمن الدولة الضعيفة وهي تملك أكثر من ٦٠% من احتياجات الولايات المتحدة الأمريكية و٩٠% لاحتياجات أوروبا و٨٠% لاحتياجات أوروبا للطاقة ، و٩٩% من الألمنيوم و٨٩% للصفيح و٦٥% للنفاس و٩٥% للمنغنيز و٩٣% البن و١٠٠% للسكر ومع ٣٠% لما يحتاجه الأقوياء من الطعام^{٢٦} وموارد أخرى تحتاجها الدول القوية.

التحديات:

١- تحدي الاختراق: لم تعد الحواجز الطبيعية والمعدات التقليدية قادرة على منع وصول الصواريخ والمقنوفات الأخرى العابرة للقارات لتتمير الأهداف النقنوية. ولا المياه الإقليمية تكون أمنه بمجرد حمايتها بالسفن والزوارق الحربية كما كانت عليه، فالتطور النوعي وفر للدول القوية إمكانية إختراقها والوصول إلى سواحلها وموانئها وتدمير أي هدف منتخب من مسافات بعيدة لاستطيع الدول الضعيفة بإمكانياتها التقليدية من التأثير عليها وهكذا الحال بالنسبة لجميع المنشآت الحيوية الأخرى داخل أراضيها.

٢- التحدي الإعلامي: أنعكست آثار الثورة العلمية التكنولوجية في زيادة أهمية الإعلام الخارجي الذي أضطلع بالتأثير أكثر على الدول وسياساتها، فإن ثورة المعلومات والتطور

²⁶ جوان باون وبهر مونني - من الحرب الباردة حتى الولاقي - دار الشرقي للنشر والتوزيع - ترجمة صادق أبو عودة - صان ١٩٨٣ - ص ٢٣٩ .

النوعي لأجهزة الإعلام المرئي والسمعي والمكتوب أضحي قوة تأثيرية لا يستهان بها بيد الدول القوية ضد مدركات وذهنيات شعوب الدول الضعيفة، والتسميم الإعلامي للموجه ضد أي شعب أو مجموعة يستطيع إلحاق الضرر في مكوناته الفكرية والثقافية وبالذات إذا توفرت فيه ثغرات أمنية مثل التنافر العرقي والمذهبي واختلاف في الآراء في الأزمات الاقتصادية والسياسية وغالباً ما يهدف هذا التكتيف الإعلامي من الدول القوية تجاه الدول للضيقة للسي الحصول على منافع إضافية تتعلق بالثروة الطبيعية وأي باحث يقوم بتحليل ودراسة مراحل التطور النوعي للإعلام الخارجي للدول القوية سيد أن هذا التطور مصحوباً بتطور واتساع حجم الأزمات الاقتصادية والسياسية والعرقية والمذهبية في الدول الضعيفة التي تشكل اهتماماً بالغاً في السياسة الخارجية للدول القوية.

٣- تحدي الإرهاب المنظم: إن اتساع نطاق الجريمة المنظمة، ثم اتساع ظاهرة الإرهاب جاء متزامناً مع الثورة العلمية والتكنولوجية، فقد هأت هذه الثورة مستلزمات وأدوات متطورة نوعياً في الاتصالات والمواصلات والقتل تسربت إلى مجاميع إرهابية ربيت لهم موقفاً متميزاً ومتقوفاً أكثر وضوحاً في مساحات الدول المتخلفة وهناك اليوم أكثر من (٤٣٧) منظمة تمارس نشاطها الإرهابي في أكثر من (١٢٠)^{٢٧} دولة أغلبها من الدول للضعيفة التي ستضطر إلى تبديل خياراتها وأولياتها وإلى الإنشغال في مكافحة هذه الظاهرة بعد الاستعانة بالدول القوية التي تملك الوسائل العلمية والكفاءة والتقنية الحديثة وسيؤدي ذلك إلى الكثير من التدخل لأغراض الهيمنة من الدول القوية تجاه الدول للضعيفة^{٢٨}.

٤- التحدي المؤلماتي: اليد الخفية العابثة باستقلال الدول للضعيفة لم تعد خفية بعد الثورة العلمية والتكنولوجية. فإن نتائج تدخل الأجهزة المخبرانية ظهرت للعيان، وأصبح التسلسل والتوغل بشكل أسرع وأعمق في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبأدوات تسبح في البحار وتسير على الأرض وتعلو في الفضاء، تدخل البيوت وللقصور والمجالس والمنشآت، لتحكم قبضتها على أبرز السياسيين وأصحاب القرار لتحصل على المزيد من

^{٢٧} د. ضاري رشيد ياسين - الإرهاب الدولي - الأسباب والدوافع - جامعة بغداد - قسم الدراسات الأمريكية - بحث مقدم لسنة ٢٠٠٥ - ص ١.

^{٢٨} أنظر - منذر سليمان - دولة الأمن القومي وصناعة القرار الأمريكي - المستقبل العربي - العدد ٣٢٥ - مارس ٢٠٠٦ ص ٣٤ - ص ٣٥.

المكتسبات وخاصة تلك المتعلقة بالثروات الطبيعية في الدول الضعيفة ، وبذلك أضافت الثورة العلمية والتكنولوجية (طفرة) في القدرات الاستبحارية للدول القوية ظهر ذلك في صراعاتها الحميمية للاستحواذ على مظاهر الهيمنة في أكثر الدول الضعيفة أهمية وبالذات بعد تقارب العد العكسي لنفاذ أكثر المواد الأولية حاجة واستهلاكاً كالنفط والمعادن.

٥- التحدي النووي: إتجهت دول عديدة نحو تطوير الطاقة النووية في محاولة لتقليل اعتمادها المستقبلي على النفط وقد شجع هذا الاتجاه الأوضاع المتقلبة في السوق النفطية الدولية، وقرب نفاذ هذه السلعة الاستراتيجية.

استطاعت الدول القوية تطوير بنية تحتية للشروع لتطوير مايلي:

• القوة النووية العسكرية.

• مشاريع الطاقة لأغراض سليمة (بدائل النفط).

وفي الحالتين لعبت التكنولوجيا العلمية الدور الأول ورتب هذا قوة لوجودها في البيئة الدولية تدعياً لأمنها القومي مما أعطاهما وصفاً مميزاً في الوضع الإقليمي والدولي والعلاقات الدولية وأيضاً خلق هاجساً أمنياً للدول الأخرى مما دفعها إلى الشروع بامتلاك هذه التكنولوجيا العلمية بغية امتلاك القدرة النووية لإحداث توازن إقليمي ودولي لها. بيد أن أبعاد الدول القوية في إحتكار هذه التكنولوجيا وإحباط محاولات الدول الأخرى جسد وضعا في العلاقات الدولية قائماً على:

أ. خضوع أكبر للدول الضعيفة تجاه الدول القوية طلباً للحماية.

ب. صراعاً خطيراً بين الدول القوية والدول التي تجتهد في امتلاك التقنية النووية في خارج أعضاء النادي النووي.

ج. دخول الدول الغنية الضعيفة في حلقات استنزاف قدرتها الاقتصادية لمراحل الأعداد والأنتاج والسلامة والمراقبة والحماية البيئية وعززها المستمر لامتلاك المقنونات الجوية والأرضية والبحرية، وفي النهاية ستكون عاجزة عن اللاحق بالدول الأكثر تطوراً في هذا المجال ناهيك عن عدم استطاعتها

تحقيق مكاسب الضربة الأولى لغياب المقدرة على نشر صواريخها النووية
حول أهم الأماكن في العالم.

٦- التحدي الاقتصادي: إن الانحياز إلى توظيف القوة العلمية التكنولوجية في المضممار العسكري بدرجة إلى أكبر من المضممار الاقتصادي يرتب أخلال في النظام السياسي العام، وتجربة أنهيار الاتحاد السوفيتي السابق والوضع الاقتصادي الحالي في كوريا الشمالية وباكستان والهند خير دليل على ذلك²⁹ فاللتقاء بين المستوى التكنولوجي المستخدم في إنتاج السلع والخدمات الاستهلاكية المدنية برفع للمستهلكين في العالم للاتجاه صوب السلع العالية الكفاءة والقدرة التكنولوجية الأمر الذي يحقق أنتعاشاً متصاعداً لأقتصاديات الدول القوية وتصدعاً مستمراً لأقتصاديات الدول الضعيفة إلى الحد الذي يصبح به أسيرة لهذا التفوق الاقتصادي وفائدة الأمن الاقتصادي.

²⁹ لمزيد من المعلومات - أنظر ميخائيل غرويكاشوف - البيروستروكا - ترجمة د. عيسى خلف - شركة المعرفة - بغداد - ١٩٩٠ ص ١٤٧ - ص ١٤٨ .

الخاتمة:

تفقد الدول الغنية (الضعيفة) عناصر القوة في خيرات معطيات جغرافيتها الوطنية من الثروات الطبيعية والمواد الأولية وسلامة البيئة، أن عجزت عن خلق نظم وتشكيلات سياسية واقتصادية واجتماعية تواكب التطور العلمي للتكنولوجيا الحديث، وتصبح أكثر أسيرة للتفوق الإقليمي والدولي في هذا المجال، وتكون مسرحاً للصراعات الدولية بحكم استقطاب التنافس المصلحي الدولي على أراضيها، وقد تتباين حدود وأحجام هذه الصراعات حسب الأهمية الجيوبولوتيكية والجيوستراتيجية للدول (المتخلفة) ويمكننا أن نقول هنا أن مفهوم الضعف والتخلف بفعل التطور العلمي والتكنولوجيا وخاصة في مجالات القدرة لحماية الأمن القومي أصبح أكثر تقارباً في توصيف الدول في هذا السياق. بعد أن رتبت القوة العلمية عوامل تصدع وأخترق للمفاهيم التقليدية للأستقلال والسيادة والأمن، عوامل خارقة في التأثير، وصلت في تأثيراتها الى الحدود الداخلية للمجتمعات لتترك المقومات الأخلاقية والقانونية وحتى الحريات الطبيعية والمكتسبة للأفراد والجماعات، وماعاد أمام المجتمعات إلا إعطاء قيادته للعقل والعلم والتسريع في أستيعاب مضامينها وتعبيراتها في نظم وتشكيلات فاعلة ومتطورة لتدعيم الأمن الاقتصادي والسياسي والاجتماعي وحتى الموسيولوجي للفرد والجماعة، وبمكن ذلك مستحول الشعوب الضعيفة الى حضيرة الأستعباد المعصري القائم على التوصيفة القديمة التي عرفت العبد بأنه الإنسان الذي ينتمي الى سيد ما يتسلم منه أوامره وليس له الحق للتصرف في ممتلكاته وشخصه، وهو محروم من حقوقه السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تعزيز الوحدة الوطنية العراقية بين الفيدرالية والمركزية وتعديل الدستور

الدكتور

عامر حسن فياض^(١)

المقدمة:

تتحدد ماهية الفيدرالية بدلالة كونها شكل من أشكال السلطة السياسية يقوم على اساس توزيع وظائف السلطة دون تركيزها او تركزها بيد فرد او اقلية حيث ان السياسة هي " فن ادارة الشأن العام" ومن يدير هذا الشأن العام يتمثل بـ (هيئة) وهذه الهيئة تقوم على:-

- اصل ومصدر شرعية سلطة هذه الهيئة سواء كان اصل ومصدر شرعية ارادي انساني (الشعب مصدر السلطة مثلاً) او غير ارادي غير انساني (الله مصدر السلطة مثلاً).
- شكل سلطة هذه الهيئة يتراوح ما بين شكل ونظام مركزي او لامركزي (ملكي - جمهوري - برلماني رئاسي الخ).
- وظيفة سلطة هذه الهيئة: سواء كانت لهذه الهيئة وظيفة تدخلية واسعة (اشتراكية الوظيفة) او وظيفة محددة ضيقة (وظيفة ليبرالية) او مختلطة.
- آلية تداول أو تعاقب السلطة سواء كانت آلية تعتمد الوسائل السلمية (انتخاب - استفتاء - تعيين دستوري) او تعتمد الوسائل غير السلمية لتداول السلطة وتعاقبها (ثورة - انقلاب - عصيان - اغتيال... الخ).

وبقدر تعلق الامر بما هي الفيدرالية فان امرها يتصل بشكل سلطة الهيئة التي تدير الشأن العام أي السلطة السياسية. وللأخيرة أشكال متعددة تتراوح بين السلطة ذات الشكل المركزي (سلطة للدولة الموحدة البسيطة) والسلطة ذات الشكل اللامركزي (سلطة الدولة

^(١)عيد كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد.

الفيدرالية وسلطة الدولة الكونفدرالية). وهنا فإن الفيدرالية هي شكل من أشكال السلطة اللامركزية.

وبعد ذلك بالإمكان تحديد ماهية الفيدرالية بدلالة المفهوم المقارب لها والمتميز عنها الا وهو مفهوم الدولة الكونفدرالية. فإذا كانت الكونفدرالية تمثل شكل سلطة دولة لامركزية واسعة فإن الفيدرالية تتمثل أيضاً بشكل سلطة دولة لامركزية ولكنها لامركزية نسبية. ففي الفيدرالية هناك علم واحد للدولة الفيدرالية وجيش واحد وتمثيل خارجي واحد وبرلمان فيدرالي واحد مع برلمانات للأقاليم وشرطة فيدرالية واحدة مع مؤسسات شرطة ممثلة للأقاليم وخزينة فيدرالية واحدة مع وجود خزائن محلية للأقاليم. بينما للكونفدرالية تعبر عن اتحاد وحدات سياسية مستقلة (دول) لكل وحدة علم خاص وجيش خاص وتمثيل خارجي خاص وشرطة خاصة بها غير أن هناك شكل من أشكال التسيق بين دول الاتحاد الكونفدرالي.

إن أهمية الفيدرالية ودواعيها تنأتى، من حيث المبدأ، من ضرورة الانتقال من مجتمع الوحدة السياسية (الدولة) المتنوع اللاتجانس قومياً ودينياً إلى مجتمع تنوع متجانس ضمن إطار وشكل من أشكال الوحدة السياسية التي تسمى بشكل الدولة الفيدرالية. والجدير بالذكر أن ١٢ دولة فقط من ٢٠٠ دولة في عالمنا المعاصر تعيش حالة تجانس ولا تعاني من مشكلة القوميات و الأقليات. بمعنى أن أكثر من ١٨٠ دولة في العالم تعيش حالة اللاتجانس القسومي والديني ولكن ذلك لايعني أن هذه الدول تحتاج جميعاً إلى فيدرالية بدليل أنها تدار بانظمة سياسية تأخذ شكل انظمة سياسية مركزية الشكل ضمن دول بسيطة.

وتتكون النظم الفيدرالية بطريقتين:

الاولى:- طريقة اتحاد دولتين أو أكثر وفي هذه الحالة فإن الدول التي كانت مستقلة وتدخل الاتحاد الفيدرالي تفقد شخصيتها القانونية الدولية المستقلة.

الثانية:- طريقة تفكك دولة مركزية موحدة واعادة الاتحاد بين بعض أو بين جميع اقاليم هذه الدولة ليصبح هذا الاتحاد بشكل دولة فيدرالية بعد أن كانت دولة مركزية موحدة.

ان المعايير التي تقوم عليها النظم الفيدرالية المعروفة و المألوفة في عالمنا المعاصر (كما هو الحال في الولايات المتحدة الامريكية- المانيا - سويسرا- البرازيل- الهند وغيرها) تقوم على اساس جغرافي (ولايات -اقاليم - محافظات-... الخ) وليس على اساس قومي عنصري ولا على اساس ديني طائفي. ويقترب تعلق الامر بالعراق فان المطروح اليوم فيما يخص المطالبة بالفيدرالية صيغ متعددة فالقوى السياسية للقومية الكردية تفضل صيغة الفيدرالية لكردستان و الديمقراطية لكل العراق فيما تفضل اطراف اخرى من القوى السياسية غير الكردية صيغة الحكم الذاتي اما اطراف ثالثة وهي الاضعف في الخارطة السياسية العراقية، فانها تفضل الفيدرالية لكل العراق. ومقابل جميع الاطراف آنفة الذكر هناك قوى عراقية اخرى تفضل المركزية.

ومن دون الخوض في تفاصيل هذه الصيغ والدوافع السياسية للرغوبة التي تكمن وراءها نقول من حيث المبدأ ان الفيدرالية لا خشية منها عندما تقوم على شرطين لا ثالث لهما:

الشرط الاول:- ان تقوم الفيدرالية على معايير جغرافية اقليمية وليس على اساس معايير قومية عنصرية ولا دينية ولا طائفية.

الشرط الثاني:- ان تكون ديمقراطية المشاركة وليس ديمقراطية الموافقة (ديمقراطية التأييد) هي اساس ممارسة السلطة الفيدرالية و سلطات الاقاليم المحلية.

واذا كانت ديمقراطية الموافقة تقوم فقط على اساس التأييد الشعبي للقرار السياسي السلطوي فان ديمقراطية المشاركة تقوم على اساس المشاركة الشعبية في صنع القرار السياسي.

ان شروط تحقق ديمقراطية المشاركة في العراق وفي غيره من بلدان العالم تتمثل بالإقرار والتجسيد العملي للحقائق والمبادئ الآتية:

١. اقرار حقيقة التنوع في المجتمع العراقي لا سيما للتنوع القومي و الديني.

٢. اقرار مبدأ حق الاختلاف بين التنوعات القومية و الدينية .

٣. اقرار حقيقة ان تعبر جميع هذه التتوعات القومية والدينية على السواء عن مصالحها ورغباتها ومطالبها وطموحاتها عن طريق تنظيمات عصرية تتمثل بمؤسسات المجتمع المدني (احزاب - نقابات - جمعيات - اتحادات...الخ) وليس عن طريق مؤسسات تقليدية (عشائرية او طائفية).

٤. اقرار مبدأ للتداول السلمي او التعاقب السلمي للسلطة على المستويات الفيدرالية والمحلية. وهذا التداول يقوم على استبعاد كل وسائل العنف في التعامل ما بين التتوعات في المجتمع العراقي والقوى السياسية العصرية لهذه التتوعات الامر الذي يتطلب اتفاق جميع القوى ومؤسساتها المدنية على الاساليب السلمية المتمثلة بالانتخابات والاستفتاءات والمباينة ضمن خطابات سياسية تؤمن بعلاقات الحوار وترفض علاقات الاقتتال والاحتراب.

ان فيدرالية تقوم على ما تقدم من شروط سوف لا تتعارض مع الوحدة الوطنية العراقية بقدر ما تخدم وتجسد هذه الوحدة فالدولة الفيدرالية التي يقوم جيشها على المحاصصة القومية والطائفية لا تخدم الوحدة الوطنية.

والدولة الفيدرالية التي يقوم برلمانها الفيدرالي على اساس المحاصصة القومية والطائفية لا تخدم الوحدة الوطنية.

والدولة الفيدرالية التي تقوم اجهزة امنها وشرطتها وبقية اجهزة السلطة التنفيذية الفيدرالية فيها (الوزارة الفيدرالية مثلاً) على اساس المحاصصة القومية والعنصرية والدينية للطائفية لا تخدم الوحدة الوطنية.

اذن الوحدة الوطنية لا تصان بالمركزية القسرية ولا بالفيدرالية القائمة على اساس قومي عنصري او ديني طائفي بل انها تصان بالديمقراطية الحقيقية (أي ديمقراطية المشاركة) وفي اطار فيدرالية لكل العراق.

ومن باب الحرص على الخصوصية القومية الكوردية وكذلك العربية المقترن بالانفهم العقلاني لدور الكورد وقواهم السياسية في تاريخ الحركة الوطنية الاستقلالية الديمقراطية العراقية منذ ثورة محمود الحفيد ١٩١٨ حتى دورهم في اسقاط النظام الدكتاتوري في نيسان

عام ٢٠٠٣. من باب هذا التعميم نرى ضرورة ان يتم الاقرار الدستوري أولاً ومن حيث المبدأ بالفيدرالية لكل العراق على اساس فيدرالية للمحافظات. وفي الوقت نفسه يكون هناك اقرار دستوري ايضاً بإمكانية إقامة علاقات تعاونية بين محافظتين او اكثر بصيغ التنسيق او التضامن وصولاً الى صيغة الاندماج. على ان تكون إقامة هذه الصيغ مشروطة بشرط ديمقراطي يتمثل بموافقة الاغلبية المطلقة (بواقع ١٥٠+) للمجالس للمجالس التمثيلية المنتخبة لهذه المحافظات.

عندها سيكون من الطبيعي ان يضمن الكورد بالديمقراطية وليس بغيرها كيانية كردية في كردستان العراق وهذه امكانية لم تتأتى وفق المعيار القومي بل سثنائي وفق المعيار الديمقراطي.

ومن هنا تأتي اهمية دعوتنا للجميع للانشغال اساساً بالديمقراطية وبالبناء الديمقراطي. وهذا الانشغال سيكون كفيلاً بحل كل الموضوعات الخلافية وعلى راسها موضوع الفيدرالية. وعليه فان القاسم المشترك لعدم الخشية من الفيدرالية من جهة وعدم الخوف على الوحدة الوطنية من جهة اخرى يتمثل بالديمقراطية و بالمزيد من الديمقراطية أي بديمقراطية المشاركة والمزيد من ديمقراطية المشاركة.

وان منطلق هذه الديمقراطية يتمثل بالمواطنة أولاً واخيراً اما القانون الذي يحكم هذه الديمقراطية فانه يتوجب ان يسود العراق الديمقراطي قانون يصنع بـ (رأي الاغلبية ورضا الاقلية) ففي كل المؤسسات التمثيلية الفيدرالية والمحلية في كل العراق شمالاً ووسطاً وجنوباً قد تكون الاغلبية كردية والاقلية عربية او تركمانية كما في بعض المحافظات الشمالية (السليمانية، اربيل، دهوك) وقد لا تكون الاغلبية مطلقة لقومية على اخرى كما في محافظة كركوك وقد تكون الاغلبية شيعية والاقلية سنية في محافظة لو اكثر من محافظات العراق الوسطى والجنوبية وقد تكون الاغلبية سنية والاقلية شيعية في محافظات عراقية اخرى وقد يكون فلا ضرر ولا ضرر ولا خوف من هذه الاغليات ولا من هذه الاقليات لان السيادة في العراق الفيدرالي ستكون فقط لديمقراطية مشاركة منطلقها (حق المواطنة أولاً واخيراً) وقانونها مصنوع بـ (رأي الأغلبية ورضا الأقلية).

ولما كانت الديمقراطية شرطاً لازماً لكل من الوحدة الوطنية والفيدالية فان هذا الشرط اللازم يفترض ان يكون السيد المهيم والحاضر المرمدي في الدستور. الامر الذي يقتضي بالنتيجة تعديل الدستور بما يضمن هيمنة وسيادة وحضور هذا الشرط أي شرط الديمقراطية. فلماذا وكيف السبيل الى تعديل الدستور؟

نحتاج هنا الى افكار تهدي الى رسم خارطة طريق للانتقال بالعراق الى المستقبل، بمعنى الانتقال بالعراق من واقع مجتمع سياسي (متنوع غير متجانس) الى واقع مجتمع سياسي (متنوع متجانس). وان فتح مغاليق مستقبل العراق يحتاج الى مفتاح مناسب وهذا المفتاح المناسب يتمثل، بانعقادنا، اساساً بالدستور الذي يعد بمثابة معطيات مهمة من معطيات ما بعد الانتخابات العراقية للجمعية الوطنية من جهة وما بعد الاستفتاء الدستوري من جهة ثانية.

وقبل ان نكتب عن ما بعدية الانتخابات والاستفتاء فقد اضحى من المعروف ان الانتخابات تمثل افضل الآليات التي عرفتها شعوب البلدان المتعدنة لتشكيل الدولة وبناء السلطة السياسية وتوليها وممارستها. فبهذه الآلية ومن خلالها تتأكد الشرعية والمقبولية كما يتأكد الرضى الشعبي عن السلطة السياسية ومؤسساتها بعد ان غادرت معظم شعوب عالمنا المعاصر وانظمتها السياسية مصادر اخرى للشرعية غير الانتخابات مثل مصادر القوة والحرب والثورة والانتقال والاغتيال والوراثة وغيرها من الآليات الدموية العنيفة او التقليدية العتيقة.

اما الاستفتاء الدستوري الذي شهده العراق مؤخراً فانه لا يمكن ان يمثل نهاية العلمية الدستورية بقدر ما يمثل حلقة مهمة في سلسلة حلقاتها المتوالية ابتداءً من حلقة وضع المبادئ والمنظمات الدستورية الاساسية وصولاً الى تعديل الدستور وما بينهما المرور بحلقتي الدستور وقرار الدستور.

المناخات السلمية لمستقبل العملية السياسية

ان حلقة تعديل الدستور تعد الى اذهن مكانة الدستور بوصفه المفتاح الرئيس لمغاليق المستقبل السليم للعملية السياسية في العراق الجديد. بيد ان سلامة المستقبل هنا تحتاج الى اجواء سليمة ونظيفة ونقية للبيئة المجتمعية العراقية الحاضنة للعملية السياسية عموماً، وتحتاج ايضاً الى ذات هذه الاجواء للعملية الدستورية لفترة ما بعد اقرار الدستور بالاستفتاء ولفترة ما بعد التعديل القادم للدستور الحالي.

ويقدر تعلق الامر بالمناخين الخاص والعام فان العملية السياسية في العراق ينبغي ان توصف كما تكون عملية سياسية سلمية بانها عملية ديمقراطية. والديمقراطية الحقّة تفهم ببساطة ونمارس بحق بوصفها ديمقراطية تقوم على ما يأتي:

١. توافر الاقرار المجتمعي للدستوري بحقيقة التنوع السياسي والقومي والديني والعشائري في العراق الجديد.

٢. توافر الاقرار المجتمعي والدستوري بحق الاختلاف (وليس الخلاف والنزاع) ما بين المتنوعين سياسياً وقومياً وديناً ومذهبياً وعشائرياً في العراق الجديد.

٣. توافر الاقرار المجتمعي والدستوري بحق المتنوعين سياسياً وقومياً ومذهبياً وعشائرياً في العراق الجديد بالتعبير عن مصالحهم ومطالبهم ورغباتهم السياسية فقط من خلال مؤسسات سياسية مدنية عصرية متحضرة أي من خلال مؤسسات مجتمع مدني (احزاب، نقابات، جمعيات، روابط، اتحادات، مننديات..الخ)، وليس من خلال مؤسسات تقليدية غير متمندة وغير متحضرة كالتنظيمات السياسية العنصرية القومية او الطائفية الدينية او الاجتماعية العشائرية.

٤. توافر الاقرار المجتمعي والدستوري بمبدأ التداول السلمي للسلطة. ويترتب على هذا الاقرار الالتزام (فكراً وسلوكاً) بالمبادئ الاساسية للديمقراطية وبرزها اعتماد آلية الانتخابات الحرة النزيفة في الوصول الى السلطة وممارستها، مع اعتماد التعددية السياسية بشقيها (التعددية الحزبية وتعددية الرأي)، واعتماد مبدأ المواطنة لتحدي

العلاقة بين الفرد والدولة، واعتماد الصحافة الحرة، واحترام سيادة القانون وحقوق الانسان مع الاحتفاظ والحفاظ على سلطة قضائية مستقلة.

الحملة من اجل التسامح والسلم الاهلي

وفي سياق توفير البيئة السلمية للعملية السياسية الديمقراطية في العراق الجديد لابد من تجاوز الكثير من الصعوبات والتعقيدات التي تعرق السلم الاهلي والتي تحكم بالواقع السياسي العراقي الحالي. وهذه الصعوبات وتلك التعقيدات تفصح عنها جملة اسئلة ومجموعة تساؤلات تتعلق باشكاليات استكمال السيادة وصولاً الى الاستقلال الناجز واشكالية تجاوز الارث الدكتاتوري القديم والجديد وصولاً الى الديمقراطية واشكالية تغليب الهوية الوطنية السياسية والمدنية العراقية على للهويات السياسية غير المدنية الفرعية (القومية العنصري، الدينية للطائفية، الاجتماعية العشائرية).

وان الاجابة عن كل هذه التساؤلات غير كافية لوحدها دون الوحدة الوطنية من تحديد مستقبل العراق بين البقاء ككيان ديمقراطي متحد مستقر وآمن وبين استمرار العنف والصراع القومي والطائفي بما يكرس التقسيم الفعلي للعراق.

فما دام العراقيون يخشون بعضهم بعضاً ستبقى قوى الاحتلال ضرورة لبعضهم وربما لجميعهم. ومن يريد حقاً انتهاء الاحتلال الاجنبي واستكمال السيادة وتحقيق الامن فعليه ان يسهم في بناء الوحدة الوطنية العراقية أولاً.

وان لتول آليات تحقيق الوحدة الوطنية للعراقية هي تنظيم حملة وطنية عراقية من اجل التسامح والتعايش الوطني.

فكيف؟ ومن اين نبدأ هذه الحملة؟

ان مأساة العراق اليوم هي في حالة الانقسام الطائفي والاثنى التي اخذت تهدد السلم الاهلي والانزلاق نحو حرب أهلية. والحروب الاهلية لا يخطط لها دائماً بقدر ما تنزلق لها مكونات الشعب الواحد وهذا ما شهدته لبنان والسودان والجزائر. فالسؤال الذي يولجه كل

عراقي هو كيف يتم توقيف التدهور نحو هاوية الاقتتال الاهلي؟ فقد سقط من العراقيين مئات الالاف منذ احتلال بغداد وان اغلبهم سقط على يد العراقيين انفسهم.

ان دورة الاقتتال الاهلي لها حياتها الخاصة، وغالباً ما استغرقت سنوات قبل ان يهب من يعمل على وضع نهاية لها. فلبنان عاش سبعة عشرة عاماً في ظل الاقتتال الاهلي، وفي الجزائر استمرت اكثر من عشر سنوات، اما في السودان فقد دامت اكثر من عشرين عاماً. وفي كل هذه للحالات لم يخر طرف منتصراً فيها، بل كان كل الشعب ضحيتها، وما كان سبباً لانتهائها الى على قاعدة المصالحة الوطنية، فهل ننظر عقداً او اكثر قبل ان تنتهي عبثية للحالة العراقية للقائمة؟ واذا كان البعض يحمل الحكومة والاحتلال المسؤولية فان هذا لا يعفينا كمواطنين من تحمل مسؤوليتنا في التصدي للمأساة.

ومن هنا نطلق الدعوة الى حملة من اجل التسامح والسلم الاهلي، والسبيل الفعلي لذلك لا يتم عبر السلاح بل من خلال مصالحة وطنية، وما يتمخض عنها من ارادة مشتركة لوقف العنف بكل اشكاله.

ان موضوع المصالحة ليست بالجديدة، فقد سبق ان طرحت ابان العهد السابق، كسبيل الى خروج العراق وشعبه المطحون بين سندان العقوبات الدولية ومطرقة النظام الدكتاتورية القمعية، بيد ان النظام السابق رفض المصالحة وبدلاً من ان يقدم التنازلات لشعبه قنمها للاجنبي عبر القرارات الدولية التي جعلت من العراق وشعبه فاقد السيادة والحرية معاً. كما رفضت المعارضة العراقية المصالحة رغم انها لم تكن قادرة على اسقاط الدكتاتورية اعتماداً على قواها الخاصة وفضلت التحالف مع القوى الخارجية التي مهدت لاحتلال العراق. ولا بد من فهم هذه التجربة والاستفادة من دروسها لفهم افضل لموضوعة الحملة الوطنية من اجل التسامح والسلم الاهلي.

فالمصالحة الجادة لا بد من ان ترافقها مصارحة: المصالحة من من؟ وبين من؟ أي ن هم اطراف المصالحة؟ لأي تشخيص ناقص أو محاولة لاستبعاد طرف من دون آخر قد تجهض العملية بالأساس. كما ان المطلوب هو تشخيص مسؤولية الاطراف المعنية عن الحالة التي نعيشها: النظام السابق، قوى المعارضة العراقية آنذاك حزب البعث، الميليشيات المسلحة،

الاحتلال والقوى المتحالفة معه، دول الجوار، وأخيراً مسؤولية النخب الفكرية والثقافية عن غياب ثقافة الحوار والتسامح.

إن نجاح هذه العملية لا يتم بصفقات في غرف مغلقة، بل لابد من فتح باب الحوار الوطني على مصراعيه من دون ارهاب فكري او اجتماعي، الامر الذي يدع الى التساؤل لماذا لم تفتح ابواب مثل هذا الحوار؟ ولماذا وقفت الحكومات المتتالية منذ الاحتلال ضد عقد مؤتمر حوار ومصالحة وطنية، خاصة ان الفرصة كانت متاحة في قمات شرم الشيخ العربية في تشرين الثاني ٢٠٠٤ عندما تم اقتراح عقد مثل هذا المؤتمر هذا ولكن حكومة بغداد ومن ورائها واشنطن رفضته.

وزيادة على أهمية مؤتمر التوافق العراقي في القاهرة فإن بإمكان العملية الدستورية أن فهمت كعقد بين مكونات وفعاليات الشعب الواحد، أن نسهم في مثل هذا الحوار. وإن نجاح العملية الدستورية (وليس مجرد كتابة الدستور فقط) في دول خارجة من صراعات عملية في غاية الدقة والحساسية وتتطلب مناخاً يسوده الولاء الاهلي لضمان مقبولية الدستور والتزام الأطراف المعنية به. فالمسلم الاهلي يجب أن يسبق أو يرافق عملية كتابة الدستور كما يجب أن يرافق أيضاً عملية تعديل الدستور.

هناك حاجة أيضاً للتصدي لإشكالية الاحتلال، وكيفية التعامل معه من أجل استكمال السيادة وتحقيق الأمن؟ فتأسيس الدولة العراقية الحديثة مر عبر تألف وطني مناهض للاحتلال البريطاني كرمس الوحدة الوطنية خاصة بين عرب العراق من شيعة وسنة. كما أن حركة التحرر الوطني العراقية في الثلاثينات حتى الخمسينات ساعدت على تكريس هذه الوحدة.

الاشكالية اليوم في اختلاف العراقيين بشأن الاحتلال، فخشية بعضنا بعضاً جعل من بقاء الاحتلال خياراً مقبولاً بل ضرورياً عند بعضهم، وبعضهم الآخر يريد اخراجهم بأمل الانتقام ممن ان وجود للقوات الاجنبية يشكل حماية له، وآخر يبحث عن حليف أجنبي لحمايته في حال انسحاب للقوات الامريكية. وبين هذا وذاك من له أجندة سياسية تتجاوز العراق يريد البلاد ساحة حرب ضد "عدو عالمي". والمفارقة بين الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٥-

١٩١٨ والاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣ هو أن الأول وحد ثلاث ولايات (الموصل، البصرة، بغداد) وجعل منها العراق، والآخر اخذ يفككها.

في ضوء ذلك هل بالإمكان إنهاء الاحتلال الأمريكي خارج إطار الوحدة الوطنية؟ وإذا كانت الأخيرة ضرورة فكيف الوصضول إليها؟ وما لثر انسحاب امريكا في غياب مصالحه وطنية؟

وما مسؤوليتنا من الظاهرة الجديدة في المشهد العراقي المتمثلة باستعداد قوى سياسية قاطعت الانتخابات السابقة دخول اللعبة السياسية والتي تتعرض بسبب ذلك للقتل من قبل عناصر تكفيرية ذات أجندة اسلامية متشددة؟

إن المباحثات الدستورية على أقصر أمد لها كشفت عمق التناقض بين العراقيين بشأن "الهوية". فكلمة عراقي والعراقية لم تعد بالنسبة لقطاعات مختلفة كافية لتحديد هويتنا الوطنية. المطلوب أن نعرف من نحن أولاً وقبل أن نبحث عن كيفية العيش على أرض مشتركة. ففي غياب إرادة العيش المشترك يبقى الكيان العراقي مهتداً بالانقسام، فليس هناك زواج بالإكراه. ولكن قبل أن نصدر حكماً بالطلاق علينا فهم القضايا الخلافية وفيما إذا كان بالإمكان إيجاد حلول وسط تحمي مصالح الجميع عبر تنازلات متبادلة.

وتأسيساً على ما تقدم لابد من بداية حملة وطنية عراقية ترافق تعديل الدستور وما بعد التعديل، من أجل التسامح والتعايش الوطني تبدأ بسلسلة من اللقاءات تشارك فيها شخصيات فكرية وسياسية واجتماعية ودينية معنية بالشأن العراقي بعيداً عن أي انحياز حزبي أو سياسي أو فتوي بامل إضجاج للفكرة والسبيل الى تجسيدها بخطوات عملية بالتعاون مع مؤسسات فكرية إقليمية ودولية للوصول الى قناعة مشتركة مع إحدى مؤسسات الامم المتحدة المعنية بالشأن، العراقي للمباشرة في العملية وبدعم منها.

إن استعداد الامم المتحدة للمساعدة في عملية التسامح والسلام الأهلي يحمل اصحاب هذه المبادرة من العراقيين مسؤولية خاصة، بدأ بتحديد هويتهم. فهل أنهم مجرد طرف أو نخبة تنويرية؟ أو مجموعة تعمل لخلق قوة ضغط شعبية على الأحزاب والقوى الحاكمة. أم أنهم أداة تنفيذية لخطوات عملية ولو كانت رمزية؟ لو أنهم كل ذلك معاً ولكن الشيء الذي لا

يجب أن يكون عليه اصحاب الحملة هو التحول الى حزب أو قوة سياسية جديدة لتدخل ساحة التنافس من أجل السلطة.

ان العراق والعراقيين بحاجة الى منبر بل منابر أخلاقية تنأى بنفسها عن لعبة السلطة لتصبح الجسر بين العراقيين بما يصلح ذات الشأن، وتستيق كارثة على الوطن والمواطن اسمها الحرب الأهلية في العراق.

عندها نتمكن من فك رموز العلاقة العكسية ما بين السيادة والاحتلال حيث ان الزيادة في استكمال السيادة تعني التآكل في جرف الاحتلال. وهذه العلاقة العكسية ستنتهي، بالنتيجة، الى تحقيق الأمن والأمان طالما بقيت العملية الدستورية الديمقراطية متواصلة.

إن كل هذه المناخات الصحيحة لنجاح العملية السياسية وضمان مستقبلها الديمقراطي للعراق الجديد ابتداءً بالانتخابات ثم الاستفتاء الدستوري مع حملة تسامح وتوافق من أجل السلم الأهلي ستظل رغم ضرورتها وأهميتها الكبيرة مناخات غير كافية لنجاح العملية السياسية ومستقبلها الديمقراطي في العراق دون استكمال عملية تعديل الدستور بما يجعل منه مرجعية وطنية وقاسم مشترك بين الجميع.

ان عملية تعديل الدستور بالنوايا والافعال أنفة الذكر تعيد الى الذهن؟ كما أسلفنا، تلك الماكنة (المفتاح) الدستور العراقي رسم مستقبل العملية السياسية للديمقراطية في العراق. فما هي أهمية تعديل الدستور؟ وأي نصوص دستورية تستوجب التعديل؟

الوصول الدستورية الذهبية

قبل ومن أجل الإجابة السليمة على التساؤلات المصتلة بتعديل الدستور نحرص على ذكر وصايا ذهبية تستحضرها دائماً عقول المهتمين أو الذين يرغبون، حقاً الاهتمام بالشأن الدستوري ليجعلوا من الدستور (المفتاح) و(المرجعية الوطنية) و(القاسم المشترك بين الجميع).. وهذه الوصايا هي:

الوصية الاولى: ان وظيفة القاعدة الدستورية تتمثل بتسوية للخلافات والنزاعات وليس بوظيفة إنتاج وإعادة الخلافات والنزاعات في المجتمع السياسي.

الوصية الثانية: إن العلاقة بين الرضا العام والقبول التام عن الوثيقة الدستورية وبين كثرة الإقصاءات والاستثناءات في نصوص هذه الوثيقة هي علاقة عكسية. فكلما زادت الإقصاءات والاستثناءات نقل المقبولية التامة ويتناقص الرضا العام عن هذه الوثيقة.

الوصية الثالثة: ينبغي أن تحضن الوثيقة الدستورية بادئ ومنطلقات عامة تضمن التوافق وبالتالي الشراكة بين جميع مكونات المجتمع السياسي من جهة وينبغي أن تتجنب نصوص هذه الوثيقة، قدر الامكان، الانشغال بالتفاصيل التي تثير، في الغالب، النزاعات والخلافات، لان في التفاصيل، كما يقال (تكنم الشياطين).

الوصية الرابعة: إن ضوع قاعدة دستورية صحيحة، غير قابلة للتطبيق اليوم وقابلة للتطبيق غداً أو بعد غد، أفضل بكثير من وضع قاعدة دستورية ناقصة وغير صحيحة قابلة للتطبيق اليوم وإن تطبيقها بعد هذا اليوم تحت مزمع (الواقعية) يكون كارثياً. فليس كل ما هو (واقع) صحيح، وليس كل ما هو صحيح واقع.. والأهم، من أجل المستقبل، ودستورياً يتمثل بكل ما هو صحيح اليوم وغداً بمواء كان هذا الصحيح واقعاً ملموساً اليوم أو صحيحاً ملموساً غداً أو بعد غد.

الوصية الخامسة: كل وثيقة دستورية يمكن ان تحتوي الغام ومعطلات الألغام والخطورة لا تكمن فقط في الالغام، بل في تعطل معطلات الالغام ايضاً. وعلى صناع الدستور والمشتغلين على تعديله أن يحذروا من زرع الالغام في هذه الوثيقة كي لا يضيعوا الوقت في وضع معطلات لهذه الالغام من جهة ولكي يعفوا أنفسهم والآخرين من التفكير والخوف عند تعطيل هذه المعطلات من جهة ثانية/ ولكي يتخلصوا من الخوف المترتب على هذا التعطيل المسبب لفاجعة إنفجار الالغام بعد تعطل معطلاتها من جهة ثالثة.

الوصية السادسة: كل الوثائق الدستورية الديمقراطية السليمة تقوم على اساس التوافق او التوافقية. غير ان هذه التوافقية او ذلك التوافق ينبغي أن يكون سياسياً. أي محكوماً بالمعايير السياسية المدنية وليس بمعايير المحاصصة العنصرية والطائفية

والعشائرية. لأن المعايير الأخيرة تجعل من هذه الوثيقة الدستورية مجرد لباس عصري متمدن لحشوة تقليدية غير متمدنة.

الوصية السابعة: ان صناعة الوثائق الدستورية الديمقراطية وتطبيقاتها بعد الصناعة تقوم على اساس مبدأ الشراكة والمشاركة وليس على اساس التفرد والهيمنة لفريق من فرقاء المجتمع السياسي. وان كل فريق من هؤلاء الفرقاء في المجتمع السياسي يفكر ويعمل على اساس انه المنتصر في هذه الوثيقة الدستورية على الفرقاء الآخرين فان تكبره هنو وعمله ذاك هو بداية هزيمته وبداية الخسارة لكل الفرقاء.

الوصية الثامنة: ان الوثيقة الدستورية الديمقراطية هي المستلزم التأسيسي والاساسي لبناء دولة قوية (مع) المواطن، وليست لها الامكانية في ان تكون (ضد) المواطن.

الوصية التاسعة: ان الوثيقة الدستورية الديمقراطية لدولة فيدرالية (اتحادية) لا تسمح بتقطيع السلطة السياسية ولا بتركيزها وتركزها، بل تسمح بتوزيع وظائف السلطة وصلاحيات مؤسساتها التشريعية والتنفيذية والقضائية ما بين المركز (العاصمة) والاطراف (لقاليم، مقاطعات، ولايات، محافظات).

الوصية العاشرة: ان وجود نص دستوري يؤكد استقلال الدولة وسيادتها ووحدة ارضاً وشعباً يجعل من المطالبة بالاستقلال التام واستكمال السيادة مطلباً مشروعاً ومسعى لا اعتراض ولا غبار عليه. فالأفضل لمواطن هذه الدولة ان يطالب باستكمال السيادة والاستقلال بوجود مثل هذا النص الدستوري من ان يطالب باستكمال السيادة والاستقلال دون وجود هذا النص الدستوري.

نضع هذه الوصايا ونأمل ان نكون موضع انتباه اللجنة الدستورية البرلمانية التي ستولى النظر في تعديل الدستور.

النصوص التي تستوجب التعديل

من دون ان نكون مداحين بشكل مطلق او قداميين بشكل مطلق نسمح لانفسنا القول ان هذه (الوصايا) تم الاخذ ببعضها بعين الاعتبار عندما تمت كتابة الدستور العراقي. بيد ان الموضوعية تقتضي ان نسجل ما هو لصالح هذه الوثيقة من حسنات وما عليها من سيئات تستوجب المراجعة والاصلاح والتعديل.

ان هذه الوثيقة تحمل بين طياتها لا سيما في ديباجتها اطاراً عاماً مقبولاً للفلسفة التي يقوم عليها الدستور. ورغم طابعها الخطابى الانشائي المشوش، والتفاتها الى الماضي اكثر من تطلعها نحو المستقبل فانها تضمنت مبادئ ومنطلقات اساسية مهمة....

- فكل مواطن عراقي يريد ان يدافع عن استقلال العراق وسيادته عليه ان يعتمد على هذه الوثيقة (انظر الديباجة وكذلك للمواد (١، ٥٠، ٦٧) على سبيل المثال لا الحصر).
- كل مواطن عراقي يريد ان يدافع عن وحدة العراق (ثعباً وارضاً وسيادة) عليه ان يتكأ على هذا الدستور (انظر للديباجة مثلاً).
- ويستطيع ان يعتمد على هذا الدستور كل عراقي يريد ان يدافع عن (دولة القانون، الوحدة الوطنية، للتداول السلمي للسلطة، مبدأ التوزيع العادل للثروة، مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، مبدأ المواطنة) (انظر للديباجة والمادة ١٨ على سبيل المثال).
- ان من يريد ان يكافح الطائفية والعنصرية عليه ان يلجأ الى هذا الدستور (انظر الديباجة).
- ان من يريد ان ينبذ ويكافح الارهاب ويبعد العراق من ان يكون مقراً او ممراً ساحة للنشاط الارهابي عليه ان يعتمد هذا الدستور (المادة ٧ الفقرة الثانية).
- في هذا الدستور وبين طياته نتلمس مبدأ (تنويع الدستور الوطني) لا بمعنى العدمية الوطنية بل بمعنى ضمان المقبولية الدولية لهذه الوثيقة الوطنية (انظر المادة ٨ و ٩ للفقرة هـ والمادة ٢١ للفقرة الثالثة).

- وهتلنس في هذا الدستور مبدأ علوية الدستور (المادة ١٣) ومبدأ المساواة سياسياً بين الرجل والمرأة في التصويت والانتخاب والترشيح (المادة ٢٠)...
- ان ما تقدم هو غيوض من فيض ايجابي لاحتضنه الدستور.. اما الاخفاقات والامقاطات بل الالغام التي زرعت فالها كثيرة ايضاً ولا بد من ان ينوشها التعديل القادم للدستور ونذكر لبرزها:

١. اللغم ضد مبدأ للمواطنة ويتمثل في المادة ٩ في الفقرة الاولى:

أ. تتكون القوات المسلحة العراقية والاجهزة الاتية من مكونات الشعب العراقي... والصحيح المقترح ان ترفع كلمة (مكونات) لتكون بدلها كلمة (ابناء) او (مواطني) الشعب العراقي. لان (المكونات) قد تفسر تفسيراً يجعل من القوات المسلحة والاجهزة الامنية تشكيلات لقوميات وطوائف وعشائر بحجة انها مكونات.

ب. يحظر تكوين ميليشيات عسكرية خارج اطار القوات المسلحة... والصحيح المقترح يحظر تكوين ميليشيات عسكرية داخل و خارج اطار القوات المسلحة.

٢. اللغم المتعارض مع الاتجاه الديمقراطي التحرري المتمثل بالمادة ٢٩ الفقرة "أ" التي تنص على ان (الاسرة اساس المجتمع) والصحيح المقترح لتعديل النص على ان (الفرد اساس المجتمع والمواطن اساس الدولة)..

٣. لغم الفوضى الاجتماعية المتعارض مع النظام الاجتماعي المدني المتمثل بالمادة ٤١ التي تريد من العراقيين ان يكونوا (احراراً) في تكبيل وتقييد انفسهم باحوالهم الشخصية حسب دياناتهم او مذاهبهم او معتقداتهم او اختياراتهم. أي تكريس (قوانين) رجولية غير مدنية الامر الذي يؤدي الى فوضى مدنية ويتعارض مع ابسط حقوق الانسان ومسح الحقوق

والحريات المستحقة للمرأة بصفتها مواطنة من المواطنين الاحرار.
والفضل المقترحات هو إلغاء هذه المادة أساساً.

٤. لغم العشائر ومؤسسات المجتمع المدني المتمثل بالمادة ٤٥ التي جمعت بغاية بين حرص الدولة على تعزيز دور مؤسسات المجتمع المدني و"النهوض بالقبائل والعشائر العراقية" ومثلها كمثل الذي يقدم لك شراًياً محلي بالملح او ملح بالمكر.

٥. لغم تكوين المحكمة الاتحادية العليا المتمثل بالفقرة الثانية من المادة ٩٢ الذي ينص على ما يفيد ان المحكمة الاتحادية العليا تتكون من (عدد من القضاة؛ وخبراء في الفقه الاسلامي...) بينما العضوية هنا ينبغي ان تكون قضائية قانونية فنية تخصصية تستعين بخبراء عراقيين دون ان يكونوا اعضاء من التخصصات الاخرى غير القانونية ومن الفقهاء العراقيين ذوي الخبرة في كل الاديان والمذاهب.

٦. لغم النفط والغاز المتمثل بالمادة ١١١ التي تنص على ان "النفط والغاز هو ملك للشعب العراقي في كل الاقاليم والمحافظات" وماذا عن بقية الثروات الطبيعية غير للنفط والغاز؟

٧. لغم النفط والغاز (المستخرج حالياً) المتمثل بالمادة ١١٢ التي حددت للحكومة الاتحادية فقط وظيفة ادارة النفط والغاز المستخرج من الحقول الحالية وماذا عن الحقول المستقبلية؟.

٨. لغم تفويض قانون الاقاليم والمحافظات وتقزيم القوانين الاتحادية المتمثل في المادة ١١٥ التي اكدت في حالة الخلاف بين الحكومة الاتحادية والاقاليم والمحافظات فيما يتصل بالصلاحيات المشتركة تكون "الاولوية فيها" قانون الاقاليم والمحافظات غير المنتظمة في اقليم". والصحيح المقترح ان يترك الحكم في تحديد الاولوية للمحكمة الاتحادية العليا.

٩. لغم الشرط السهل للموضوع المعقد والخطر المتمثل بالمادة ١١٨ التي تنص على ان يُمن مجلس النواب في مدة لا تتجاوز ستة اشهر من تاريخ او جلسة له، قانوناً يحدد الاجراءات التنفيذية الخاصة بتكوين الاقاليم، بالاغلبية البسيطة للاعضاء الحاضرين* أي اغلبية ٥١ بالمئة من الحاضرين وهو شرط سهل تحقيقه لقضية معقدة وصعبة.

ويزيد على ذلك ان المادة ١١٨ أكدت هذا الشرط السهل (استفتاء اغلبية المصوتين) لنفس القضية المعقدة والخطرة الا وهي قضية تكوين الاقاليم، اعتماداً على المادة (١٣١) التي تؤكد ان (كل استفتاء وارد في هذا الدستور يكون ناجحاً بموافقة اغلبية المصوتين، مالم ينص على خلاف ذلك). بمعنى ان نجاح الاستفتاء المشروط لتكوين الاقاليم يعتمد شرط (اغلبية المصوتين) وهو الشرط السهل لموضوع معقد وخطير.

١٠. إلغاء المادة ١٢١ المتمثلة بلغم تعديل تطبيق القانون الاتحادي في الاقليم (الفقرة ثانياً) المؤدية الى تفويض سلطة الاقاليم التشريعية الاتحادية. وبلغم مكاتب الاقاليم والمحافظات في السفارات والبعثات الدبلوماسية (الفقرة رابعاً) وبلغم (حراس الاقليم) التي قد تقصر بسهولة وبجهد مريح بانها تعني (جيش) الاقليم (الفقرة خامساً) الامر الذي يجعل من العبارة الاخيرة في هذه الفقرة (حراس الاقليم) بمثابة الزائدة الدودية المتورمة والقابلة للانفجار والصحيح المقترح هنا رفع هذه العبارة والاكتفاء للاقليم بـ(قوى الامن الداخلي للاقليم) كالشرطة والامن فقط.

الفيدرالية والديمقراطية

الدكتور

سعودي كريم سلمان^(١)

المقدمة:

بات الاتفاق شبه التام على إن الديمقراطية هي الحل الإنساني الأكثر ترجيحاً ونجاحاً حتى الآن للمشكلات السياسية للحياة الاجتماعية، ومن ثم تعاطف الاهتمام بها واتسع نطاق المطالبة بتحقيقها في كل المجتمعات والأوساط، ولو لأسباب وأهداف متنوعة بقدر ما هي متباينة إن لم تكن متعارضة ومتقاطعة .

فأصبحت الديمقراطية في عالمنا المعاصر مطلباً عاماً في بعض المجتمعات، وأصبحت هناك حركة تكاد أن تكون عالمية للنطاق تهدف إلى "نمقرطة" النظم السياسية فرضت نفسها على العديد من البلدان خارج نطاق النظم الغربية^١. وذلك لكون الديمقراطية أثبتت قدرتها النسبية على إدلر أوجه الاختلاف وتعارض المصالح في إطار الجماعة الواحدة، أو بين الجماعات المتعددة، داخل الدولة وسمحت بالاستقرار السياسي في البلدان التي اتخذت من الديمقراطية نظاماً للحكم ومنهجاً رسمياً وأهلياً لإدارة الشؤون العامة^٢.

وإذا كانت الديمقراطية قد أثبتت نجاعتها بإيجاد الحلول للمشاكل التي يثيرها الانفراد بالسلطة، واختلاف الرأي والمصالح داخل الجماعة والمجتمعات المختلفة، فإن الفيدرالية، وعبر مختلف تطبيقاتها الحقيقية قدمت هي الأخرى الكثير من الحلول للمشاكل التي يثيرها التنوع والتعدد القومي والاثني في تلك الدول من خلال قيامها بتوزيع وتعدد مركز اتخاذ القرار على أسس ديمقراطية. فنجاح الفيدرالية وضمان الديمقراطية كلاهما يعتمدان على وجود دستور ينظم العلاقة بين السلطات، ويجعل الشعب مصدر السلطة ويسمح بالتعددية والمشاركة الحقيقية للشعب في إدارة

^(١) استاذ العلوم السياسية - جامعة بغداد.

^١ علي عباس مراد: بناء الدولة العراقية الحديثة: عدالة التأسيس وتأسيس العدالة. جامعة بغداد - كلية العلوم السياسية، دت، ص ٩-١٠.

^٢ علي خليفة الكواري (محرراً) : من أجل الانتقال إلى الديمقراطية في البلدان العربية. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٨٠٧.

شؤونه، فضلا عن ضمانه للحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتباينة في الدولة. ومن هنا فان العلاقة بين الفيدرالية وجوهر المعاني الديمقراطية قد تكون متلازمة. بكلمة أوضح إن قيم الديمقراطية قد لا تقتضي إقامة للفيدرالية غير إن قيم الفيدرالية تقتضي وجود الديمقراطية. ففي الدولة التي لا تعاني من تنوع قومي واثنى يمكن إقامة الديمقراطية دون الفيدرالية، أما في الدولة التي تتميز بالتنوع المجتمعي وعدم تجانسها القومي والاثنى فان الفيدرالية ستكون الضمان لتحقيق الديمقراطية بل سر نجاحها.

وتتطلب هذه الدراسة في محاولة لبيان العلاقة بين الفيدرالية والديمقراطية من خلال ثلاث

محاور:

- ١- الفيدرالية والدستورية.
- ٢- الفيدرالية وتأمين الديمقراطية.
- ٣- الفيدرالية وحكم الأغلبية.

أولاً: الفيدرالية والدستورية

كانت الديمقراطية وما تزال معرض تفسيرات وجهات عديدة، كما خضع مفهومها للتطور التاريخي، فهي ليست مفهوما جامدا لان التعبير عنها يتخذ إشكالا وصورا متعددة لدى كل شعب أو حضارة أو جماعة سياسية، مما يعني وجود خصوصيات في تصور الحكم الديمقراطي والتعبير عنه، غير إن تلك الخصوصية لا تمنع من وجود فهم إنساني مشترك لها وتطور هذا الفهم عبر التاريخ وأصبح من ثوابت الفكر الإنساني^٣. ولعل من أهم تلك الثوابت أن يقام الحكم على أساس سلطة الشعب يمارسها عبر نواب يختارهم عن طريق انتخابات حرة مما يجعل الحكم يقوم على رضا المحكومين. ويكون الحكم للأغلبية المتأنية عن طريق الانتخابات الحرة والنزيهة والدورية مع احترام حقوق الأقليات المصانة بالقانون والمؤسسات الدستورية والملازمة للسلطة الحاكمة^٤. وإن يكون القانون هو السيد في العلاقات

^٣ رياض عزيز هادي: "الديمقراطية بين العالمية والخصوصية"، المجلة العربية للعلوم السياسية، العددان، ٨ و ٩، آب ١٩٩٥، ص ١٧.

^٤ سعيد زيداني: "إطلالة على الديمقراطية الليبرالية" المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، العدد ١٣٥، ١٩٩٠، ص ١١.

الاجتماعية ولكل متساوون أمامه، ولكي يكون للقانون كذلك لابد من قيام سلطة قضائية منفصلة عن السلطتين التشريعية والتنفيذية^٥. وإن يكون للدولة دستور تركز عليه الديمقراطية باعتبارها البيان الرسمي الذي يحدد موجبات الحكم الأساسية والقيود المفروضة عليه وبين مؤسسات الحكم وصلاحياتها^٦. كما لا تقوم الديمقراطية إلا بوجود التعددية السياسية التي تحتم وجود أفكار وقيم ومؤسسات متعددة والتنافس المفتوح بينها دون أية قيود سوى القبول بقواعد اللعبة الديمقراطية القائمة على الاحتكام للناخبين عبر صناديق الاقتراع وفتح الإمكانية الحقيقية لاستبدال فئة حاكمة بأخرى بالوسائل السلمية^٧.

وبقدر تعلق الأمر بالفيدرالية فإنها تعني في محلها الواسع، ظاهرة تحرك الجماعات الإنسانية المميزة نحو المجتمع، بحركة تقضي إلى التوفيق بين اتجاهين متناقضين، بين الحرص على ذاتيتهما وبين السعي إلى تنظيم جماعي يشملهما. وتلجأ الدول ذات التنوع القومي والاثني من أجل تحقيق الاستقرار والثبات والتضامن بين أفراد المجتمع إلى اتخاذ شكل الاتحاد المركزي (الفيدرالي) الذي يتكون من عدد من الأقاليم تندمج معا وتتشأ دولة واحدة تفنى بموجبها الشخصية الدولية للولايات والأقاليم الأعضاء. بكلمة أخرى إن الدولة الفيدرالية تشكل نظاماً قانونياً مركباً له خصائصه من الناحيتين الداخلية والخارجية. إذ تتكون الدولة من عدد من الأقاليم تتنازل عن جزء من سيادتها للدولة الاتحادية (المركزية)، وللدولة الاتحادية حكومة تسمى بالحكومة المركزية ولها سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية، مع احتفاظ الأقاليم الأعضاء في الاتحاد بحكوماتها المحلية والتي لها أيضاً سلطاتها التشريعية والتنفيذية والقضائية، ويتم توزيع الاختصاصات بين الحكومة الاتحادية والحكومات المحلية الأعضاء في الاتحاد بواسطة الدستور الاتحادي^٨.

ويلتزم الجميع بما يمليه عليهم الدستور وما تسنه السلطات المركزية. ومن الناحية الخارجية تقرر الشخصية الدولية للدولة الاتحادية فقط، وفي الاتحاد الفيدرالي لا تستقر

^٥ هشام الشلوي: مقدمة في علم السياسة، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، دت، ص ١١٠-١١٣.

^٦ إحسان حميد المفرجي وآخرون: النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، مطبعة دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠، ص ٢٣٩.

^٧ ضمان سلامة: "حالة التعددية السياسية في المشرق العربي" ضمن كتاب التعددية السياسية والديمقراطية في الوطن العربي، منتدى الفكر العربي، عمان، ١٩٨٩، ص ٢٩٦.

^٨ إحسان حميد المفرجي وآخرون: النظرية العامة في القانون الدستوري، مصدر سابق، ص ١٠٤ وما بعدها.

السيادة في السلطة المركزية ولا في الأقاليم الأعضاء، كما أنها ليست مجزأة بينهما، إذ إن السيادة واحدة ولا يمكن تجزئتها، ولكن ممارسة صلاحيات السلطة يمكن توزيعها على عدد من الهيئات، فالسيادة تستقر في الدولة^٩. ويحدد الدستور الاتحادي اختصاصات كل من الهيئات الاتحادية وهيئات الأقاليم. وفي النظام الفيدرالي ليس لسلطات الأقاليم حق إبطال القرارات التي لا تروق لها والتي تتخذها السلطات الفيدرالية المركزية، بل في حالة الخلاف يتم اللجوء والاحتكام إلى القضاء عبر المحكمة الدستورية العليا والمحكمة الاتحادية العليا.

ويبدو مما تقدم إن الدستورية تشكل أحد أهم الركائز التي تقوم عليها الفيدرالية وذلك بقدر ما يقوم الدستور بتحديد صلاحيات كل من المركز والأطراف، علاوة عن كونه الضامن للحقوق والحريات العامة وفي هذا الجانب تلتقي الفيدرالية مع الديمقراطية، فالفيدرالية يمكن أن تقدم حلولاً للمشاكل التي يثيرها التنوع في المجتمع مع ضمان وحدته، حيث أنها تسمح للجميع بالمشاركة بعملية اتخاذ القرار والتعبير عن طموحاتهم وأهدافهم وهي بذلك تقدم حلاً ديمقراطياً للعلاقات الوطنية. وربما تتوضح العلاقة بين الفيدرالية والديمقراطية بشكل أفضل من خلال النماذج الخاصة بالأنظمة الفيدرالية في إدارة الحياة السياسية، والتي جميعها تقوم على التوزيع الأفقي للسلطة، ونبذ هرمية ذلك التوزيع الذي يعتمد عليه مركزية السلطة. وبذلك تغيب علاقة السيد بالمسود نظراً لانعدام السيد الذي يمتلك سلطة إعطاء الكلمة الأخيرة الحاسمة بشكل سلطوي لانعدام هرمية السلطة في النظام الفيدرالي، فالمفاوضات وليس الأمر، الاتفاق وليس الطاعة، هي التي يحتمل أن تسود التفاعلات في المجال السياسي، حيث تميل العلاقات إلى أن تأخذ شكل العلاقات بين متساويين، ولهذا من المحتمل أن تفرض الأشكال التعاقدية في السياسة على الأنماط الهرمية في التفاعل السياسي، مما يوفر ذلك مناخاً من الاحترام والثقة بين الفاعلين السياسيين والمؤسسات الدستورية، وبذلك تبدو الفيدرالية مكملاً نموذجياً تقريباً لمؤسسات الديمقراطية التعددية.

فضلاً عن ذلك تبدو أهمية الفيدرالية في حل الصراعات والمساهمة في الاندماج السياسي، إذ تمكن الفيدرالية باحتمالية كبيرة حل المشاكل القومية والاثنية واللغوية والعرقية،

^٩ نفس المصدر: ص ١١٠ وما بعدها.

ذلك كون جوهرها يكمن في إضفاء الطابع المؤسسي على العلاقات بين المشاركين في الحياة السياسية، وبذلك توفر العديد من الخيارات لتنظيم السياسة وخلق علاقات ملائمة، وهي بذلك تساعد على تطبيق الديمقراطية تطبيقاً واسعاً على مجالات واسعة، خصوصاً من ناحية المشاركة السياسية حيث تنظم الدولة على وفق وحدات سياسية أصغر مما يساعد على الوضوح في عملها وتعزيز المشاركة لأوسع عدد من أفراد الشعب.

ثانياً: الفيدرالية وتأمين الديمقراطية

إن الفيدرالية بإمكانها تأمين الديمقراطية والحرية، كما بإمكانها أن تدفع نحو الوحدة السياسية، من خلال التعدد داخل الوحدة واحترام محيط المركز بقدر احترام المركز ذاته. وبهذا تكون الفيدرالية نقيض المركزية والإشكال الهرمية في الحكم، فهي داعمة ومتفهمة للتنوع والتعددية إذ تعتمد التنسيق الطوعي في عملية صنع القرار بطريقة لا مركزية¹⁰. وإذا كان من الأسس الهامة والتي يجب توفرها لقيام الديمقراطية هو الاعتراف بالآخر، ليس كوجود مادي بل كمساوي في الحقوق والواجبات، فلا ديمقراطية تقوم على إبعاد الآخر وعدم الاعتراف به كمساوي للآخر. ويبدو أن المجتمعات التي تتنوع ديموغرافياً، رغم وحدتها الجغرافية، تشعر بالحاجة إلى تعددية محلية بالحكم إلى جانب الحكم المركزي في عاصمتها. وفي الأنظمة الفيدرالية المطبقة في العديد من دول العالم نلاحظ هناك تنوع كبير في أنماط الظروف الاجتماعية والتي تم استيعابها عبر مؤسسات للنظام الفيدرالي، بحيث حاولت كل هذه الأنظمة المزج بين عناصر الحكم الذاتي المستقل للوحدات المكونة للفيدرالية في شؤون معينة وحكم مشترك مهمين في شؤون أخرى من أجل التوفيق بين الرغبات لكل من التنوع المميز والعمل الموحد. وهذا التنوع في الظروف الاجتماعية أوجد تنوع الفيدراليات المطبقة التي تختلف من تجربة إلى أخرى، بحيث يصح القول أنه لا مجال لاستمساخ نظام فيدرالي معين وتطبيقه في دولة أخرى، فكل نظام فيدرالي يجب أن يراعي خصوصية المجتمع وظروف البلد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وبذلك يمكن القول أنه لا

يوجد شكل نمونجي واحد للنظام الفيدرالي قابل للتطبيق في كل مكان^{١١}. وهنا تلتقي الفيدرالية مع الديمقراطية، فمتلما يجب أن نراعي الديمقراطية في التطبيق ظروف كل مجتمع وتنوعه ودرجة تطوره كذلك الحال بالنسبة للفيدرالية، غير إن ذلك لا يمنع من وجود فهم عام مشترك لكل من الديمقراطية والفيدرالية رغم خصوصية التطبيق. فمراعاة الخصوصية يجب أن لا تتجاوز الأسس العامة لكل من الفيدرالية والديمقراطية، وإذا كان حكم الشعب وسيادة القانون، وفصل السلطات، ووجود دستور يكفل الحقوق والحريات العامة وإقرار التعددية السياسية هي مفاهيم مشتركة لكل نظام ديمقراطي، فإن الاعتراف بالآخر ومراعاة خصوصيته، وتوزيع السلطة أفقيا أي الأخذ باللامركزية السياسية، ووجود دستور يحدد صلاحيات كل من المركز والأطراف هي من المفاهيم المشتركة لكل نظام فيدرالي. وبذلك يكون مثل هذا النظام صمام أمان ضد قيام الدكتاتورية والحكم الفردي طالما تكون اختصاصات السلطة موزعة بين المركز والأقاليم. فالفيدرالية تقوم على الأقل بتفتيت الدكتاتورية واحتكار صنع القرار في الدولة بيد فرد أو أقلية، وهي بذلك تشكل عاملا أساسيا لتحقيق المشاركة السياسية للمواطنين في الدولة، لهذا نجد الفقيه "بيرو" يذهب إلى التأكيد على إن الحرية توجد في معنى الفيدرالية حيث يقول (في اصل فكرة اللامركزية يوجد اعتراف بحرية الهيئة التي تنتفع منها وهي الحرية التي تنص قانونا بمقدور الهيئة على أن تضع بنفسها القواعد التي تسري عليها)^{١٢}. فالهيئات اللامركزية (الأقاليم) سوف تجد نفسها تملك قدرا اكبر من الحرية لوضع القوانين التي تعبر عن حاجاتها المحلية دون أن تكون تلك القوانين مفروضة عليها من الإدارة المركزية.

ويقدر ما تكون المركزية قرين الدكتاتورية نجد هناك من يؤكد على انه من المحال أن تتفق الفيدرالية مع الدكتاتورية ولانه لا حياة للفيدرالية إلا في ظل نظام ديمقراطي. فالاتحاد الفيدرالي ينشأ أساسا حيث يوزع الدستور الاتحادي وظيفة الحكم بين الحكومة المركزية والأقاليم، وبذلك تتمتع الأقاليم باستقلال دستوري وتنظيم ذاتي، أي الاستقلال في

^{١١} رونالد ل. واتس: الأنظمة الفيدرالية، منتدى الاتحادات الفيدرالية. أوتاوا، كندا، ٢٠٠٦، ص ١٤٨.

^{١٢} نقلًا عن محمد هملوندي: المصدر السابق، ص ١٧٣.

وضع القواعد التي تحكمها، كما تتمتع بحماية دستورية بسبب تحديدها بواسطة الدستور الاتحادي^{١٣}.

وربما يرجع سبب هذا التأكيد على إن الفيدرالية لا تتسجم مع المركزية بل هي نقيضا لها ردا على بعض الآراء التي جعلت من النظام الذي يأخذ من اللامركزية الإدارية نظاما ديمقراطيا في حين انكرت التلازم بين الديمقراطية وبين واللامركزية للسياسية (الفيدرالية) من جهة، ومن جهة أخرى يعود هذا التأكيد على التلازم بين الفيدرالية والديمقراطية، لرفض اعتبار بعض الاتحادات التي استندت في تنظيمها للسلطة على المركزية كونها لتحادات فيدرالية، ولعل من أهمها الاتحاد السوفيتي السابق.

ففي معرض مقارنته بين اللامركزية الإدارية، واللامركزية السياسية (الفيدرالية) يشير (محمود البنا) بأن نظام الإدارة المحلية هو نظام ديمقراطي يهدف إلى تحقيق ديمقراطية الإدارة بإشراك للمواطنين في إدارة الشؤون الخاصة بأقاليمهم، وهذه الإدارة شعبية في أصلها وروحها، على حد قوله، وتتطور في العادة نحو مزيد من الحريات المحلية ووسيلتها في تحقيق ذلك هي الانتخابات. أما نظام اللامركزية السياسية (الفيدرالية) فلا تلازم بينها وبين الديمقراطية، فقد يرجع أصلها إلى عوامل تاريخية أو عوامل القوة والقهر، وكما أنها قد تأخذ بنظام في الحكم وفي الإدارة بعيد عن الديمقراطية، حكم فردي، أو أسلوب مركزي في الإدارة، إلا أنه يعود ليقرر على أنه ليس ثمة ما يمنع من أن تأخذ الدولة الفيدرالية بنظام الإدارة اللامركزية، وهذا يكون أكثر اتفاقا مع طبيعة النظام الفيدرالي^{١٤}.

غير إن مبدأ الديمقراطية وتطبيقه في أي نظام فيدرالي يتجه بطرق مختلفة ليس إلى اختصاصات في الوظيفة الإدارية لوحدها، كما في دولة مركزية موحدة أو في دولة تأخذ بنظام اللامركزية الإقليمية، بل أنه يعمل على تحقيق قدر أكبر من الاختصاصات يتعدى الوظيفة الإدارية ويتجه نحو الاختصاصات التشريعية والسياسية، فيقتضى النظام الفيدرالي تتمتع الأقاليم بإدارة شؤونها العامة والخاصة بإرادتها الحرة، وكذلك الاشتراك في السلطات

^{١٣} ثروت بدوي: النظم السياسية، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٨٥.

^{١٤} محمود البنا: النظم السياسية. أسس التنظيم السياسي وصورة الرئوسية. دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٥، ١٩٨٤ - ١٩٨٥، ص ١٥٥-١٥٦.

الفيدرالية المركزية^{١٥}. ولهذا هناك من ينفي عن الاتحاد السوفييتي السابق صفة النظام الفيدرالي، وفي أحسن الأحوال يطلقون عليه نظاما خاصا^{١٦}. فالاتحاد السوفيتي السابق كان دولة موحدة متعددة القوميات وذات نظام إداري مركزي، نظرا للوحدة الإيديولوجية والتنظيمية والاقتصادية في كل جمهوريات الاتحاد وأقاليمه، كما إن دستور ١٩٧٧ كان يقرر الرقابة لمجلس الرئاسة ومجلس الوزراء الاتحاديين على قرارات الجمهوريات، كما تتحقق الوحدة بصفة خاصة، بوجود حزب "وحيد" تميز بتنظيمه المركزي وهيئته على مؤسسات الدولة وسياساتها الداخلية والخارجية، واستثنائه بكل المناصب في الاتحاد والجمهوريات والأقاليم والمناطق القومية^{١٧}.

لهذا تعجب الفقيه "بيردو" حول كيفية دمج فكرة الديمقراطية بالمركزية في ظل نظام اتحاد الجمهوريات السوفيتية السابقة، فقد ذكر إن أصعب مادة واعقدها أدخلت إلى الدستور عام ١٩٧٧ هي المادة الثالثة التي تشير (بيني تنظيم نشاط الدولة السوفيتية وفقا لمبدأ المركزية الديمقراطية.... إلزامية قرارات الهيئات الأعلى للهيئات الأدنى وتجمع المركزية الديمقراطية بين القيادة الواحدة والمبادرات والنشاطات الخلاقة والمحلية ومسؤولية كل هيئة من هيئات الدولة وكل إداري عن العمل المعهود به). وأشار في معرض نقده لهذه المادة بقوله (والواقع أنه كيف يمكن التوفيق بين هذا النظام وبين الحرية النسبية للمجتمعات المحلية في القاعدة التي بمقتضاها تكون القرارات الصادرة من المجلس الأعلى للسوفييت ملزمة للمجتمعات أي الولايات الفيدرالية، وله أيضا حق إلغاء جميع القرارات الصادرة من تلك الولايات)^{١٨}. كذلك هناك من وجه سهام النقد للفيدرالية التي كانت مطبقة في الاتحاد السوفيتي السابق، وهذا ما نجد موضوع إشارة كلا من "فر كمون" و "ماكهنري" بالقول (إن الشكل الاتحادي (الفيدرالي) لا يعني إن روح نظام الحكم الاتحادي هي التي تسود، فالاتحاد السوفيتي، وأي حكم يعتمد على النزعة المسيطرة لكبار رجال الدولة، قد يبدو لها مظهر

^{١٥} محمد بكر حسين: الفيدرالية بين النظرية والتطبيق، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦٩٤-٦٠٦.

^{١٦} إحصان حميد المبرجي وأقرن. مصدر سابق، ص ١٢٥.

^{١٧} محمد بكر حسين: مصدر سابق، ص ١٢٤.

^{١٨} John H.Ferguson & E.Mchenry, Elements of American government. London. 1985. P 41.

الاتحاد، في حين إن كثيراً من الشواهد تدل على أن نظام للحكم فيها كان دكتاتورياً^{١٩}.
فالثابت في النظام الفيدرالي أن يحتفظ كل إقليم لنفسه بقدر من الاستقلال الذاتي، وبذلك تكون
الفيدرالية قرينة الديمقراطية.

ثالثاً: الفيدرالية وحكم الأغلبية

قد يقال إن الديمقراطية كأسلوب للحكم تقوم على تطبيق مبدأ حكم الأغلبية، وهذا
صحيح في الدول التي لا تعاني من التمايز القومي والاثني، غير إن الأمر يختلف تماماً في
الدولة متعددة القوميات والجماعات القومية والاثنية، فتطبيق مبدأ حكم الأغلبية في مثل هذه
الدولة من شأنه أن يبعد كل الأقليات باعتبارها (أقلية) عن المشاركة بالحكم، لكونها لا يمكن
أن تحقق أغلبية عددية، وستبقى خاسرة وهذه الخسارة ليست بسبب الدكتاتورية أو حكم الأقلية
وغياب إرادة الشعب، بل هذه الخسارة نتيجة تطبيق مبدأ ديمقراطي يؤكد على الالتزام بقاعدة
إرادة الشعب وحكم الأكثرية، ولذلك تقدم الفيدرالية في مثل هكذا دولة تتميز بالتعدد القومي
والاثني، الحل للإشكالية الناشئة عن تطبيق مبدأ إرادة الشعب وحكم الأغلبية. ويوضح "واتس"
ذلك بقوله إذا فسرت الديمقراطية بطريقة بسيطة على أنها حكم الأغلبية، فإنه دون شك يكون
أي نظام فيدرالي، إذا قام بتقييد السلطة القضائية للحكومة الفيدرالية ومن خلال إنشاء وحدات
مكونة من الحكومة تتمتع بسلطة قضائية على بعض الأمور، يقوم بوضع قيود دستورية على
نطاق عملية صنع القرار عن طريق أغلبية عامة داخل الكيان المدني، والواضح إن الأنظمة
الفيدرالية، بما لها من توزيعات دستورية للسلطة، هي صورة من صور الحكم الدستوري
المقيد^{٢٠}. ومن ناحية أخرى يمكن القول، بأن الأنظمة الفيدرالية تعزز حكم الأغلبية
الديمقراطي، بإعطاء الفرصة للمجموعات المكونة للفيدرالية التي تشكل أغلبية في مناطقها
لاتخاذ قرارات حول الأمور ذات الاهتمام الإقليمي بحكم الأغلبية، ومن هذا الجانب فإن
الفيدرالية تمثل ديمقراطية مع إضافة حيث تنص على حكم الأغلبية فيما يتعلق بالقضايا ذات
الاهتمام المشترك في جميع أنحاء الكيان المدني، علاوة عن حكم الأغلبية داخل أقاليم الاتحاد

¹⁹ Ibid. P 41.

²⁰ رونالد ل. واتس: الأنظمة الفيدرالية. مصدر سابق، ص ١٤٨-١٤٩.

الفيدرالي عندما تتعامل مع أمور لها أهمية خاصة بالإقليم^{٢١}. وهذا من شأنه أن يعزز مبدأ حكم الأغلبية الذي يشكل إحدى دعائم الديمقراطية، بحيث يمكن القول إن الفيدرالية تقود إلى الديمقراطية.

وتأسيساً على ما تقدم يمكن القول بالتوافق بين قيم الفيدرالية وقيم الديمقراطية، كون الديمقراطية لا تقوم فقط على حكم الأغلبية، ولكنها أيضاً تؤكد على الدستورية وعلى حكم القانون واحترام الأقليات وتوزيع السلطة. وبذلك تكون الديمقراطية الشرط المسبق لأي نظام سياسي فيدرالي فعال يعتمد على احترام المعايير الدستورية وحكم القانون واحترام الأقليات وروح التسامح والتوافق، ومن جانب آخر فإن الفيدرالية تعزز القيم الديمقراطية عن طريق التأكيد على الشريعة الديمقراطية لكل من الحكومات الفيدرالية وحكومات الأقاليم المكونة للفيدرالية التي تنتخب مباشرة من قبل الشعب وتكون مسؤولة أمامه، وهي بذلك تكبح التفرد بالسلطة من خلال توزيعها بين مراكز متعددة لصنع القرار داخل الكيان السياسي. مع ذلك يجب التأكيد بأن العبرة ليست بالهياكل البنائية المجردة، فالفيدرالية لا تنحصر في مؤسسات الدولة ووجودها، كبرلمان اتحادي وآخر إقليمي، ومستور يحدد العلاقة بين المركز والأطراف، ومحكمة دستورية تنظر في الأمور الخلافية، كما إن الديمقراطية ذاتها ليست شكلية دستورية، كما لا تتحقق في مشاركة الأحزاب في التنظيمات السياسية، كالجبهات والتحالفات، ولا بوجود برلمان أو مجلس وطني وإجراء انتخابات دورية، فربما تكون كل هذه مجرد شكلية تزين واجهة الحكم، فالديمقراطية وكذلك الفيدرالية هي موضوع وليس شكل، ممارسة حقيقية وليست مجرد شكلية، فكلاهما يتطلبان وعياً بأهميتهما وقناعة بنجاحتهما في إعلاء قيم الحرية والمشاركة الشعبية في اتخاذ القرار، وبالتالي فإن إشاعة الوعي الديمقراطي والفيدرالي وثقافتهما هو صمام أمان لمنع تحريفهما وتزييفهما عن مقاصدهما الحقيقية.

ثقافة التسامح وجدلية العلاقة بين الأنا والآخر

الاستاذ المساعد الدكتور

heid نفل النداوي^(١)

المقدمة:

تنامت الدعوة الى تعميم ثقافة التسامح واكتسبت زخماً كبيراً بعد اعلان مبادئ التسامح الصادر عن منظمة اليونسكو عام ١٩٩٥ واعلان الامم المتحدة لعام ١٩٩٦ عاماً دولياً للتسامح، منسجمة في ذلك مع القراءة العلمية والموضوعية للتاريخ والتي تشير الى انه من الصعوبة بمكان استتباب الامن والنظام وتعزيز اللوائم الاجتماعي والسلم الاهلي ويجاد البيئة المناسبة للتقدم والابداع في غياب التسامح لان البديل عن التسامح هو التعصب والتطرف والعنف.

لذلك فلا غرابة ان يصف الكثير من الفلاسفة والمفكرين مجموعة سياسية بالديمقراطية اذا كانت هذه المجموعة تحترم ثلاثة مبادئ ديمقراطية هي: مبدأ التسامح، ومبدأ الفصل بين السلطات ومبدأ العدالة. وهكذا كان تاريخ الفلسفة يشير دائماً الى ان التسامح كان شرطاً أساسياً من شروط تطورها وديمومتها لان الفلسفة هي المجال الارحب للتسامح كونها تبحث عن الحقيقة ولا تدعي امتلاكها وهذا اعتراف بالتعدد والاختلاف واحترام الآخر.

ولكن هذه الرؤية لم يتم اعمالها على صعيد العلاقات الدولية بل ان الصراعات والحروب كانت هي السائدة على مر العصور. كما ان مختلف الايديولوجيات التي سيطرت على الساحة السياسية في الوطن العربي خلال القرن الماضي وحتى يومنا هذا من قومية الى اصولية دينية الى اشتراكية قديمقراطية لم يكن للتسامح مكان في فلسفتها وخطابها وبرامجها.

^(١) كلية العلوم السياسية، الجامعة المستنصرية.

والموضوع الاساس والشغل الشاغل الذي يجب التركيز عليه هو ما يجري في العراق منذ ٢٠٠٣/٤/٩ ولحد الان والضرر الكبير الذي لحق بهذا البلد نتيجة الصراعات السياسية والطائفية والعرقية علاوة على سياسة الاحتلال الامريكي والتدخل السافر لبعض دول الجوار في الشأن العراقي والذي يتطلب مراجعة فكرية وسياسية يشارك فيها الجميع تسود فيها لغة الحوار على لغة الصراع والتأكيد على حقيقة ان سياسة الغاء الاخر واقصائه لا يمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح .

ومن اجل تسليط الضوء على هذه الافكار فإن الدراسة سوف تتناول الموضوع من خلال المباحث الآتية:-

١. التسامح: المفهوم والمصادر

٢. ثقافة التسامح جدل الفكر وتوظيف السياسة

٣. العملية السياسية في العراق وثقافة التسامح

المبحث الاول:- التسامح : المفهوم والمصادر

لايزال التسامح كمفهوم محل جدل على الاقل بين العرب والغرب^١ والتسامح في اللغة العربية يعني الموافقة والقبول والتساهل ويعني كذلك الجود والكرم والسخاء كما يعني العفو.

وفي لسان العرب نجد للكلمة سمح السماح والسماحة: الجود، وسمح سماحة وسموحة وسماحاً: جاد، ورجل سمح وأمرأة سمحة، والمسامحة: المساهلة وتسامحوا: تساهلوا، وفي الحديث المشهور السماح رباح^٢ اي المساهله في الاشياء تريح أصحابها، وكما قال جرير.

غلب المساميح الوليد سماحة وكفى قريش المعضلات وسادها

وفي الحديث: يقول الله عز وجل: أسمحوا لعبدي كأسماحه الى عبادي الاسماح: لغة في السماح يقال: سمح واسمح اذا جاد واعطى عن كرم وسخاء^٣.

^١ ومن حقا ان تتساهل ماهو ((القسم المشترك بين كلمة Toleration)) الانكليزية وكلمة التسامح العربية، الجواب هو ان القسم المشترك لايزال ضليلاً جداً أو بالاحرى ان الفوارق بين الكلمتين هي اكثر اشارة للاهتمام من التشابهات بينهما، انظر سمير الخليل، للتسامح في اللغة العربية في سمير الخليل ولخرون التسامح بين شرق وغرب ترجمة ابراهيم العريس دار المسكن، بيروت ١٩٩٢ ص٦

^٢ محمد بن مكرم بن منظور الاقريطي. المصري، لسان العرب ١٥ ج ٢ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥ ص٤٨٩، ٤٩٠.

وبنفس المعنى يذهب مختار الصحاح: سمح-السمح والتماحة الجود وسمح به يسمع وسمحاً وسماحة أي جاد وسمح لو اعطاه، والمسامحة: المساهلة وتسامحوا معناها تساهلوا^٣.

وفي ذات الاتجاه يعرض المنجد سمح - بفتح العين سَمَح - سَمَاحاً وسمحاً وسماحة وسموحة - سَمَحاً والمعنى صار من اهل الجود والسماحة وسمحه في الامر وبالامر: ساهله، لاينه وأفق على مطلوبه، سَمَح وتسامح تساهل فيه كلها تصب في معنى المسامحة^٤.
اللفظة -سَمَحَ أو أَسَمَحَ الرباعية والثلاثية وكما وردت في لسان العرب لأبن منظور ومختار الصحاح والمنجد كلها تعني المساهلة سواء كانت هذه الكلمة فعلاً ثلاثياً أو رباعياً أو مصدرأ أو أسم مصدر كلها كما اشرنا تعني للمعنى نفسه الذي تروم اليه وهو المساهلة.

ولعل كلمة التسامح من الامثلة البارزة التي تدل على التباعد بين أصل الكلمة في اللغة ومدلولها الاصطلاحي الجديد فلفظة التسامح لغوياً تعني السخاء من موقف استعلاء ومن ثم فلا مساواة بين السخي المتكرم والمتكرم عليه ((في التسامح يوجد المتسامح في مستوى أعلى والمتسامح معه في مستوى اسفل))^٥.

وتملك اللغة الانكليزية كلمات ثلاث ((Toleration)) و((Tolerance)) و((Tolerationism)) وقد حاول بعض الكتاب التمييز بين هذه الكلمات بما يتيح لهم تعيين الواجه المختلفة من التسامح^٦.

غير ان هذا الاختلاف في الدلالة اللغوية لمفهوم التسامح لم يمنع من الوصول الى نوع من التقارب في التعريف الاصطلاحي للتسامح^٧ حيث حرص الكثير من الباحثين

^٣ محمد بن ابي بكر ابن عبد القادر الرازي. مختار الصحاح. دار الكتاب العربي. ص ٣١٢

^٤ افراد افرام اليمتقي. المنجد. دار المشرق. بيروت. ١٩٨٦ ص ٣٤٣.

^٥ ناجي البكوش، التسامح صمد حقوق الانسان، في ناجي البكوش وآخرون، دراسات في التسامح المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون وبيت الحكمة، تونس ١٩٩٥ ص ١١.

^٦ لمزيد من التفصيل حول الدلالات والمعاني المختلفة لمفهوم التسامح في اللغة الانكليزية انظر بيتر به نيكولسون التسامح كمثال اخلاقي في سمير الخليل وآخرون التسامح بين شرق وغرب مصدر سابق ص ٢٨ - ٢٩ وكذلك انظر الشيخ محمد مجتهد شيمسري: اشكالية التسامح في رضوان السيد وآخرون التسامح وجذور للتسامح - مركز دراسات فلسفة الدين بغداد ٢٠٠٥ ص ٨١. وانظر كذلك محمد عابد الجابري. قضايا في الفكر المعاصر. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ط ٢. ٢٠٠٣ ص ٢٨.

^٧ د. حميد فاضل حسن. مبدأ التسامح وأصوله الفكرية ونوره في تعزيز الصلوة السياسية الديمقراطية. العلوم السياسية. جامعة بغداد العدد ٣٣ السنة ١٧ تموز ٢٠٠٦ ص ٢٧٤

والكتاب العرب المعاصرين الى عدم الارتئان الى المعاني والدلالات اللغوية وليواكبوا الرؤية الغربية في هذا الجانب التي انصبّت على ضرورة تجاوز المعنى اللغوي الاصلي للكلمة والاعتراف بأنها تطورت واصبحت مفهوماً اصطلاحياً تحمل في احشائها عنصرين أساسيين يتفاعلان: الحق والواجب، حق الفرد أو الجماعة في الاختلاف من جهة وواجب الفرد أو الجماعة احترام حق الغير في الاختلاف من جهة أخرى^٩.

وبهذا الخصوص يرى محمد عابد الجابري ان التسامح يعني ((احترام الحق في الاختلاف والحق في التعبير الديمقراطي))^{١٠} اي ان فكرة التسامح تعني القدرة على تحمل الرأي الآخر والصبر على أشياء لا يحبها الانسان ولا يرغب فيها بل يحدها لحياناً مناقضة لمنظومته الفكرية والاخلاقية^{١١} والتسامح يعني ايضاً ((ان نحيا نحن والآخرين على اختلافنا في عالم واحد بضمنا))^{١٢}. وهو كذلك ((موقف يتجلى في الاستعداد لتقبل وجهات النظر المختلفة فيما يتعلق باختلافات السلوك والرأي دون الموافقة عليها))^{١٣}.

فصارى القول على حد تعبير بيتر ب - نيكولسون ان ((التسامح هو فضيلة الامساك عن ممارسة المرء سلطته في التدخل بأراء الآخرين وأعمالهم علماً ان هذه الاراء والاعمال تختلف عن اراء الشخص المذكور واعماله في مايلظنه مهماً ، الى حد انه لا يوافق عليها اخلاقياً))^{١٤}.

^٩ ولكن هذا لم يمنع من تعرض المفهوم الاصطلاحي الغربي لبعض النقد وسوء الفهم او التفسير واحياناً الرفض من البعض سواء في الغرب او العالم الاسلامي فينبينا رأى البعض ان هذا المفهوم اساسه تسلمح القوي مع الضعيف وبالتالي اعتبره مفهوماً يكرس عدم تكافؤية العلاقة وعدم المساواة بين اطرافها ويثير شعور التكبر او شعور التفضيل والتقص من قبل المتسامح والشعور المضاد من قبل المتسلح رأى البعض الآخر ان القصد من المفهوم هو الترويج لتسامح الشعوب المتمنضة مع قوى الاستعمار والاستكبار بفرض تدجين تلك الشعوب والحد من مقاومتها لقوى الاستعمار في حين رأى الفريق الثالث ان مفهوم التسامح يكرس الانحراف في المساواة بين الصواب والخطأ وبين اصحاب الحق واصحاب الباطل وبين الترفاء والمجرمين .

^{١٠} عبد الملك منصور حسن المصعب في مفهوم التسامح أفكار أولية ، جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات ص ٣
<http://mansourdialogue-org/Arabic/Fikr2.html>

^{١١} نلجي اليكوش ، التسامح صناديق حقوق الانسان . مصدر سابق ص ١١

^{١٢} محمد عابد الجابري ، قضايا في الفكر المعاصر . مصدر سابق ص ٣٠ .

^{١٣} عبد الحسين شعيلان ، لغة التسامح في الفكر العربي الاسلامي . دار النهار - بيروت ٢٠٠٥ ص ٦٢

^{١٤} د . هادي الجزائر . في اسباب التصب . نحو رؤية تكاملية ، عين للبحوث والدراسات الاساقية والاجتماعية مصر ٢٠٠٥ ص ٢٢

^{١٥} احمد خورشيد التورجي . مفاهيم في الفلسفة والاجتماع . دار الشؤون الثقافية . بغداد ١٩٩٠ ص ٨٢

^{١٦} بيتر ب . نيكولسون كمثل اخلاقي . مصدر سابق ص ٢٢

ولا يكتمل وضوح مفهوم التسامح الا عندما تكون له ((حدود واضحة يجب أن يتوقف عندها الجميع وان لايتجاوزها عندما يتحول هذا المفهوم الانساني الى محاولات فردية وجماعية عبثية لاتنتفع بل تضر، حدود التسامح هي بقاء الدول والمجتمعات متماسكة وآمنة وسليمة من التفكك والانهيار))^{١٥}.

فالتسامح لايعني بأي حال من الاحوال التنازل عن المعتقد او الخضوع لمبدأ المساومة وانما يعني القبول بالآخر والتعامل معه على اساس العدالة والمساواة بصرف النظر عن افكاره وقناعاته الاخرى^{١٦}.

ظهرت كلمة ((التسامح)) أول ما ظهرت في كتابات الفلاسفة في القرن السابع عشر الميلادي زمن الصراع بين البروتستانت والكنيسة الكاثوليكية حينما نادى اولئك بحرية الاعتقاد وطالبوا الكنيسة البابوية بالتوقف عن التدخل في العلاقة بين الله والانسان^{١٧} وبالتالي فإن التسامح وفق التجربة الغربية والفكر الغربي المعاصر هي الاجابة المطلوبة آنذاك فالاختلافات قادت في فترة من الفترات الى التعصب والانتكفاء والعزلة ودفع المجتمع الغربي ثمن ذلك^{١٨} واذا كان التاريخ الحديث قد شهد ولادة مفهوم التسامح فأما التعاليم الدينية والمنطقات الفكرية والفلسفية قد سبقت ذلك بكثير وربما يصح التاريخ لبدائياتها ببداية الرسائل السماوية والتي مثلت الدعوة الى التسامح بتعابير وصياغات متعددة ويتوافر التراث الاسلامي الفقهي والفلسفي على كثير من المرتكزات والاسس والاحكام التي من شأن تطويرها الاسهام في بلورة مفهوم افضل واوسع قبولاً للتسامح وفي تأهيل وتكريس ثقافة التسامح^{١٩}.

¹⁵ خالد الجنفراوي . حدود التسامح . بوابة العرب 6/18/2007 Khaled aljenfawi@yahoo.com

¹⁶ محمد مخلوف . في معنى التسامح : التسامح وافاق السلم الاهلي في رضوان السيد ولخرون التسامح وجنود

التسامح . مركز دراسات المسألة الدين بحداد ٢٠٠٥ ص ١٨٦

¹⁷ د . محمد عبد الجباري ، قضايا في الفكر المعاصر مصدر سابق ص ٢٥

¹⁸ محمد مخلوف في معنى التسامح التسامح وافاق السلم الاهلي ، مصدر سابق ص ١٨٤

¹⁹ د عبد الملك منصور حسن المصعبي في مفهوم التسامح افكار اولية .

ويبين القرآن للكريم الحكمة الالهية في التنوع والاختلاف بين الناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلَكُمْ قَبِيلًا وَنَسَبًا﴾ وعلى هذا الاساس يدعو الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم الى تبني لغة المنطق والعقل والحوار في التعامل مع المشركين وغيرهم ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ﴾^{٢٠} ويخطب لاضغط فيه ولا اكراه (لا اكره في الدين)^{٢١} والدعوة الى التسامح والعفو ودفع السيئة بالحسنة ﴿وَإِذَا جَاءَ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُغْنَوْا عَنْكَ الْقُلُوبَ فَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ أَن كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ بِاللَّهِ أَرَأَيْتُمْ إِيَّاهُ يَقُولُ سَمِعْتُهُ يَقُولُ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذُو انْقَادٍ﴾^{٢٢}

[illegible]

وجسدت المسيرة النبوية الشريفة اقتران القول بالعمل والتأكيد على الروابط الانسانية وكبح جماح القوه ويقول الرسول الاكرم (صلى الله عليه وسلم) (الرفق رأس الحكمة) وهكذا جاءت وثيقة المدينة- الصحيفة- والتي يعدها البعض اول دستور مكتوب في العالم تتناول موضوع الحقوق والواجبات، حيث تبدأ الصحيفة بتوضيح حقوق كل فئة بالاسم وتُعترف بديانة الآخر وحقه في الاختلاف والتمايز فلكل فريق دينه ولكل جماعة التزاماتها وعليه تحاول الصحيفة (الدستور) تنظيم العلاقات لكل فئة ضمن اطار القانون المشترك^{٢٥}.

11A 241. 100 E 100 20

٢١ سورة النحل الآية ١٢٥

22 سورة البقرة - الآية ٢٥٦

٢٣ سورة فصلت الآية ٣٤

²⁴ سورة المائدة الايات ٢٧ - ٣٠

²⁸ ولید نویض قراءة فی دستور المدينة فی محمد عبد الجباري والآخرين . حقوق الانسان فی الفكر العربي .

دراسات في النصوص، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٤ - ٢٠٠٢، ص ١٤٣

ولنا في موقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثناء فتح مكة مثلاً ودرساً كبيراً في التسامح حيث اجتمع رجال قريش عند المسجد الحرام ينتظرون ما سيقوله الرسول الكريم بحقهم وهم يعلمون ما اقترفوا بحقه وحق المسلمين من اذى ، ولم يمض وقت طويل حتى خاطبهم الرسول الاكرم. ما تظنون اني فاعل بكم) وقلوا اخ كريم وابن اخ كريم ، فكان جواب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وفي ذات الاطار حرص الخلفاء الراشدين على اشاعة قيم العدل والحرية والمساواة وهو ما دعى الخليفة عمر بن الخطاب (رض) الى اطلاق مقولته المشهورة (منى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احراراً، او ما قاله الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام) مخاطباً عامله في مصر مالك بن الأشتر ((لا تكون عليهم (اي على الناس) سبعا ضارياً تغتتم لكلهم فأنهم صنفان، اما اخ لك في الدين او نظير لك في الخلق))^{٢٦}.

وتناولت الفلسفة الاسلامية عبر مراحلها المختلفة هذه الموضوعات فأخوان الصفا يشددون على ان ((اختلاف اصل الدين لايعيب الدين في شيء فهناك مسألة محدودة عند قوم ومنمومة عند قوم اخرين ، وقد ينتج عن الخلاف فولد منها:-

انه يدفع الى طلب الحجة والى البحث العميق ويكشف العيوب فينبه المعيب ويصلح عيوبه لذا قيل اختلاف العلماء رحمة^{٢٧}.

اما المعتزلة فكانت حركة تنظير عقلي للدين فأعلموا العقل في النص واخضعوا تفسيرهم للمنطق العقلي، وساقوا اي اختلاف ظاهر بين النص والعقل باستثناء العبادات لصالح الاخير، فما فعله المعتزلة بالنسبة الى الدين الاسلامي يشبه الى حد ما فعله فلاسفة اليونان الاوائل بالنسبة للميتولوجيا اليونانية^{٢٨}.

في حين تقوم فلسفة ابن عربي على ما يمكن تسميته ما بعد التسامح وابرار القدرة الانسانية على تجاوز مفهوم التسامح مع الآخرين من اجل للتواصل والحوار وهذا ما عبر عنه بقوله:

²⁶ عبد الحسين شعبان : فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي ، دار النهار ، بيروت ٢٠٠٥ ص ٩٥
²⁷ شمس الدين الكهاتني : مفاهيم حقوق الانسان في المذاهب الاسلامية في محمد عبد الجباري: حقوق الانسان في الفكر العربي دراسات في التصوُّص مصدر سابق ص٣٤٣
²⁸ المصدر نفسه - ص ٣٥٣

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
وبيت لاثوان وكعبة طائف
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين للحب انى توجهت
ركائبة فالحب ديني وإيماني

ويعلق منصف المرزوقي على الابيات الثلاثة بالقول: ان ما يدعوننا اليه ابن عربي من موقف ديني وروحاني بحث ليس ان نتسامح مع عقائد الآخرين وإنما أن نمتلكها وهو الموقف الذي نادى به المشرع العالمي في اعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي عندما اشار الى ذلك بقوله ((تشكل الثقافات بما فيها من تنوع وخصب وبما بينها من تباين وتأثير متبادل جزء من التراث الذي يشترك في ملكيته البشر جميعاً²⁹)).

اما الفلاسفة المسلمون الآخرون فقد اشاروا ايضاً الى الفروق بين الافراد وبين الجماعات فالفارابي يشير بشكل واضح الى اختلاف الانسان عن اخيه الانسان في مقدار حظه من القوة الناطقة³⁰ والغزالي يتحدث عن اناس لا يحيون الا الله تعالى، واناس لا يعرفون لذة المعرفة ولا حب الله ويسعون للجاه والرئاسة والشهوات البدنية واناس وسط بين هؤلاء واولئك³¹.

ويبلغ التسامح قمته في موقف ابن رشد من اراء المخالفين والخصوم حينما يلوم الغزالي على كونه لا يحاول ان يفهم موقف الخصم بل يحكم بفساده دون اعتبار المقدمات التي انت اليه فيقول ومن العدل كما يقول الحكيم ارسطو ان يأتي الرجل من الحجج لخصومه بمثل ما يأتي به لنفسه، اعني ان يجهد نفسه في طلب الحجج لخصومه كما يجهد نفسه في طلب الحجج لمذهبه وان يقبل لهم من الحجج النوع الذي يقبله لنفسه³²)).

²⁹ نقلًا عن هيثم مناع: الانسان الكامل في الثقافة العربية - الاسلامية في: محمد عابد الجابري، حقوق الانسان في الفكر العربي - مصدر سابق ص ٣٧٦-٣٧٧.

³⁰ محمد علي ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعرفة العلمية، الاسكندرية ١٩٨٣ ص ٢٧٤-٢٧٥.

³¹ المصدر نفسه، ص ٥٠٠-٥٠٧.

³² محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر مصدر سابق ص ٢٣.

والمتابع لتطور الفكر السياسي الغربي يستطيع ان يلمس بدايات التعاظمي مع هذه المفردة ففي معرض اشدته بالديمقراطية والنظام المطبق في اثينا يشير باريكليس^{٣٣} الى ان ((ديمقراطيتنا ترتكز الى مبدئين اساسيين:

الاول هو المساواة امام القانون

الثاني حرية التعبير عن الرأي

وبالاضافة الى المساواة امام القانون والى حرية التعبير عن الرأي فإن باريكليس حدد العلاقة الاخوية بين المواطنين كركيزة ثالثة وتتمثل هذه العلاقة بالتسامح وحسن المعاملة وتقديم العون للآخرين^{٣٤}.

واحدث سقراط تحولاً في وظيفة الفلسفة فبعد ان كانت منصرفة الى البحث في مشكلات الطبيعة طالب سقراط من خلال مقولته ((اعرف نفسك بنفسك واعرف انك لاتعرف)) بتوجيه بحثها نحو الانسان^{٣٥} وان غاية الفلسفة في نظر سقراط هي صياغة النفس الانسانية وطبعها على الحق والخير والجمال وتحقيق مجتمع فاضل^{٣٦}.

وبتواضع كبير يرى سقراط ان معرفة الانسان محدودة وهو بحاجة ماسة الى التعلم والتواضع ففي محاوراة الدفاع بعد ان اخبره صديقه شريفون عن قول كاهن معبد دلفي ان سقراط اكثر الناس حكمة قال سقراط انه تعجب وأراد ان يحل هذا اللغز ((لاني علم ان ليس لدي من الحكمة كثير او قليل))^{٣٧}، وفي مكان اخر يقول ولقد جرى الناس على تسميتي بالحكيم اذ خيل لهم انني ما فتئت احمل الحكمة التي تعوزهم ولكن الله ابها الاثينيون هو الحكيم الأوحد، ولعله اراد بجوابه ان الحكمة في البشر ضئيلة او معدومة^{٣٨}.

وكانت فكرة التسامح الحديث قد ارتبطت بالمسألة الدينية عند بداياتها لدى الفيلسوف جون لوك ١٦٣٢-١٧٠٤ الذي عالج هذه المسألة في اهم كتاباته (رسالة في التسامح) التي

^{٣٣} زعيم اثيني ٤٩٩ - ٤٢٩ ق. م. اصبح رجل اثينا الاول بعد الحرب الميديّة وقد اشتهر بآفته وميافله الديمقراطية في اعطاء الشعب حق الاشتراك في السلطة العامة ومراقبة اعمالها انظر مارسيل بريلو - جورج ليمسكية ، تاريخ الأفكار السياسية - الاطالية للنشر والتوزيع والاعلان بيروت ١٩٨٦ ص ٢٥

^{٣٤} المصدر نفسه . ص ٢٥

^{٣٥} محمد جلوب فرحان . دراسات في فلسفة التربية مطبعة التعليم العالي - الموصل ١٩٨٩ ص ١٧

^{٣٦} المصدر نفسه ص ١٨

^{٣٧} حسام الاوسى . الفلسفة اليونانية قبل ارسطو . دار الحكمة للطباعة والنشر بغداد ١٩٩١ ص ١٦٤

^{٣٨} المصدر نفسه ص ١٦٤

حررها في عام ١٦٨٥ و لم تنشر الا في عام ١٦٨٩، و ينطلق لوك في هذه الرسالة من (تحليل مادي للسلطة السياسية و يبرهن على انها غير قادرة ماديا و نفسيا على اجبار المواطنين على الاخذ بهذه العقيدة او تلك بما انه لا قيمة لاي عقيدة الا اذا تم اعتناقها بحرية و من هذه المقدمة يستنبط لوك بعد ذلك النتيجة التي فرضت نفسها عليه و هي انه يتعين التمييز باكبر قدر من اللوضوح بين الدور الخاص لكل من الدولة و الكنيسة)^{٣٩}.

لان الدولة ينصب هدفها على حماية حقوق الانسان و السهر على مصالحهم، اما الكنيسة فيتمثل هدفها في الحث على العبادة و اقامة الطقوس التي تقود الناس الى الخلاص. و يترتب على ذلك انه يتعين على الكنيسة ان تتقيد بحدود الكنيسة و يحرم عليها ان تمتد الى الشؤون المدنية باختصار يتعين على الكنيسة ان تكون منفصلة و متميزة تماما عن الدولة، و يترتب على هذا الفصل واجبات متبادلة بين الجانبين اي واجب التسامح من جانب الدولة و واجب التحفظ من جانب الكنيسة^{٤٠}.

لذلك يفرض لوك على الدولة ان تضمن التعبير الحر فوق اراضيها لجميع المعتقدات السياسية و الفلسفية و الدينية بشرط ان لا تخل تلك المعتقدات بالنظام العام، لأن كل البشر يملكون الحق في الحرية الطبيعية ولكنها حرة مشروطة بالأخلاق و القانون الطبيعي و جوهر القانون الطبيعي هو العقل (لقد ولدنا أحراراً، تماماً كما ولدنا عاقلين) والذي يجب أن يستخدم بشكل صحيح لرسم آفاق سليمة للبشر.

و يعود الفضل لفولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) في دقة وروعة التعبير عن مفهوم التسامح فقد كان جوابه عن سؤال ماهو التسامح؟ ((انه نتيجة ملازمة لكيونتنا البشرية اننا جميعاً من نتائج الضعف: كلنا هشون وميالون للخطأ لذا دعونا نتسامح بعضنا البعض و نتسامح مع جنون بعضنا البعض بشكل متبادل و ذلك هو المبدأ الاول لقانون الطبيعة المبدأ الاول لحقوق الانسان كافة))^{٤١}.

^{٣٩} كريستيان بولا كليبقي . الفلسفة السياسية اليوم . ترجمة نبيل سعد عيّن للدراسات و البحوث الاسبقية و الاجتماعية . القاهرة . الطبعة الاولى ٢٠٠٣ ص ٥٣

^{٤٠} المصدر نفسه ص ٥٤.

^{٤١} كلرل بوير : التسامح و المسؤولية الفكرية . في سمير الخليل و اخرون . التسامح بين شرق و غرب ترجمة ابراهيم العريس . دار الساقي . الطبعة الاولى بيروت ١٩٩٢ ص ٧٦.

وكانت حصيلة وتفاعل المبادئ الانسانية التي اشاعتها الديانات السماوية اضافة الى النتائج الفلسفي والفكري انتشار قيم الحرية والتسامح والدعوة الى اعمالها للوصول بالمجتمع الانساني الى غايته المنشودة.

المبحث الثاني:

ثقافة التسامح: جدل الفكر وتوظيف السياسة

يمكن القول ان اعلان الامم المتحدة حول التسامح اضفى على هذا المفهوم ابعاده الثقافية والسياسية والقانونية حينما اشار الى ان ((التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير وللصفات الانسانية لديننا، ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد انه اللوائم في سياق الاختلاف. وهو ليس واجباً أخلاقياً فحسب وإنما واجب سياسي وقانوني أيضاً، والتسامح هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام ، ويسهم في احلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب⁴² وتمثل هذه الافكار المقدمات الصحيحة التي لا يمكن بدونها الحديث عن نتائج وتقدم على صعيد العلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين الدول والشعوب او حتى على صعيد البلد الواحد ، ولكن هذه الافكار لم يتم تبنيها والعمل بموجبها فعلى المستوى العالمي لوضحت التجربة الماركسية - اللينينية ونموذجها السوفيياتي ان ((الماركسية لم تسقط كمنهجية ولكن سقط مشروعها الراديكالي لتغيير العالم))⁴³، والذي دفعه الى اتباع رؤيته تقوم على ان اي نقد يوجه لهذه التجارب هو بمثابة تأمر وخيانة عظمى لايمكن السكوت عليها تحت ذريعة مواجهة النظام الرأسمالي وكان من ابرز نتائج هذا التوجه هو الجمود والانغلاق وعدم الانفتاح على الصعيد الداخلي وهذا ما قاد الى غياب المبدأ الحاكم في الاحزاب الماركسية- اللينينية الا وهو مبدأ ((المركية الديمقراطية)) وتراجع الحديث عن ديكتاتورية البروليتاريا باعتبارها الطبقة المؤهلة لقيادة التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية نحو المجتمع الشيوعي لصالح للجنة المركزية والامين العام للحزب واقتصر دور المنظمات الحزبية

⁴² اعلان مبادئ بشأن التسامح . منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة ١٦ تشرين الثاني ١٩٩٥ .

⁴³ السيد يمين : من اجل تحليل ثقافي لقواهر العالم المعاصر . حوار اجراه عبد الله بالقرنيز . المستقبل العربي السنة

٢٨ العدد ٣١٩ مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ١٩ / ٢٠٠٥ ص ٣٢

والجمهورية على دور ((الحزام الناقل)) وهذا ما قاد الى اتساع دور الدولة وحد من حق النقد والحوار وتشخيص الاخطاء وكان السبب في وأد روح المبادرة والابداع. ولم يكن الحال افضل في العلاقة مع الاحزاب والتيارات السياسية الاخرى فقد جرى التعامل معها بقسوة شديدة ولجبر قسم منها على الانضواء في ((جبهات وطنية)) يتحكم فيها الحزب الشيوعي.

وعلى صعيد العلاقات للدولية والتعامل مع الاخر المختلف فكرياً وسياسياً واقتصادياً بدء صراع بأشكال مختلفة للسيطرة على المواقع الاستراتيجية والموارد والاسواق تحت حجج وذرائع لايمكن تصديقها والقبول بها فالاتحاد السوفياتي كان يصور هذا الصراع على انه بين قوى السلم وقوى الحرب، مابين نظام اقتصادي واجتماعي اكثر اتقافاً وتلاوماً مع مقتضيات التطور الانساني الهادف هو النظام الاشتراكي وبين نظام اخر يتصادم ومنطلق التطور التاريخي^{٤٤} نظام تسيره الاحتكارات ويتغذى على الحروب ويستمد قوته من استغلال الاقلية للاغلبية^{٤٥} هو النظام الرأسمالي.

اما المعسكر للرأسمالي فكان يرى في الاتحاد السوفياتي ودول اوربا الشرقية أنظمة سياسية ديكتاتورية لاتقيم وزناً للديمقراطية وحقوق الانسان من خلال تصوير الولايات المتحدة والغرب كقوة للحرية.

ومثلت حقبة الحرب الباردة سلسلة متصلة من الصراعات اختلفت في حدتها وادواتها واساليبها من مرحلة الى اخرى وبما يعبر عن شكل الصراع وشموليته بين القوتين العظيمين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والذي تمحور حول ثلاثة اشكال رئيسية^{٤٦}:

١. صراع فكري بين الرأسمالية والشيوعية بما له من انعكاسات اقتصادية وسياسية.

^{٤٤} ق. افلاكي سيف. اسمس الظلمة الماركسية. ترجمة عبد الرزاق الصلبي، دار الفارابي، بيروت دار النهضة بغداد ص ٢٤٩.

^{٤٥} يشير تقرير للامم المتحدة ان ٢٥٨ شخصاً من كبار الاثرياء في العالم يملكون حجم مصادر ثروتهم النقدية حجم المصادر التي يعيش منها ملياران وثلاثمائة مليون شخص من فقراء العالم وبعبارة اخرى ان عشرين في المئة من كبار اغنياء العالم يكتسبون ثروا يبنهم ثمانين في المائة من الانتاج الداخلي للخم على الصعيد العالمي وان الفتي والثروة ارتفعت بنسبة ستين بالمئة في الولايات المتحدة الامريكية بين عام ١٩٧٥ - ١٩٩٥ غير ان المستفيدين من هذا الارتفاع الكبير في الفتي والثروة لايتجاوز عددهم نسبة واحد بالمئة من الشعب الامريكي. للمزيد من التفاصيل حول الموضوع انظر. محمد عبد الجباري مصدر سابق ص ١٤٠.

^{٤٦} لمقي محمود فهمي: حقوق الانسان في علاقات الشرق والغرب. السياسة الدولية، العدد ٩٦ نيسان ١٩٨٩ ص

٢. صراع عسكري ويشكل انق سباق تسلح تقليدي ونووي بحيث اصبح اي تقسم
بحرزه طرف يمثل خساره للطرف الاخر.

٣. صراع على النفوذ والحلفاء خاصة في العالم الثالث تبلور في صورة نزاعات
اقليمية.

وهكذا فإن مصطلح ((الحرب الباردة)) انما يشير في الواقع الى ((الصراع على
النفوذ الذي اعقب الحرب العالمية الثانية بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي
حيث كانت سياسة كلاً من القوتين تسعى الى توسيع دائرة نفوذها وتقليص دائرة نفوذ الخصم
وحيثما وجد تدخل في دوائر النفوذ زاد التوتر واشتد الصراع وربما جرت معارك))^{٤٧}.

وقد نجحت الولايات المتحدة في توظيف كافة ادواتها السياسية والاقتصادية
والاعلامية في هذه الحرب وجر الاتحاد السوفياتي الى سباق تسلح وانفاق عسكري لايتقوى
عليه بلغ نروته في عهد الرئيس الامريكي الاسبق رونالد ريغان الذي اطلق مبادرة الدفاع
الاستراتيجي ((حرب النجوم)) اضافة الى اسباب داخلية تتعلق بالاتحاد السوفياتي قادت الى
انهياره وانفراد الولايات المتحدة بالهيمنة والتفرد في قيادة العالم ورفض الاخر واقصائه في
ظل ما يسمى ((النظام الدولي الجديد)).

ولم تكن بلدان العالم الثالث والوطن العربي على وجه التحديد خارج حلبة هذا
الصراع بل ان هذا الصراع كان في اغلب مراحله بين هذه الشعوب ومع السياسات الغربية
التي كانت تقاوم على مختلف الجبهات من اجل هدف واحد هو مصالحها وان هناك ثابتاً
واحداً اساسياً في موقف الغرب والباقي متغيرات، والموقف من العرب او من الاسلام او من
الصين او من اليابان او من اية دولة اخرى في العالم يتغير دائماً وقد يقفز من النقيض الى
النقيض اذا اقتضى ذلك منطق ((الثابت)) وليس الثابت في تحركات الغرب شيئاً اخر غير
المصالح فعندما تمس مصالح الغرب او يكون هناك ما يتهدها تغير الموقف))^{٤٨}.

^{٤٧} محمد عبد الله الصالح . تطور ظاهرة الصراع الدولي وافاقها في القرن الحادي والعشرين . رسالة ماجستير غير
منشورة كلية العلوم السياسية . جامعة النهرين ٢٠٠٥ ص ٤٦
^{٤٨} محمد عبد الجباري ، مصدر سابق ص ١٢٧ .

وكان هذا الصراع وما يزال ضد الغرب لا كشعوب وحضارة بل ضد سياسته الاستعمارية وهيمنته الامبريالية لما الحضارة الغربية سواء الجانب الصناعي فيها او الجانب التنظيمي والمعيشي والفكري والعمراني فقد استقبلتها الامم والشعوب المستعمرة بالاعتباس منها والنسج على منوالها وما زالت تفعل^{٩٩}. اذ قد يتمتعن الاتمان على ادراك ذاته بأدراكه خصائص الاخر مثلما حاول هذا التمرين المعرفي المفكر المصري محمد رفاعة الطهطاوي من خلال اكتشافه الاخر في باريس ومثلما رام ذلك المصلح التونسي خير الدين في كتابه اقوم المسالك، ويسمى الطاهر ليبب هذه الطريقة المعرفية بـ(مطاردة الذات في فضاءات الاخرية)^{١٠٠}.

وبعد حسم الصراع لصالح الولايات المتحدة وانهيار الاتحاد السوفياتي والكتلة الاشتراكية التي يمثلها بدأ الخطاب السياسي الأمريكي يؤكد على ضرورة نشر القيم الغربية في العالم والامريكية منها على وجه الخصوص وبهذا الصدد تبرز تظلمات جوشوا مورافيتشك وهو من الباحثين البارزين في السياسة الخارجية الامريكية والمعبر بصديق عن توجهات المحافظين الجدد في ان (تلعب الولايات المتحدة الامريكية دوراً في نشر الفهم الغربي للديمقراطية وحقوق الاتمان من خلال الدبلوماسية الهادئة والمساعدات ومن خلال العمل العسكري اذا لزم الامر)^{١٠١}.

وتم للتعبير عن هذا الدور "الهيمنة" بعبارة مثل الزعامة والقيادة والريادة لجعلها مستساعة اكثر من قبل العالم وهذا ما اشار اليه الرئيس الأمريكي الاسبق ريتشارد نيكسون ((اننا نعيش في عالم تنفرد فيه الولايات المتحدة كقوة عظمى فالزعامة الامريكية للعالم سوف تبقى عنصراً لاغنى عنه عبر العقود القادمة ويضيف ان العالم يحتاج الى قيادة امريكا

^{٩٩} المصدر نفسه، ص ٩٩.
^{١٠٠} الطاهر ليبب، صورة الاخر - العربي نظراً ومنظوراً مقدمة لدراسات وبحوث نخوة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٩ نقلًا عن مصطفى الفيلالي، صورة الاخر - المستقبل العربي العدد ٣١٨ السنة ٢٨ اب ٢٠٠٥ ص ١٢
^{١٠١} محمد فهم يوسف، حقوق الاتمان في ضوء التجليات السياسية للزعامة في برهان ظييون حقوق الاتمان الرؤى العالمية والاسلامية والعربية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة كتب المستقبل العربي (٤١) بيروت ٢٠٠٥ ص ١٢

عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وأكثر من أي شيء آخر يحتاج العالم إلى قيادتنا في مجال الفكر^{٥٢}.

وقد دلت المسيرة السياسية للولايات المتحدة على أن معرفة الإنسان الأمريكي لنفسه وتعظيم دوره وتأهيل ذاته لقيادة العالم كانت حاجباً له عن إدراك الآخر بل حتى الإقرار بأهليته للرفق وهذا يتقاطع مع ثقافة التسامح حسب ما افاد به مفكرون معتدلون أمثال نعوم تشومسكي وإيما نويل ثود^{٥٣}.

وبناء على ما تقدم يصح الرأي الذي يقول ((إن مركزية نظرة الإنسان الأمريكي إلى ذاته في رسالته التبشيرية وفي منزلته الكونية لا يمكن أن توجد بنصيب من التقدير للإنسان الآخر وليست تحتل جانب الصواب في ما يكون لهذا الآخر من توجه فكري أو من نزعة خصوصية أو زاد ثقافي بل إن هذه المركزية الفكرية تقوم على عقيدة قصائية لا مكان فيها للاختلاف والتنوع^{٥٤}.

فبينما تجتمع في الـ ((أنا)) كل الصفات الإيجابية فإن الآخر يجسد كل الصفات السلبية وبهذا المعنى تم تصوير الشرق في الغرب في فترة ولادة القوميات وتعزيزها في العصر الامبريالي ، حيث لزم على المنتصرين الغربيين تبرير سيطرتهم على الآخرين ليس عن طريق مصالحهم الاقتصادية أو تفوقهم العسكري ولكن عن طريق تفوقهم العرقي والثقافي ودونية هذا الآخر^{٥٥}.

إن عالماً يفكر إلى العنل إلى الاعتراف بالآخر وبحقه في امتلاك خصوصية خاصة به وفي تقرير مصيره سواء كان هذا الآخر فرداً أو أقلية دينية أو عرقية أو كان شعباً أو أمماً مبني أصلاً على الظلم على اللاتسامح ، وبالتالي فلا معنى لرفع شعار التسامح ما لم يكن مقروناً بالعنل الذي ينطلق من حق الغير في الاختلاف والتعبير عن أفكاره وسياساته^{٥٦}.

^{٥٢} ريتشارد نيكسون - أمريكا والفرصة التاريخية . ترجمة محمد زكريا اسماعيل . بيروت مكتبة بيمسان ص ٦٣ .

^{٥٣} ١٩٩٢ ص ١٩ .

^{٥٤} مصطفى الفيلالي . نحن والآخر . مصدر سبق ذكره ص ١٣ .

^{٥٥} المصدر نفسه، ص ١٣ .

^{٥٦} فرنر كلاوس روف . هل الديمقراطية حكر على الغرب في جان فرايسوا بايلر . الإسلام والفكر السياسي . المركز الثقافي العربي - بيروت لبنان - الدار البيضاء المغرب الطبعة الأولى ٢٠٠٠ ص ٢٣ .

^{٥٧} محمد عابد الجابري قضايا في الفكر المعاصر ، مصدر سابق ص ٣٢ .

ورغبته في إجراء حوار عقلاني وصادق يهدف الى تحقيق مصالح واهداف الطرفين وليس وفقاً لقواعد يحددها الغرب وفي ظل ظروف تخدم مصالحه السياسية واهدافه من الصدام والحوار معاً^{٥٧} وعند الوقوف على طبيعة العلاقة بين الاثنا والاخر على صعيد الوطن العربي يمكن تأشير اربعة تيارات سياسية تنازعت فيما بينها طيلة القرن الماضي ولحد الان هي ((التيار القومي والتيار الليبرالي والتيار الاسلامي والتيار الماركسي والتي انتجت اربعة خطابات (القومي-الليبرالي-الاسلامي-الماركسي) وكان كل خطاب يقوم على قضية رئيسية يتحرك من خلالها فاشكالية الخطاب القومي قائمة على فكرة الوحدة العربية واشكالية الخطاب الليبرالي قائمة على مسألة الحرية والديمقراطية واشكالية الخطاب الاسلامي قائمة على الهوية واشكالية الخطاب الماركسي قائمة على الاشتراكية^{٥٨}.

وكان كل تيار سياسي يشدد على منطلقاته الفكرية وللرؤية السياسية التي يطرحها ، فالتيار القومي يشدد على الوحدة العربية لان تحقيقها سيفضي الى تحقيق الحرية والاشتراكية . والتيار الليبرالي يرى ان مشاكل الوطن العربي تكمن في غياب الحرية والديمقراطية وللتيار الاسلامي منحنى اخر حينما يؤكد ان الحفاظ على الهوية هو المفتاح لحل المشاكل الاخرى والتيار الماركسي الذي يشدد على هدف الاشتراكية.

وفي المحصلة النهائية لم يتحقق شيء على ارض الواقع ولا زالت المشكلات على حالها واصبحتا بعيدتين عن الوحدة العربية ويات الحفاظ على الهوية مهمة شاقة وعسيرة وتبخر حلم الاشتراكية ولم تتحقق الديمقراطية وفي ظل هذه الازمات نحن في حاجة ماسة الى مستوى جديد وعال من الجدل وخطاب شامل جامع يعلو على الخطابات الفرعية والى رؤية ومشروع يشتمل على العناصر الآتية^{٥٩}:

١. تحقيق الحريات الاساسية للانسان مستقاة من النموذج الليبرالي.
٢. تحقيق العدالة الاجتماعية مستقاة من النموذج الاشتراكي.
٣. تحقيق الاصالة الحضارية مستقاة من النموذج الاسلامي.

^{٥٧} جميل مطر . حوار الحضارات السياسي اولا . المستقبل العربي السنة ٢٨ العدد ٣٢٥ اذار ٢٠٠٦ ص ٥٧ .

^{٥٨} السيد بسين . من اجل تحليل ثقافي لقواهر العالم المعاصر . مصدر سابق ص ٤١ .

^{٥٩} المصدر نفسه ص ٤٢

ومثل هكذا مشروع يتطلب مشاركة واسعة من قبل للنخب السياسية والحزبية في السلطة وخارجها ورجال الفكر والثقافة والاعلام ومؤسسات المجتمع المدني لأن ((التحدي الاساسي الذي يواجه العالم العربي يتعلق بقدرتنا على اللحاق بالركب الحضاري وهنا يتطلب الامر تقديراً سليماً لحاجاتنا الملحة ومتطلباتنا الاساسية بشأن التغيير والتقدم، عبر التطور والوسطية والاعتدال والبحث عن المشترك الانساني والاعتراف بالآخر والتسامح في التعامل معه وهو ما نطلبه لانفسنا من الآخر ايضاً^{٨٠}.

((المبحث الثالث))

العملية السياسية في العراق وثقافة التسامح

إذا كانت السياسة وفقاً للمفهوم اليوناني ((فن الاتحاد بين الناس من اجل توجيه الحياة الاجتماعية والحفاظ عليها))^{٨١} فإن الظرف الحالي الذي يمر به العراق يبرز هذه المقولة ويدعمها لانها منسجمة ومتناغمة مع الحقيقة الابرز بين إحقاق التي تمخض عنها الجدل الفكري والصراع السياسي والعنف بأشكاله المختلفة القائلة بأن فكرة الغاء الآخر واقصائه لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح.

لقد شهد العراق تحولات سياسية للفترة الممتدة من ١٤ تموز ١٩٥٨ - ٩ نيسان ٢٠٠٣ وعلى الرغم ما صاحب هذه التحولات من عنف سياسي وضعف المشاركة السياسية وغياب ثقافة التسامح فإن الدولة ومؤسساتها ظلت قائمة ولم يحصل ما حصل في عام ٢٠٠٣ بعد الاحتلال الأمريكي للعراق وتخطيط الادارة الامريكية لتقويض ركائز الدولة العراقية وحدث فراغ سياسي وامني واجتماعي خطير لم يسبق له مثيل، وهذا ما طرح اشكالية اعادة بناء الدولة العراقية من جديد وضرورة ارساء قيم الديمقراطية وحقوق الانسان والتسامح ولم يكن لهذه التطورات نصيبها من النجاح نتيجة عوامل داخلية ولقلمية ودولية تسأتي في مقدمتها العوامل للداخلية المتمثلة في طبيعة النخب السياسية والحزبية والعلاقات القائمة بينها ورويتها للحل المنشود، فبعد تجربة قاسية مريرة شهدتها السنوات الماضية بدأت هذه النخب تتحدث

^{٨٠} د. عبد الصمد شعبان، فقه التسامح في الفكر العربي الاسلامي، مصدر سابق ص ١٦٢.

^{٨١} مارسيل بريلو - جورج ليمكييه، تاريخ الافكار السياسية، مصدر سابق ص ٥٧.

عن ضرورة طرح مشروع وطني يكون بعيداً عن المحاصصة الطائفية والعرقية يمكن ان يساهم في إيجاد الحلول للمشاكل التي تطفوا على الساحة العراقية.

كان الخطأ الأول الذي ارتكبته هذه النخب هو الاسراع في تشكيل السلطة السياسية وليس بناء الدولة ومؤسساتها لتكون الحاضنة للمشروع الوطني الذي طال انتظاره.

اما الخطأ الثاني فكان تشكيل السلطة السياسية على اساس طائفي وعرقي واصبحت عائقاً امام بناء الدولة بعدما تغلغلت هذه المحاصصة الى مفاصل عدة في المؤسسات الحكومية والخطأ الثالث وهو اشدها خطراً وفتكاً هو الصراع على السلطة وانعدام الثقة بين السياسيين العراقيين حيث مكنت الآخرين من التدخل بشكل سافر في الشأن العراقي سواء كان ذلك الآخر محتلاً او دول حوار بما يؤمن مصالحهم ولايصب في المصلحة الوطنية.

ويمكن ملاحظة ذلك من خلال المؤتمرات التي عقدها دول الجوار للعراق بالاضافة الى الطرف الامريكي حيث ما فتأت هذه الدول تعلن عن دعمها للعملية السياسية وحرصها على وحدة وسلامة واستقرار العراق ولكن واقع الحال يشير عكس ذلك لان الحقيقة التي بات يدركها الجميع أن الثالوث التبغيض: الاحتلال والارهاب وبعض دول الجوار تشاركوا وعملوا سوية على تصديع نسيج المجتمع العراقي وخلق حالة من الافتراق بلغت ذروتها في بعض الاحيان الى حد الاحتراب بين ابناء الشعب وتعمق هذا الشرخ في ظل الصراع على السلطة ونزعات الاستئثار والمحاصصة والفساد المالي والاداري^{٩٢}.

وهذه المسألة تضع صانع القرار السياسي في العراق أمام حقيقة ان حل المشاكل التي نعاني منها تقع على كاهل ابناءه ولاضير ان نتلقى بعض الافكار البناءة والدعم من هذا الطرف او ذاك ولكن لايمكن بأي حال من الاحوال ان يحل ويتحدث الآخر نيابةً عنا لأن هذه مفارقة لايمكن قبولها بعد ان كشفت الاحداث والوقائع لتقاء منطق الاحتلال وبعض دول الجوار على اللعب على ورقة خطيرة هي ورقة الطائفية والعرقية وهم بذلك ارادوا أن يقولوا

^{٩٢} أحمد التلجاني . المصالحة خيار واحد على صدارة المهتمات الوطنية في عراق الصراع والمصالحة . كتاب الحوار المتمين ، دار الشروق للطباعة . الطبعة العربية الاولى . بغداد ٢٠٠٧ ص ١٢٩

العراق فيه العرب والاكرد والتركمان وبقية الاقليات وفيه الشيعة والسنة والمسيحيين وما نصنعه هو تمثيل الواقع العراقي بكل مكوناته!

ولم يدرك هؤلاء او هم ارادو ذلك ان يرسموا للعراق صورة قائمة وغير واضحة المعالم والالوان ولاتعبر عن تاريخه ودوره الحضاري، ان هذه التعددية وهذا للتنوع التي ينظر اليها البعض على انها نقطة ضعف وعدم استقرار فأنها في الحقيقة والواقع مصدر قوة للدولة والمجتمع اذا ما تم التعامل معها برؤية صحيحة تنسجم بوضوح الاهداف والوسائل وتضع المصلحة الوطنية فوق اي اعتبار اخر ولنا في التجربة الماليزية مثال ساطع يمكن الاستشهاد به ((فماليزيا عاشر اسرع اقتصاد نمواً في العالم خلال الفترة ١٩٧٠-١٩٩٠ مثال على دولة متنوعة لثنيًا وناجحة اقتصادياً، اذ ان ٦٢٪ من السكان ملايون و ٣٠٪ صينيون و ٨٪ هنود))^{٦٣} وعلى الرغم من هذا التنوع الاثني فالنموذج الماليزي القائم على قبول الآخر والتواصل معه انتج استقراراً سياسياً واجتماعياً^{٦٤} قاد البلاد الى نجاحات عديدة .

وفي خضم هذه التجاذبات والصراعات جاءت فكرة المصالحة الوطنية وهي فكرة جميلة سبقتنا اليها الكثير من الدول والشعوب^{٦٥} حيث يدعوا برنامج المصالحة الوطنية من بين جملة أمور الى نبذ العنف بجميع اشكاله والالتزام بحل الخلافات بوسائل سياسية وقانونية ويحذ القيام بعملية سياسية شاملة ترمي الى بناء الثقة وطمأننة من يشعرون بالخوف والاقصاء (لأن جوهر المصالحة يقوم على استحضار العقل الغائب واستدعاء الحكمة المغيبة ومنطقها يبدأ من مثابة التسامح والحوار مع الآخر والتعايش معه والاعتراف به اطارها العدل والسلم الاجتماعي والتأخي والتساكن والالفة ونبذ الانتقام ومجمل هذه القيم النبيلة نابعة من روح الدين الاسلامي والديانات السماوية الاخرى ومتماهية مع نداءات الضمير الانساني والفكر الحر الخلاق^{٦٦}.

^{٦٣} تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٤ الحرية الثقافية في عالمنا المتنوع . عرض مصطفى محمود عبد السلام المستقبل العربي المنه ٢٧ العدد ٢١١ ٢٠٠٥/١ ص ١٧٢

^{٦٤} احمد محمد مطر . الراي لعالم العراقي - الى اين . اوراق عراقية ، مركز الفجر للدراسات العراقية العدد ٢ تموز ٢٠٠٥ ص ٢٢

^{٦٥} للاتلاخ على بعض التجارب في المصالحة الوطنية انظر . احمد التلجي المصالحة خيار واعد على صدارة المهمات الوطنية. مصدر سابق. ص ١٢٠ .

^{٦٦} المصدر نفسه. ص ١٢١

والقيام بهكذا مهمة وكما جاءت في وثيقة العهد الدولي ((مسؤولية الحكومة تجاه مواطنيها بغية ارساء مؤسسات وممارسات تنسم بالشفافية يخضع من خلالها موظفوا الدولة للمحاسبة عن افعالهم والاعتراف بأن امن وازدهار وسعادة الشعب العراقي يتوقف على التزام الحكومة العراقية بمواصلة الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية الاساسية^{٦٧}.

وهكذا باتت الدعوة الى المصالحة الوطنية الحديث الشاغل للكثير من السياسيين والاعلاميين وعموم المواطنين سواء كان ذلك على الصعيد الداخلي او الاقليمي او الدولي حتى لا يكاد خطاب من خطاب الرئيس الامريكي جورج دبليو بوش يخلو من موضوع المصالحة الوطنية وضرورة الربط بين التقدم الامني الحاصل على الارض وتعثّر العملية السياسية!

ولذا كان الجميع مهتماً الى هذا الحد بموضوع المصالحة الوطنية فإن المصالحة ليست شعاراً يرفع وإنما يجب ان تكون ((استراتيجية العمل للمرحلة القادمة))^{٦٨} كما يرى السيد نوري المالكي رئيس الوزراء العراقي، اي ان المسألة لا ترتبط بطرح الفكرة وتسويقها بل ان المهم والصحيح هو تهيئة مستلزمات نجاحها واول هذه المستلزمات هي رؤية الاطراف المختلفة لفكرة المصالحة الوطنية وكيفية تحقيقها والنتائج المرجوة منها .

ونقطة الشروع في هذا المسعى هو ما اطلق عليه الفلاسفة والعلماء ((النسبية)) نسبة الحقيقة والمعرفة وان نقبل بمبدأ ((قابلية الوقوع في الخطأ)) وان نحنو حنو فولتير في اخذه على محمل الجدية مسألتين: قابلية البشر للوقوع في الخطأ والتسامح^{٦٩} ويمكن التعبير عن ذلك في الصيغة الاتية ((قد أكون انا على خطأ وقد تكون انت على صواب. وقد يكون هذا مدخلاً كافياً للوصول الى تسامح متبادل والى مجتمع صالح حسب رؤية كارل بوبر والذي يضع هذه الصيغة في ثلاث مبادئ او ثلاثة اجزاء^{٧٠}:

(١) قد أكون انا على خطأ وقد تكون انت على صواب.

(٢) دعنا نتفاهم حول الامور بشكل عقلاني.

٦٧ صوت العراق 2007/4/17. www.sotaliraq.com

٦٨ جريدة الصباح العدد ١١٣١ ٥ حزيران ٢٠٠٧

٦٩ كارل بوبر . التسامح والمسؤولية الفكرية . مصدر سابق، ص ٨٦ .

٧٠ المصدر نفسه، ص ٩١.

(٣) قد يكون من شأننا ان ندنو من الحقيقة حتى ولو لم نصل الى اتفاق.

لنقطة الرئيسية هنا هي فكرة الاقتراب من الحقيقة حتى وإن لم نتفق لأنه من الاهمية بمكان أن نتمكن من التعلم بعضنا من البعض لنرى بالتالي اننا كنا مخطئين وأنه لمن المهم الان نطلب أكثر مما ينبغي من نقاش عقائدي.

ولكن لم يتحقق هذا النوع من التفاهم كما يطلب كارل بوير للوصول الى مقاربة فكرية وسياسية تساعد على الحل، واثبتت تجارب انظمة الحكم المتعاقبة على العراق منذ عام ١٩٥٨ ولحد الان ان القاسم المشترك الاعظم الذي يجمع بينها هو غياب ثقافة التسامح والاعتراف بالآخر وممكن الخطورة في هذا السلوك "ان التنشئة الاجتماعية والسياسية انتجت سلوكاً اجتماعياً وسياسياً جديداً تولد بعد سقوط نظام صدام حسين لا يختلف عن السلوك الاجتماعي والسياسي القديم الذي ساد اثناء حكم حزب البعث والمتمثل بعدم القبول والاعتراف بحق الآخر في الاختلاف".^{٧١}

واتساقاً مع هذه الافكار تبدو الساحة العراقية في لمس البجاجة الى جدل فكري وسياسي يهدف للوصول الى مشتركات ((مقاربات)) من شأنها ان تجسر الفجوة بين الاطراف المختلفة وتؤسس للغة الحوار العقلاني البناء الذي هو غائب عن الساحة العراقية والتوافق على ان ((املئ سبيل لتصويب مسار الحياة السياسية الوطنية هو اعادة تأسيس السياسة من مدخل الاعتراف المتبادل والبحث عن جوامع ومشاركات من شأنها ترغيب الازمة من عوامل التفجر وترشيد الصراع السياسي ليصبح أكثر قابلية للضبط والمعالجة المرنة عند الازمات))^{٧٢}.

ويمكن القول من خلال ما تقدم ان على كافة القوى السياسية والاجتماعية والدينية ان تنطلق من حقيقة ان الاختلاف هو القاعدة وان النماثل هو الاستثناء وان صعوبة الوضع في العراق وتعقيداته لاتعني بأي حال من الاحوال استحالة الحل بل ان العكس هو الصحيح

^{٧١} رعد سالم حافظ : هل يمكن إقامة ديمقراطية في العراق حوايلات الاداب والعلوم الاجتماعية الرسالة ٢٥٤ الحولية ٢٧ الكويت ٢٠٠٦ ص ٢٤

^{٧٢} عبد الله بلقزيز . جنليات الصراع والتوافق في المغرب نحو اعادة كتاب تاريخنا السياسي المعاصر . المستقبل العربي . السنة ٢٨ العدد ٣١٧ اب ٢٠٠٥ ص ١٣٤ .

فحينما تكون ((التحديات كبيرة فإن الاستجابة يجب ان تكون بمستوى هذه التحديات)) كما يرى الفيلسوف ارنولد توينبي.^{٧٣}

وهذا يتطلب أن تستند الفلسفة السياسية وبرنامج العمل على النقاط الآتية:-

١. التأكيد على قيمة الايمان العليا وهذا ما دعت اليه الديانات السماوية، والآيات كثيرة

في القرآن الكريم في هذا الصدد كما في قوله تعالى ((وَلَقَدْ مَكَّنَّا يَكُودًا لِّقَوْمٍ إِذْ ظَاهَرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ مَا بِهِمْ عِلْمٌ فَلَمَّا ابْتُلُوا بِبَأْسٍ كَرِهُوا الْآيَاتِ وَقَدْ أَهْلَكْنَا قَوْمَهُمْ وَلَمَّا سَوَّيْنَا لِلْعَالَمِينَ الْإِسْلَامَ عَلَّمَ كَبِيرُ مِمْ لَقَدْ أَخَذْنَا لِيُخَيِّبَهُمْ^{٧٤})) كما ان الوظيفة الاجتماعية للقانون تهدف للحفاظ على حياة الانسان وحقه في حياة حرة كريمة من خلال تنظيم العلاقة بين المواطنين من جهة وعلاقتهم بالسلطة السياسية من جهة اخرى .

٢. اشاعة الثقافة التي تحل النزعة النسبية في وعي السياسة والمجال السياسي محل النزعة الشمولية وتحل التوافق والتراضي والتعاقد والتنازل المتبادل محل قواعد التسلسل والاحتكار والالغاء فتفتح المجال السياسي بذلك امام المشاركة الطبيعية للجميع وتفتح معه السلطة امام ارادة التداول السلمي عليها^{٧٥}.

٣. ان الهدف النهائي من اي نظام سياسي هو تحقيق العدالة ((فما كان مطلوباً في جمهورية افلاطون وما هو مطلوب في الفكر السياسي المعاصر هو في نهاية المطاف العدالة))^{٧٦} وترميخ قيم المساواة الانسانية بين فئات المجتمع وافراده واعتبارها اسمى من الاختلافات العنصرية او العرقية او الدينية او الجغرافية الجهوية او غير ذلك وما يرتبط بذلك من التسامح وقبول الاخر والتعايش والايمان بالحوار كسبيل لحل الاختلافات وهذا ان يتحقق الا عندما تتمكن الدولة من بسط سلطتها

^{٧٣} د. احمد محمود صبيح ، في فلسفة التاريخ . دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٩٥ ص ٢٧١.

^{٧٤} سورة الاسراء الآية ٧٠

^{٧٥} عبد الله بن قريظ . الانتقال الديمقراطي في الوطن العربي العواثق والمكتشف في علي خليفة الكواري واخرون
المسألة الديمقراطية في الوطن العربي سلسلة كتب المستقبل العربي ١٩٠ بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٠

ص ١٢٧

^{٧٦} محمد عبد الجباري . قضايا في الفكر المعاصر - مصدر سابق ص ٧٢

المادية والقانونية لتكون بديلاً عن كل المظاهر غير القانونية ولأن الدولة الدستورية القوية و العادلة هي غاية ووسيلة في الوقت ذاته.

٤. تبني المشروع الوطني من قبل الأحزاب السياسية ((وبأن تكون احزاباً وطنية بمعنى انفتاحها على مختلف المواطنين والابتعاد عن الولاء القنوي الضيق وتوسيع دائرة الانتماء لهذا الحزب او ذاك بحيث لا يكون سنياً او شيعياً او كردياً وان تكون هذه الاحزاب ديمقراطية وتطبق مبدأ ((الديمقراطية المركزية)) في علاقاتها مع اعضائها و مع الاحزاب الاخرى وان تكون احزاباً مدنية بمعنى عدم حملها للسلحاح بصورة مباشرة او غير مباشرة^{٧٧}. وان دور الاحزاب السياسية والنخب الوطنية وقوى المجتمع يتلخص بأجاء مشروع الدولة الوطنية فهي الضمانة لانجاح مشاريع التعايش والسبيل لوقف مسلسل العنف الطائفي^{٧٨}.

٥. العمل على تفعيل المادة ((١٤٢)) من دستور بخصوص اجراء التعديلات المطلوبة والتي تشمل كلاً من الديباجة وهوية العراق وقانون توزيع الثروات النفطية والعلاقة بين الحكومة المركزية وحكومات الاقاليم، وقضية كركوك وللتأكيد على ان التعديلات هي قضية دستورية من جانب وتعزيز لمشروع المصالحة الوطنية من جانب اخر.

٦. ضرورة اتخاذ الاجراءات القانونية الفعالة لظاهرة الفساد المالي والاداري والتي بدون استئصالها. لايمكن الحديث عن اعادة الاعمار واحداث تنمية اقتصادية وتوفير فرص للعاطلين عن العمل وتقديم الخدمات الاساسية للمواطنين.

⁷⁷ محمد عبد الجبار الشبوط ، دور الاحزاب السياسية في تحقيق المصالحة الوطنية ، الاسلام الديمقراطي العدد ١٧
السنة الثالثة كانون الاول ٢٠٠٦ ص ١٧
⁷⁸ حسين درويش العائلي - فشل مشروع الدولة ، الاسلام والديمقراطية ، العدد ١٨ السنة الثالثة ايلول ٢٠٠٧ ص ٧٩

الختمة

لقد اتضح لنا ماتقدم في هذه الدراسة مايلي :-

١. اذا كان للتاريخ الحديث قد شهد ولادة مفهوم التسامح فأن السديانات السملوية والمدارس الفكرية والفلسفية قد دعت الى التسامح بتعبيرات وصياغات متعددة قبل ذلك بكثير.
٢. ان التسامح يعني حق الفرد او الجماعة في الاختلاف من جهة وواجب الفرد او الجماعة احترام حق الغير في الاختلاف من جهة اخرى، والاقرار بـ((شرعية الاختلاف)). لأن البديل عن التسامح هو التعصب والتطرف والعنف.
٣. ان الصراع الذي كان قائماً طيلة الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي يهدف الى الهيمنة والنفوذ والمصالح وليس من اجل الديمقراطية وحقوق الانسان كما ترى الولايات المتحدة والسلام العالمي كما كان يعلن الاتحاد السوفياتي.
٤. نجحت الولايات المتحدة بالهيمنة والتفرد في قيادة العالم بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ورفض الاخر واقصائه في ظل ما يسمى ((النظام العالمي الجديد)) تحت زريعة نشر الديمقراطية ومحاربة الارهاب.
٥. عند الوقوف على طبيعة العلاقة بين الانا والاخر على صعيد الوطن العربي يمكن القول ان مختلف الايديولوجيات التي سيطرت على المساحة السياسية في الوطن العربي خلال القرن الماضي وحتى يومنا هذا كانت بعيدة كل البعد عن ثقافة التسامح فكراً وسلوكاً.
٦. تتحمل الولايات المتحدة المسؤولية القانونية والاخلاقية جراء سياساتها في العراق التي قادت الى زيادة دائرة العنف والارهاب بسبب الفراغ السياسي والامني الذي حدث نتيجة تقويض ركائز الدولة العراقية والذي وجدت فيه بعض دول الجوار فرصتها الذهبية لتحقيق اهدافها في العراق.
٧. ان العراق بحاجة الى ثقافة سياسية تغلب لغة الحوار على لغة الصراع وبأنها السبيل الوحيد لحل الخلافات والمشاكل وان سياسة الاقصاء لايمكن قبولها ولن يكتب لها النجاح.

الحوار وقبول الآخر في التراث الاسلامي

الدكتور

ياسين حسين ألويسي (*)

المقدمة:

ان من اهم متطلبات المرحلة التي نعيشها اليوم هي مسألة تعزيز ثقافة الحوار وقبول الآخر لان العراق لا ينهض الا بقوة لبنائه وان هذه القوة لا تكون الا بالتحاور والاجتماع على ثوابت مشتركة لتكون قاعدة للانطلاق نحو رؤية مشتركة وتقديم الاهم على المهم فوحدة العراقيين من الامور المهمة فمن اهم المهمات هو توجيه الشارع العراقي الى نبذ الفرقة واشاعة الالفه تلك الالفه التي يفتقر اليها حتى بعض الرموز الدينية الان في حين ان التراث الاسلامي تراث زاخر وغني بثقافة الحوار وقبول الآخر والشواهد على ذلك كثيرة جداً فالاسلام أمرنا بان نتحاور مع بعضنا من اجل الوصول الى الحقيقة، فهذه المحاوره اقل ما فيها انها تظهر للطرف المحاور بعض الخفايا التي يجهلها ي الطرف الاخر، وقد جعل الشارع جل شأنه تنظيمًا معيناً لهذه المحاوره فقال تعالى ((أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين)) النحل/١٢٥. والجدال بغير الحسنى محرم حتى مع اهل الكتاب بل والكفار ايضاً فقد ذكر ابو محمد الحسن بن علي العسكري (عليه السلام): عندما ذكر عند الصادق (عليه السلام) الجدال في الدين وان رسول الله "صلى الله عليه وسلم" والائمة عليهم السلام قد نهوا عنه، فقال الصادق (عليه السلام) لم ينه عنه مطلقاً، ولكن نهى عن الجدال بغير التي هي احسن، اما تسمعون الله تعالى يقول ((ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن)) فصت/٣٤، وحتى الذين يدعون الى عبادة غير الله يجب محاورتهم بالحسنى وعدم

الاسماء لهم في الحوار قال تعالى ((ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواناً بغير علم)) الاتعام/١٠٨، لقد ولدت في بغداد الكثير من الافكار الصالحة والمنحرفة على حد سواء فكانت بغداد للحمى الذي تدور فيه وفي مجالسه كل الافكار العقائدية والفلسفية بل ومختلف للعلوم والمعارف، ولم تعرف هذه المدينة العظيمة ضيق الافق والتزمت والتعصب للافكار ولم يصل الامر مهما اشدت الخلاف الى التفكير لان ذلك من الامور الخطيرة بعكس ما نحن فيه اليوم، فقد كان الباقلاني وهو من كبار أئمة اهل السنة يتردد كثيراً على مجلس الشيخ المفيد وهو من اعلام أئمة الشيعة الامامية ومن ثنّيه له الوسادة في وقته ويتحاورون بحبة ولطف ويتمازحون فيما بينهم في وقت يختلفون فيه ويتناظرون في اصعب المسائل العقائدية، وكذلك كان الجرجاني يأخذ بعض علومه على يد الشيخ الطوسي، والشافعي كانت له علاقة وثيقة مع بشر المريسي فكان اذا قدم الى بغداد نزل عند بشر، والامثلة كثيرة جداً ولا يخفى على الجميع ان ابا حنيفة مات في السجن بسبب ملازمته للامام زيد بن علي السجاد (عليه السلام). فلماذا لا نستمد من اسلافنا هذه الثقافة التي دعا اليها الله ورسوله والائمة (عليهم السلام جميعاً)، انه اللقاء والحوار الصادق هو السبيل الامثل للخروج مما نحن فيه وان لا ندع فرصة لمن يصطاد بالماء العكر ان يعكر صفو اخوتنا وان لا نسيس الدين للوصول الى اغراض ومكاسب شخصية وانية لان النتيجة الحتمية هو ان هذا الشعب ولحد وانه في النهاية لا يصح الا الصحيح. وقد عرجت في هذا البحث على ثقافة الحوار في القران الكريم، وفي السنة النبوية، واقوال الائمة (عليهم السلام) والشواهد التاريخية في ذلك.

المبحث الاول

الحوار والالفاظ ذات الصلة به في القرآن الكريم:

الحوار هو اهم ما نعتز به في تراثنا الاسلامي ولعل من المهم هنا ان نورد بعض التعريفات المهمة لتبيان مدلول هذا المصطلح فمنها: ان الحوار (هو عملية تعاط بين الجانبين ليستفيد كل جانب مما عند الآخر)^١.

اما مطاع صفدي فيعرف الحوار بأنه (تأسيس لمعنى الاختلاف الذي ينتج معنى خارج المعنى المعهود ومن دون كل المواريث المذهبية والمنهجية والمفهومية)^٢. ويذهب الدكتور وجيه قانصوه الى ان (الحوار يعني اكتشاف الاخر داخل الذات، ويعني ايضاً وبالمرتبة نفسها، اكتشاف الذات في نظر الآخر، اي التعرف على الانا الموضوعية التي يراها الآخرون مقابل الانا الذاتية التي نراها نحن)^٣.

ونحن اذ نتحدث عن الحوار باعتباره قيمة اخلاقية ترتقي بالنفس الى اعلى مراتب التفاهم بين البشرية وهي ترد الى ذهن الانسان مباشرة معان راقية من القسيم والمفاهيم الانسانية فالحوار اهم وسيلة للتعرف على الآخر وبهذا المعنى (يكون الآخر امتداد للذات ومجالاً خصباً للتعرف على عوالم مختلفة كان من الممكن ان تكون عوالم الذات نفسها لولا مصادفة الزمان وندره المكان. الحوار بهذا المعنى يولد من جهة عودة دائمة الى الذات لنعيد النظر في كل ما نفهمه ونخطط له فلا نغرق في منتجاتها بقدر ما نرفع الغطاء عن الات انتاجها فلا تتحول الذات بذلك الى مذهب او نصير مطلقاً او تنتصب تمثالاً في متحف التاريخ)^٤، وقد دل القرآن الكريم على اهمية الحوار واختار الفاظاً معينة تعارف عليها المسلمون والدعاة منهم على وجه الخصوص ومن الالفاظ القرآنية التي تقيد معنى الدليل واقامة لحجة في الجدال والنقاش هذه الالفاظ/

^١ التعريف مقتبس من كلمة الدكتور محمد علي انرشب، الملقاة على هامش مؤتمر "كيف نواصل مشروع حوار الحضارات المنعقدة في دمشق ١٩-٢٠/١/٢٠٠٢، ضمن كتاب الثقافة الاسلامية، ج٢، ص ١٢.

^٢ مطاع صفدي: نقد العقل الغربي، مركز الانماء القومي، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٩٧-٢٠٢.

^٣ د. وجيه قانصوه، حوار الحضارات والتأسيس للمختلف، كتاب الثقافة الاسلامية، ج٢، ص ١٨٦.

^٤ المرجع نفسه، ص ١٨٦.

البرهان، البيان، الحجة، الدليل، والسلطان. وقد اختلف تكرار هذه الالفاظ في القرآن الكريم، فجاء لفظ سلطان اكثرها تكراراً وكان غالباً يأتي مقترناً بوصف -المبين- وكان أقل هذه الالفاظ وروداً لفظ -الدليل- الذي ورد مرة واحدة في قوله تعالى ((ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً))^٥.

ولاً: البرهان: لقد ورد لفظ البرهان بعدة مواضع من القرآن الكريم فمعناها قوله تعالى ((قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين))^٦، فأراد تعالى بالبرهان، الحجة الفاصلة البينة، ويبرهن بمعنى "يبين وجمعه ببراهين".

ثانياً: البيان: ورد لفظ البيان في القرآن الكريم للدلالة على ما يتبين به الشيء ويتضح ففي قوله تعالى ((وهو في الخصام غير مبين))^٧، اي غير واضح. ومنه قوله تعالى ((الا ان يأتيين بفاحشة مبينة))^٨، اي ظاهرة واضحة.

ثالثاً: الحجة: وقد وردت بمعنى الدليل والبرهان ومنه قوله تعالى ((وحاجه قومه قال اتحاجونني في الله وقد هذان))^٩، وايضاً وردت في قوله تعالى ((والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجهم فاحضه عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد))^{١٠}، اي الذين يوردون حجج غير منطقية ويبرهنون ببراهين واهية لا ترقى الى مستوى الاقناع.

رابعاً: الدليل: وهو ما يستدل به لاثبات أمر يعنيه قال تعالى ((ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً))^{١١}، اي جعلنا ما يستدل به عليه الشمس اي على الظل من كونه متحركاً او ثابتاً من مكان الى اخر.

^٥ سورة الفرقان، الآية ٤٥.

^٦ سورة البقرة، الآية ١١١.

^٧ سورة الزخرف، الآية ١٨.

^٨ سورة الطلاق، الآية ١.

^٩ سورة الاعراف، الآية ٨٠.

^{١٠} سورة الشورى، الآية ١٦.

^{١١} سورة الفرقان، الآية ٤٥.

خامساً: **السلطان**: لقد ورد لفظ السلطان في القرآن الكريم بصيغتين معروفتين عند العرب الاولى اذا ذكر السلطان دل على القوة في الدليل ومنه قوله تعالى ((ولقد ارسلنا موسى باياتنا وسلطان مبين))^{١٢}، واما من انثته ذهب الى معنى الحجة ومنه قوله تعالى ((ذهب عني سلطانيه))^{١٣}، اي بطلت حجتى وذهبت عني.

وهذه الالفاظ كلها مهمة في الحوار لانها تؤدي الى ما يتوخاه المحاور من محاورته ومن هذه الامور الكشف عن ما في خفايا المحاور وايضاً لقاء الحجة عليه وابطال دعواه مع قبوله رغم الاختلاف الناشئ والاعتراف به واحترامه وعدم ازدرائه والتقليل من شأنه وقد اشار القرآن الكريم في اسلوب المحاوره هذا بقوله ((واذا نتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين كفروا للذين امنوا اي الفريقين خير مقاماً واحسن ندياً))^{١٤}، فأن سأل المحاور عن مكانته قيل له انه ذي مقام عال ومكانة بارزة لكي لا ينقلب الحوار الى مجادلة لا طائل منها وفي كل هذه الالفاظ نجد النصوص الاسلامية تركّز على بعض الشروط الضرورية، وقد تحدث علمائنا القدامى عن اداب الحوار والجدال، ولكننا ندخل ما ذكره جميعاً في منطقة الشروط الضرورية.

¹² سورة هود، الآية ٩٦.

¹³ سورة الحاقة، الآية ٢٩.

¹⁴ سورة مريم، الآية ٧٣.

للمبحث الثاني

للحوار واحترام الآخر في السنة النبوية:

لا شك ان النبي "صلى الله عليه وسلم" هو خير من يحاور وهو خير من علمنا لغة الحوار وأسلوبه واحترام المحاور والسنة النبوية تفيض بالأمثلة على ذلك فقد كان "صلى الله عليه وسلم" ينتقي اللفاظ ولا يزدري محاوره وإن أساء في اللفاظه فعن جابر بن عبد الله قال: (بينما رسول الله "صلى الله عليه وسلم" يقسم بالجعرانة اذ قال له رجل اعدل فقال له: لقد شقيت ان لم اعدل) فلم يغضب النبي من قول الرجل وعلى الرغم من كون النبي "صلى الله عليه وسلم" نبياً من الانبياء يتلقى الوحي من السماء، غير ان للمشاعر الانسانية المختلفة تتنابه كغيره من البشر فتمر به حالات من الفرح والمرور، والحزن والضيق، والرضا والسكينة، والغضب والغضب. وهنا تبرز قيمة العنصر الاخلاقي في حياة النبي "صلى الله عليه وسلم" في وضع الانفعالات المتباينة في اطارها الشرعي حيث هذبها وصانها عن الافراط والمغالاة، والتفريط والمجازفات، بل اضاف لها بعداً جديداً حينما ربطها بقضية الثواب والعقاب وكما شعاره "صلى الله عليه وسلم" (انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق)^{١٥}، فالاخلاق اساساً مهماً في الحوار فمن اخلاق الحوار التي وصى بها رسول الله "صلى الله عليه وسلم":

١. مناداة المحاور بأحسن اسماءه، والنهي عن التنايز بالالقباب.
٢. انتقاء الالفاظ المستخمة وبعدها عن الازدراء.
٣. نبرة الصوت والبعد عن التشديق ورفع الصوت في الحوار.
٤. حسن الاستماع.
٥. اللطف في العبارة.
٦. النزول عند رأي الآخر ان كان حقاً.
٧. الحلم على المحاور.

٨. عدم اكرام المحاور.

٩. محبة الخير للمحاور.

١٠. عدم الغرور أثناء الحوار.

١١. احترام المستوى الذي عليه المحاور.

وسوف نسوق بعض الامثلة التي تمثلت بها اخلاق النبي "صلى الله عليه وسلم" في محاوراة الاخر. فمنها انه كان ينادي محاوريه باحب الاسماء اليهم ففي الخبر انه "صلى الله عليه وسلم" كان ينادي عبد الله بن سلول وهو رأس التفاق بقوله: "يا ابا الحباب" ومنه انه "صلى الله عليه وسلم" نادى عتبة بن ربيعة "يا ابا الوليد" فسي حين كان عتبة يعرض عليه التخلي عن الدين مقابل بعض العروض التي كان يعرضها عليه وهذا الخبر مشهور ايضاً^{١٦}. وروى البخاري انه عليه السلام قال: (ان من احبكم الي واقربكم مني مجلساً يوم القيامة احسنكم اخلاقاً وان ابغضكم الي وابعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فم المتفيهقون قال: المتكبرون)^{١٧}، وكان عليه السلام الطف الناس في العبارة وكان ينتظر محدثه حتى ينتهي ثم يبدأ بالكلام ففي قصة عتبة ان النبي عليه السلام تركه حتى انهى حديثه وكل ما عرض على النبي "صلى الله عليه وسلم" من مال وجاء وغير ذلك من الامور وبعدما انهى حديثه اجابه النبي عليه السلام بالرفض والحديث مشهور "والله لو جعلوا الشمس في يميني والقمر في يساري على ان اترك هذا الامر ما تركته اما ان يظهره الله على يدي او اهلك نونه" وكان عليه السلام ختار عبارات تؤثر في فس المستمع ففي الخبر (ان يهودي جاء يسأل النبي عليه السلام فقال له عليه السلام اينفعك ان حدثتك؟ قال: اسمع بأذني فتكت عليه السلام بعود

¹⁶ ينظر ابن المقفع الاطب الكبير والاحب للصغير، تحقيق: العالم فوال، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٤٥، وايضاً المسيرة النبوية لابن هشام.

¹⁷ متفق عليه والنقطة للبخاري.

معه فقال: سئل^{١٨} فأخذ اليهودي يسأل ورسول الله يجيب بكل ما حلم واحترام للمحاور وقد روى البخاري انه عليه الصلاة والسلام (خرج ذات يوم على بعض اصحابه وهم يتنازعون في القدر، فغضب حتى احمر وجهه كأنما فقى في وجنتيه الرمان فقال: أبهذا أمرتم؟ لم بهذا أرسلت إليكم؟ انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا)^{١٩}، وغضب عليه الصلاة والسلام من تكلف الناس في السؤال عن الامور الدقيقة فيكون سؤالهم سبباً في التشديد عليهم، وكذلك سؤالهم عما لا يفيد. وقد روى البخاري ايضاً من حديث ابي موسى الاشعري انه قال: سئل النبي "صلى الله عليه وسلم" عن اشياء كرهها، فلما اكثر عليه غضب، ثم قال للناس (سلوني عما شئتم)^{٢٠}، ومعنى ذلك ان النبي عليه الصلاة والسلام لم يغضب من السؤال وانما غضب وانزعج من نوع السؤال الذي لا جدوى منه ولا فائدة. وكان عليه الصلاة والسلام ينزل عند رأي المحاور اذا وجدته على صواب فقد اخذ عليه الصلاة والسلام برأي الحباب في غزوة بدر، وأخذ برأي الشباب في غزوة احد عندما اختلف المسلمون هل يخرجون خارج المدينة للقاء العدو؟ والاحاديث في ذلك كثيرة. وكان عليه الصلاة والسلام مع حبه الخير للآخرين ولمن يدعوهم الا انه لم يكن يجبرهم على اي امر جبراً حتى انه لم يكرههم على الدخول في الاسلام وخير مثال على ذلك دعوته لعمه ابا طالب وغيره ممن كان يحرص على دخولهم الاسلام فانه لما حضرت ابا طالب الوفاة دخل عليه النبي "صلى الله عليه وسلم" وعنده ابو جهل وعبد الله بن ابي امية فقال: يا عم قل لا اله الا الله كلمة احاج لك بها عند الله... الخ وكذلك في دعوته لعمر بن الخطاب حين دعاه للاسلام. فكان يدعو عليه الصلاة والسلام من يدعو من دون اكراه او الزام، ومن تواضعه عليه الصلاة والسلام في الحوار انه عندما اتاه رجل فكلمه، فجعل ترعد فرائصه، فقال له

^{١٨} ينظر ابن كثير البداية والنهاية، مطبعة السعادة، القاهرة، ج ١، ص ٢٢.

^{١٩} رواه البخاري.

^{٢٠} رواه البخاري.

(هون عليك فاني لست بملك، انما انا ابن امرأة تأكل القديد)^{٢١}، وفي احترامه عليه الصلاة والسلام لمستوى المحاور ما ورد في الخبر انه عليه الصلاة والسلام قال: (أمرنا ان نخاطب الناس بما يعقلون)^{٢٢}. ومن مظاهر اهتمامه عليه الصلاة والسلام في الحوار: ارساله الوفود والرسل الى ملوك الارض يدعوهم للمحاوره، وايضاً محاورته عليه الصلاة والسلام مع اهل الكتاب، ومحاورته مع المشركين في صلح الحديبية ومنها كتبه ورسائله وغير ذلك مما يؤكد اهمية الحوار في السنة النبوية الشريفة.

²¹ رواه البخاري.

²² رواه البخاري.

المبحث الثالث

اهمية الحوار وقبول الآخر في اقوال الائمة والشواهد التاريخية:

لا شك ان اهمية الحوار ثابتة في اراء الائمة كما ثبتت في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسنأخذ من لبرز الائمة في هذا المجال الامام جعفر بن محمد الصادق. وهو الامام السادس من ائمة اهل البيت عليهم السلام. ويعتبر الامام جعفر عليه السلام من أهم أسس للحوار في التراث الاسلامي لا شك وأنه اتخذ سبيلين للحوار الاول/ داخلي وهو الذي سنفضل القول فيه، والثاني/ خارجي وهو المتمثل في مناظراته مع أصحاب الاديان والملل غير الاسلامية ولا بد لنا قبلولوج في محاوراته عليه السلام من التعريف بشخصيته وصفاته التي لا يختلف عليها أحد فقد كان كما ذكر محمد أبو زهرة انه (نتبين قوة شخصية الامام، من خلال نسبه الشريف فقد انتهى نسبه الى أبوين كريمين في الاسلام فانتهى نسبه من جهة ابيه الى سيف الله المسلول وفارس الاسلام، علي بن ابي طالب(عليه السلام) وانتهى نسبه من جهة أمه الى صديق الامة ووزير النبي ابي بكر وهو فوق كل هذا نال أكبر شرف في الاسلام بعد العمل الصالح وهو أنه من عتره النبي الطاهرة... وقد اتصف الامام الصادق للنقي بنبل المقصد وسمو الغاية والتجرد في طلب الحقيقة من كل هوى، او عرض من اعراض الدنيا، فما طلب امرأ دنياً وما طلب امرأ تشابه الشبهات لو تحف به الشبهات، بل طلب الحقائق النيرة الواضحة وطلب الحق لذات الحق لا يبغى به بديلاً، لا تلبس عليه الامور، واذا ورد أمر فيه شبهة هداه اخلاصه الى لبه ونفنت بصيرته الى حقيقته بد ان يزيل عنه غواشي الشبهات، واذا عرض أمر فيه شهوة او اشارة مطمع بد لظلمات بعقله الكامل وهو في هذا متصف بما ورد في حديث مرسل عن النبي "صلى الله عليه وسلم" اذ قال: (ان الله يحب ذا النصر للنافذ عند ورود الشبهات،

ويحب ذا العقل الكامل عند حلول الشهوات)^{٢٣}، وسوف نقتصر على اقوال هذا الامام الجليل ومحاوراته ونصحه في طريقة الحوار وتقبل الآخر وارهائه.

لقد كان الامام الصادق عليه السلام يتمتع بمواصفات عالية في الحوار، وإلى جانب ذلك كان من اصحاب الكشف للذين كشف الله تعالى لهم حقائق وخبائا الامور ومصداق ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام ((وكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد))^{٢٤}، ومن غير الامام الصادق له كل هذه الكرامة فكان ابرز الناس في عصره بكل جوانب المعرفة. (فلقد كان من الناحية الفكرية والثقافية عصر الامام الصادق عصر النشاط الفكري والثقافي، وقد حدثت في ذلك العصر حركة علمية منقطعة النظير في المجتمع الاسلامي ونشأة العلوم المتعددة سواء العلوم الاسلامية مثل علوم قراءة القرآن والتفسير والحديث والفقه والكلام او العلوم الانسانية العامة، مثل علوم الطب والفلسفة والنجوم والرياضيات ولدرجة انه كل من كان له بضاعة فكرية وعلمية كان يعرضها على الامام ان يجيب عليه ويستجيب له. وان نشاطات الامام الصادق لم تنحصر في المجالات العلمية بكل ما لها من سعة وعمق بل كان له نشاطات سياسية ايضاً غير ان هذا الجانب من نشاطاته ظل خافياً على كثير من المحدثين والكتاب، وبدافع بث فكرة الامامة ارسل الامام الصادق من يمثله الى سائر ارجاء البلاد ومنهم رجل كوفي بعثه الامام نيابة عنه الى خراسان يدعوم لامامته ففرقة اطاعة واجابت وفرقة جحدت وأنكرت وفرقة ورعت ووقفت خوفاً من الفتنة، ثم خرج من كل فرقة رجل يمثل فرقته للقاء الامام الصادق وكان ممثل الفرقة الثالثة قد قام بعمل قبيح مع احدى جوارى بعض من معه دون ان يعلم به احد، ولم يخلوا على الامام كان المتكلم هو ذلك الرجل فقال: اصلحك الله قدم علينا رجل من اهل الكوفة فدعا الناس الى طاعتك وولايته فأجاب قوم وأنكر قوم وورع ووقفوا. قال الامام: قم اي

^{٢٣} محمد ابو زهرة: الامام الصادق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٦٠-٦١.

^{٢٤} سورة ق، الآية ٢٢.

الثلاث أنت؟ قال: أنا من الفرقة التي ورعت ووقفت قال الامام: فاين كان ورعك ليلة قيامك بذلك العمل الثمائن؟^{٢٥}، فهذا دليل على ان الامام صاحب كشف بالاضافة الى اسلوبه كمحاور فما احوجنا الى مثل هكذا اناس، ومن اقواله عليه السلام انه قال: (ان قدرت على ان لا تخرج من بيتك فافعل فان عليك في خروجك ان لا تغتاب ولا تكنب ولا تعسر ولا ترائي ولا تتصنع ولا تراهن ثم قال: نعم صومعة المسلم بيته يكف فيه بصره ولسانه ونفسه وفرجه)^{٢٦}، ومن اقواله ايضاً: قال لحرمان: (يا حرمان انظر الى من هو دونك ولا تنظر الى من هو فوقك في المقدرة فان ذلك اتقن لك بما قسم لك واحرص ان تستوجب الزيادة من ربك واعلم ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين وأعلم انه لا ورع لولى من تجنب محارم الله والكف عن أذى المؤمنين واغتيالهم ولا عيش اهنأ من حسن الخلق ولا مال انفع من القنوع باليسير المجزي ولا جهل اضر من العجب)^{٢٧}، فأين نحن من اقوال الامام هذه هو يدعو الى عدم اغتيال المؤمنين فكيف باغتيالهم.

ومن اقواله عليه السلام ايضاً حيث قيل له " على ماذا بنيت امرك؟ فقال: (على اربعة اشياء، علمت ان عملي لا يعمله غيري فاجتهدت، وعلمت ان الله عز وجل مطلع علي فاستحييت، وعلمت ان رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت، وعلمت ان اخر أمري الموت فاستعددت)^{٢٨}، وقال عليه السلام (من انصف الناس في نفسه رضي به حكماً لغيره، وقال: لا تسخطوا الله برضا احداً من خلقه ولا تتقربوا الى الناس ببتباع من الله، وقال: أحب أخواني الي من أهدى الي عيوي)^{٢٩}، وأي أخ يهدي هذه العيوب غير المحاور الذي يكشف حقيقة الذات بمحاورة الآخر، وقال ايضاً: (الجهاد

²⁵ ينظر الدكتور علي عبد الله الدفاع روائع الحضرة الاسلامية، ضمن مواقع الحوار على شبكة الانترنت ص 1.

²⁶ المرجع السابق، ص ٢.

²⁷ المرجع نفسه.

²⁸ المرجع نفسه، هذا القول ثلث للحسن البصري ايضاً.

²⁹ المرجع نفسه.

أفضل الاشياء بعد الفرائض)^{٣٠}، وأي جهاد أفضل في وقتنا هذا غير الذي حدثنا به عليه الصلاة والسلام من ان (سيد الشهداء حمزة ورجل قال كلمة حق عند سلطان جائر)^{٣١}، فيجب ان نقول الحق وان كرهه العدو الذي لا يريد لنا الا الهوان. ومن الشواهد التاريخية في حوار الامة وتراث الامة التالي:

لقد كان للامام جعفر مناظرات مع العلماء وغيرهم في الدين والعلوم الانسانية المختلفة وقد اتبع الامام الصادق منهجاً منطقياً تسلسلياً في المناظرة والنقاش وهو اسلوب علمي يبرز مكانته العلمية وقدرته على استحضار كافة جوانب الموضوع وحضور البديهية في الرد؛ (فقد كان الامام مالك بن انس اذا حدث عنه قال: حدثني الثقة بعينه وما رأيت عين ولا سمعت اذن ولا خطر على قلب بشر افضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً)^{٣٢}، ومن مناظراته الامام الصادق عليه السلام ما رواه ابن شبرمة قال: (دخلت انا وابو حنيفة على جعفر بن محمد عليه السلام فقال لابي حنيفة: اتق الله ولا تنس في الدين برأيك، فان اول من قاس ابليس علي ان قال- ويحك، ايهما اعظم قتل النفس او الزنا؟ قال: قتل النفس. قال: فان الله عز وجل قد قبل في قتل النفس شاهدين، ولم يقبل في الزنا الا اربعة! ثم ايهما اعظم، الصلاة ام الصوم؟ قال: الصلاة، قال: فما بال الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة، فكيف يقوم لك القياس، فاتق الله ولا تنس)^{٣٣}.

³⁰ المرجع نفسه.

³¹ رواه البخاري.

³² الوهم الاصطلاحي حياة الاولياء وطبقات الاصفياء، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج ٣، مناقب الامام جعفر.

³³ محمد بن الحسن بن علي، المعروف بالحر العاملي (ت: ١١٠٤ هجرية) بمشهد الامام الرضا (عليه السلام) والمدفون بها، وسبق الشريعة (تفصيل وسائل الشريعة الى تحصيل مسائل الشريعة) طبعة: مؤسسة آل البيت، سنة: ١٤٠٩ هجرية، قم/اليران، ج ٢٧، ص ٤٦.

الخلاصة:

ولقد توصلت من خلال بحثي هذا الى التالي:

١. ان الحوار هو السبيل الامثل لحلحلة جميع المشاكل العالقة في الفكر وفي الممارسات.
 ٢. يعتبر الحوار من الاساليب الحضارية المتقدمة لمعالجة المشاكل الانسانية.
 ٣. ان الدين الاسلامي بمصره الرئيسة يدعو الى الحوار فالقران والسنة يؤكدان ذلك.
 ٤. ان الحوار الداخلي هو الخطوة الاولى لتكوين رؤية مشتركة ينطلق منها لمحاورة الآخر الخارجي.
 ٥. ان يكون الحوار بمحبة وصدق وان يبتغي به وجه الله تعالى ونية للوصول الى الحقيقة.
 ٦. اننا اليوم احوج من اي وقت كان الى الحوار وان يتقبل كل منا الآخر بالتواضع المشتركة للجميع ومهما المواطنة والايمان والانسانية.
 ٧. عدم اهلجة للدين والوقوف عند رؤية متشددة تستغل عطف الجماهير للوصول الى مكاسب سياسية بدعوى حماية مصالحهم الحفاظ على حقوقهم وهويتهم.
 ٨. ندعوا جميع وسائل الاعلام الى توجيه العامة ونشر ثقافة الحوار من خلال كشف للقناع عن المخفي من تراث امتنا في مجال ثقافة الحوار وقبول الآخر.
- واخيراً نسأل الله العلي العظيم ان يوحد صفوفنا لتجاوز ازمتنا لاسيما ونحن نعيش اليوم اسوأ احتلال شهدته الانسانية.

الهوية - أزمة الانتماء

المدرس المساعد

علاء جبار احمد^(*)

المقدمة:

في التاريخ الإنساني تعرضت هوية الانتماء لجملة من المتغيرات حتى استقرت على ما هو عليه الآن. ويبدو للباحثين ان هذا الاستقرار هو الآخر معرض لمتغيرات قد لا تتسبج الجوانب الإنسانية الإيجابية لمضامين الانتماء وقد ترجعه الى حالات الاغتراب والضياع ليعيد من جديد ترتيب قواعد وأسس مادية ومعنوية وموضوعية لهوية انتماء جديدة.

هذا البحث يعني بدراسة متواضعة حول إشكالية موضوع الهوية ومسألة الانتماء وتفاعلاتها. وعندما نتناول هذا الموضوع بالتحليل والتاريخ فأننا بذلك نؤمن بأهمية الموضوع الذي يدخل في خضم الموجة المعادية للحضارة الغربية التي أخذت وعلى نحو لم يسبق له مثل في التاريخ بالترويج لمبدأ الصراع الحضاري بدلا من الصراع الأيديولوجي الذي طغى في فترة ما من هذا الزمن.

وينطلق البحث في دراسة إشكالية الهوية ومن ثم أزمة الانتماء مع تصاعد الهيمنة الفكرية والمادية للغرب.

المبحث الأول: المعنى البدائي للهوية

إن الهوية تعني وحدة الانتماء، إلا أن هذا لا يعني التجانس، بل الوحدة في المتنوع وكل ما يؤدي إلى التقارب عند نقاط مشتركة^١.

وتتعلق الهوية بقضية تنمية الشعور بامتلاك الجماعة خصائص ذاتية مشتركة تميزهم عن الجماعات الأخرى، فهي ترتبط بالقدرة على خلق الشعور بالانتماء المشترك بين أفراد

(*) مدرس العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية.

^١ الدكتور صلاح قصوة، الغزو الثقافي وحوار الحضارات، المنار السنة الثالثة، العدد ٣١، تموز ١٩٨٧م، ص ١٣١.

الجماعة الوطنية الواحدة عن طريق تعزيز الإحساس بالولاء نحو الدولة الوطنية بمعزل عن انتماءاتهم الأثنية الفرعية المحلية وبالتالي امتلاكهم هوية خاصة بهم^٢.

وعادة ما تنتسب الهوية إلى ثلاثة مستويات^٣:

١. المستوى الفردي: ويعني شعور الفرد بالانتماء إلى جماعة أو إطار إنساني أكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات.

٢. المستوى الجمعي: ويعني تجسد الهوية في شكل تنظيمات وهيئات شعبية ذات طابع تطوعي واختياري.

٣. المستوى المؤسسي: وهو تبلور هذه الهوية في مؤسسات وأبنية وأشكال قانونية على يد الحكومات والأنظمة وهو ما يطلق عليه (مأسسة الهوية) وعلى الرغم من أن الهدف الأساسي لمأسسة الهوية هو تاصيل الهوية والسعي لتعبير أفضل عنها فإنها قد تؤدي إلى ضعف أصالتها وخمودها في النفوس، ذلك أن كل مؤسسة للهوية تخدم واحداً من جوانب الهوية على حساب جانب آخر.

ولقد عرف الإنسان الانتماء من خلال خلق هوية معبرة عن ارتباطات موضوعية أو وهمية تجلت في تميزه عن انتماء الأفراد للجماعات الأخرى لمراحل تطويرية تاريخية اتسمت بصفات ومميزات لكل واحدة منها:

المرحلة البدائية:

هوية القرابة الدموية Consanguinity

كل علاقة اجتماعية تعتمد على نسب منحدر من جد مشترك هي علاقة قرابية دموية طالما أنها تتجسد بالروابط التي تربط أعضاء الفخذ والعشيرة الواحدة، وقد يعتبر الأفراد اللذين تنبأهم العشيرة (أي الأفراد اللذين يكونون الروابط الدموية الشكالية غير الأصلية) أعضاء في القرابة الدموية، ويقول العالم الأنثروبولوجي البريطاني ((راد كلف برون)) من الضروري التمييز بين علاقات القرابة والمصاهرة الدموية الناشئة عن الزواج

^٢ علي عباس مراد، التنمية السياسية وأزمة المشاركة، محاولة في تحديد المفهوم، (مجموعة باحثين وآخرون، مشكلات وتجارب التنمية في العالم الثالث)، بغداد، داصر الحكمة ١٩٩٠م، ص ١٢٣.

^٣ للمزيد أنظر عفيف البوني، في الهوية القومية العربية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٥٧، ١٩٨٣م، ص ٧ وما بعدها؛ قازن مع محمد عبد الجباري، العرب والعلامة المصدر السابق نفسه، ص ٢٩٨ و٢٩٩.

والمصاهرة^٤ من أجل ترسيخ الانتماء والمحافظة على هوية الأفراد حيث يشار إليهم على أنهم من أفراد هذه العشيرة أو تلك الجماعة، ولم يرتقي حينها الانتماء إلى اسم الأرض إلى الاتحاد الجديد للجماعات الدموية ((العشائر والأفخاذ)) صوب القومية، لأن الجماعة القومية الأخرى بدأت من الأسرة والعشيرة والقبيلة التي هي مجموعة عشائر، كل تعتمد في التمييز والانتماء على رابطة الدم، وانطبق هذا المفهوم على معظم شعوب العالم القديم في آسيا وأفريقيا وأوروبا لمرحلة بدائية للتعبير عن الهوية والانتماء^٥.

الطوطمية: Totemisme

تطلق كلمة Totem التي نسب إليها ((الطوطمية)) على كل أصل حيواني أو نباتي تتخذ عشيرة ما رمزاً لها ولقباً لجميع أفرادها، وتعتقد إنها تؤلف معه وحدة اجتماعية ترتقي إلى منزلة التقديس، فإذا كان الذئب مثلاً "طوطماً" لعشيرة ما فمعنى ذلك أن العشيرة تتخذ هذا الحيوان رمزاً لها يميزها عما عداها من العشائر ولقباً يحمله جميع أفرادها للدلالة على انتمائهم إليه، وتعتقد أنها وفصيلة الذئاب من فصيلة واحدة وهي علاقة مقدسة لأفراد الجماعة والعشيرة ونقع جميع عقائدها وطقوسها ومميزات سلوكها الدينية والثقافية التي تعبر عن الانتماء والهوية على أساس هذا التقديس. ويندر أن يكون "الطوطم" من الجماد أو الطبيعة، إذ غالباً ما يكون من الحيوانات المعبرة عن رموز مؤثرة في الجماعة^٦.

والطوطمية مرحلة أولى من مراحل الديانات البدائية وانتشرت بشكل خاص في أمريكا الشمالية وبالذات عند الهنود الحمر. وقد ظهر وجودها في أستراليا أيضاً وفي مناطق أفريقيا، والمهم هنا أنها كانت ديانة بدائية ولكنها ركزت على هوية الفرد وانتمائه وطبيعة سلطة الجماعة من خلال عقائد هذا الانتماء في تنظيم أنفسهم والانغلاق على جماعتهم. المدلول الاجتماعي والاقتصادي لهوية الانتماء البدائي:

أن ميزة البدائي في الانقمار إلى الحضارة وفي حقبة ما قبل البدولة والمجتمع الريفي والقروي والمجتمع البدائي Primitive Society كان قاسياً في تحدي الطبيعة مع

^٤ انظر : بروسور دينكن ميشيل - معجم علم الاجتماع - ترجمة احسان محمد الحسن - دار الرشيد بغداد ص ٨٠ - ٨١

^٥ د. جورج فرم ، تعدد الأديان وانتظمة الحكم - دار النهار بيروت ١٩٧٩ .

^٦ ابراهيم مدكور - معجم العلوم الاجتماعية - الهيئة المصرية للكتاب - ١٩٧٥ ص ٣٧٣ .

ضعف إمكانات الجماعة الدموية والطوطمية، وسمته كانت الترحال للهروب من هذا التحدي فلا مجال للارتباط الدائم مع الأرض حتى يرتب ذلك ميزة أو خاصية معبرة في هوية الانتماء. حتى العمل وتقسيم العمل والارتزاق كان يعتمد على الترحال في الصيد والقتل أو البحث عن الطعام من النبات الطبيعي، وترابط هذا مع عدم وجود تراث مكتوب ليشكل انطلاقة فكرية ثقافية تدخل في تعبيرات الانتماء والهوية المميزة للجماعة التي أشار إليها مع الباحثون الأنثروبولوجيون بأسم جماعة صغيرة تقطن في أرض ذات مساحة صغيرة أيضاً، وعلاقات العمل والتنظيم الأسري محدودة بينهم لم ترتقي بعد إلى استقرار الأوضاع السكانية والاقتصادية والثقافية بالشكل الذي يجعل من هذه الأوضاع عوامل مؤثرة في صياغة هوية جديدة. حتى في الشكل السياسي فكانوا جميعاً يجتمعون ويتخذون القرار الجماعي المتعلق في حياتهم اليومية، وبسبب عزهم الواضح في إيجاد الحلول المنطقية لمشاكلهم، كانوا يوزون الغاز حلها إلى شعائهم وطقوسهم الخرافية. فالنسق القبايلي Kinship System لم ينتقل بعد إلى تقسيم العمل والملكية وما ترتب من ذلك من تفاوت في الثروة والنفوذ والجاء ثم التأثير. ولم تنتقل الزعامة إلى السلطة المهيمنة لجماعة على حساب جماعة أخرى^٧ من أجل المصالح، ولم ينتقل الوضع البسيط المعتمد على التقاليد والشعائر إلى التقنين والتعاقد والتحالف أو تنظيم الحروب والصراعات من أجل المصالح والنفوذ وبسط الهيمنة على المناطق المجاورة أو البعيدة عن منطقة نفوذ الجماعة.

التصنيف الاجتماعي:

لم تظهر ملامح للتصنيف الاجتماعي في هذه المجتمعات بالشكل الذي ظهر في مراحل التطور الحضاري للمجتمعات بعدها، فلا وجود لتصنيف ديني أو تصنيف طبقي أو تصنيف عرقي أو تصنيف سياسي حتى يدخل في التأثير على ملامح هوية الانتماء، فكل ما كان موجوداً هو التصنيف الأسري (رجل، امرأة، طفل، شيخ) وكلهم منصهر ون في بونقة الانتماء الدموي أو الطوطمي.

⁷ الدكتور محمد عبده محبوب - مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية - جامعة الكويت - دار القلم - بيروت ص ١٨ .

حقوق الانتماء:

كان الانتماء البدائي يرتب حقوقاً وواجبات للفرد داخل الجماعة تتمثل في الحماية المشتركة والعيش المشترك وتقاسم الغنائم والمشاكل والمآسي معاً. فالفرد موجود بوجوده داخل الجماعة، وهو لا شيء خارجها، فعندما ينتقل إلى جماعة أخرى بأي طريقة كانت فلا حقوق له ويكون مصيره مرهون بإرادة تلك الجماعة وطقوسها وعاداتها، تقتله، تستغله للعمل، تجعل منه كبش فداء أو ضحية لطقوسهم الدينية. والمهم انه خارج جماعته يفقد هوية الانتماء. وهذا يفسر التمحور الشديد للفرد مع الجماعة البدائية. وحيث أن الجماعة القربانية متداخلة للجوانب القربانية بالجوانب السياسية والاقتصادية، فالحقوق الفردية والواجبات متداخلة مع بعضها أيضاً. فالفرد هو الجماعة والجماعة هي الفرد، وبذلك أصبحت الهوية واحدة.

هوية الحب المشترك والتعصب المشترك:

لم تعرف الجماعة البدائية الكراهية والصراع بين أفرادها لانه منحصر فقط ضد الجماعات البدائية الأخرى، والعنف ظهر ضد الجماعات الأخرى أيضاً، مما رتب الحب المشترك والتعاون المشترك بين أفراد الجماعة. وهذا رتب نظرة التعصب إلى الجماعة التي ينتمي إليها الفرد، ونظرة أخرى يتعصب بها ضد الجماعات الغريبة عنه. وهذا ما أكدته العالم الاجتماعي ((كارل مانهايم)) عندما أكد على المراحل التاريخية لتطور فكر الإنسان ومعارفه. فعلاقة الإنسان البدائي بالبيئة علاقة صارمة. وما كانت اكتشافاته إلا عن طريق الخطأ والمصادفة ((النار، الزراعة، الري... الخ))^٨، العلاقة الوحيدة التي اكتشفها بنفسه وبمحض تفكيره هي علاقة الحب والدم مع محيطه الأسري ومن منطلق العقل كانت تعتبر الخيار الأول في الهوية والانتماء.

^٨ الدكتور محمد اسماعيل - علم الاجتماع الثقافي - منشأة المعارف الأسكندرية - كلية الآداب ص ١٢٥ .

المبحث الثاني: هوية المجتمع الوظيفية:

لقد ظهر المجتمع الإنساني نتيجة لتفاعل الأتسان مع بيئته ونوعه واستجابة لعوامل طبيعية ((ايكولوجية)) ونفسية ((منبهات واستجابات)) وظروف تتصل بالحياة ((تحديات صعبة تتطلب التكاتف)) ولا بد أن تكون لهذا المجتمع وظيفة أساسية وهي حاجة اهتدى إليها الفرد والجماعة، وكانت مدخلاً لاتباق النظم الاجتماعية ومنها النظام السياسي، من اجل المساعدة على البقاء والاستمرار وتنظيم إشباع حاجاتهم وتحقيق الأفضل ثم الأفضل. وكان هذا هو الشعور الأول بالانتماء لهوية المجتمع. ولكن هذه الوظيفة التي أفرزت نوعاً جديداً من الانتماء لا تتحقق تلقائياً كما كان التجمع نفسه تلقائياً، فلا بد لتحقيق ذلك من وضع قواعد يتم على ضوئها تنظيم عملية المعيشة المشتركة بواسطة النظم أو التنظيم الاجتماعي كما عرفه "مارشال جونز" ((النسق الذي تربط بواسطته أجزاء المجتمع بعضها ببعض من ناحية وبالمجتمع ككل من ناحية أخرى بطريقة مقصودة وإرادية)).^٩

دين الجماعة وهوية الانتماء:

لقد أصاب منظومة القيم والأخلاق والعادات انتهاكات عديدة تضر بمصلحة الفرد والجماعة المادية والمعنوية، وتراكمت هذه الانتهاكات في المراحل البدائية للتجمعات الإنسانية بعد ظهور الفوارق نتيجة ظهور الملكية والتمايز في امتلاك الثروة ومظاهر التسيد والسلطة، وكانت العلاقات الاقتصادية قائمة على استغلال القوي للضعيف وسيطرت القوي على الضعيف فسحبت هذه المعادلة منظومة العادات في التعبير عن هذه المظاهر، وكان أمام الفرد أما الاعتراف بالواقع الصعب المرير والبقاء في دائرة الانتماء وأن رفضها، أو الهروب الى جماعة أخرى لمعالجة الاغتراب الداخلي والنفسي عنده، ولهذا جاءت المسألة الدينية كحللاً لازمة للاغتراب والهوية لهذه للتجمعات.

فالنظرة الى الانتماء لمجتمع تسوده العجالة والمساواة والعيش الكريم أمنية لامجال لتحقيقها في عالم الواقع البدائي. فأعتبرها الدين قانون محوري أساسي للتجمع تحت سلطان قوي يكفل النزوع إلى الخير ويبعد الشر وتكون له المهابة الكاملة في النفوس، وهذه حقيقة لا

^٩ عمر عودة الخطيب - المسألة الاجتماعية - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٩٨٦ ص ٢٣ .

يقوى أن يكابر فيها باحث في أمور الأئسان والحياة وقد اعترف علماء الاجتماع بأن الدين ظاهرة عامة في جميع المجتمعات بلا استثناء وفي جميع العصور ولعب دوراً فسي تحديد هوية الانتماء بين الفرد والجماعات والجماعة والجماعات الأخرى وقد أفرز العامل الديني جملة من القوانين في مسائل الهوية والانتماء:

١. الأديان الخرافية والوثنية لم ترتقي إلى المستوى المعبر عن جميع الأفراد في مسائل الهوية والانتماء لعجزها عن الوصول إلى الحلول المثلى لمشاكلها ولاقتصارها عن تعبير عن مصالح الفئة المسيطرة وعجزها عن تخطي الحدود الزمانية والمكانية ومتغيراتها، فكانت تعبر عن انتماء ظرفي ووقتي، بل واعتبرت أحياناً في مجموعة العادات والتقاليد.

٢. الأديان السماوية الشمولية استطاعت بفعل خصائصها وقدرتها الفكرية العقلية والوجدانية والغيبية أن تقدم حلول لمشاكل الفرد والجماعة وتساهم في رقد حاجاته التنظيمية بأطر نظرية انعكست في قدرته على القيام بـ:

- التنظيم الأسري
- التنظيم السياسي
- التنظيم الاقتصادي
- التنظيم القضائي
- التنظيم الفكري
- التنظيم الأخلاقي

وقد استطاعت الأديان السماوية المعروفة ((الكتابية)) أن ترتقي بحياة المجتمع نحو التنظيم والاستقرار والتقدم أن هي التزمت بوحدة الفكر والصالح العام، وما ان دخلت فيها الآراء المتنافرة ونقضت الوحدة الفكرية التي أنتجت تفتت الأفعال والقدرات برزت مظاهر عدم الإشارة الدينية إلى هوية الانتماء. فعندما يقال لهذه المجموعة أو تلك بالمسيحية أو المسلمة أو اليهودية، أصبحت يشار إليها بالمجموعة العرقية أو القومية.

الألمانيان القومية:

إذا كانت الإمبراطوريات الأتنية قد سعت إلى السيطرة على الشعوب المختلفة التابعة لها بتوفيقية دينية متسامحة تحتمل التعدد وتقدم مصلحة الدول العليا بعد أن ظهر النظام السيامي وترسخ على مصلحة العقيدة، فإن الديانة القومية التي انحصرت مع تجمع جماعات لها مشتركات عرقية ودموية في شعب معين. ويذكر الباحثون من الديانات القومية: الدين اليهودي والزرادشتية الإيرانية والشنوية اليابانية، ويؤكد أن نولد توينبي على أن ازدهار المزدكية كديانة قومية يعود إلى رد فعل للهلينية مثلها مثل اليهودية المكابية.

وعلى أية حال تتصف الديانة القومية بـ:

- الاتحاد مع الدولة (نظام اجتماعي مرتبط بالنظام السياسي).
- تبرير الحروب من أجل المنافع والانتشار والسيطرة على أراضي وخيرات الآخرين بالحروب الدينية أي هوية انتماء مزدوجة للمحارب، دينية وقومية، كما كانت الحروب الساسانية مع الروم.
- هوية نظام الدولة فوق هوية نظام العقيدة وإن كان هنالك تفاعل مستمر¹⁰.
- خروج جماعات الطوائف الأقلية عن الهوية الجماعية الغالبة وتعامل كأنها ((طابور خامس)) ومحط شك وريبة كما حصل مع الطائفة المسيحية في المجتمع الفارسي، والطائفة اليهودية في دول الكنائس الأوربية قبل عصر التنوير¹¹.
- وقد يحصل توافق بين الديانات القومية للأكثرية والأقلية وتصبح هنالك هويتان للانتماء.

القومية وهوية الانتماء :

أن احتلال القسطنطينية عام ١٤٥٣م على يد المسلمين بقيادة الدولة العثمانية مثل نهاية الإمبراطورية المسيحية الشرقية، وقد ترافق هذا التوسع المذهل الذي امتد للعصر الذهبي الإسلامي من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر الميلادي بازدهار فكري كانت تقوده بغداد لترسيخ هوية الانتماء الإسلامي مقابل تصدع هوية الانتماء المسيحي نحو

¹⁰ انظر محمد الجندي - حول الإنتاج والوعي والتركيب الاجتماعي - بيروت - ص ٢٠٨ وما بعدها .

¹¹ الدكتور فاضل زكي - الفكر المسيحي العربي الإسلامي - وزارة الأعلام - بغداد ١٩٧٦ ص ٩٢ .

القومية. وبعد ان تصدع البيت الإسلامي في الشرق وشمال أفريقيا هو الآخر توجه بشعوبه صوب الهوية القومية وأن ندخلت الهوية الدينية والقومية في حالات عديدة.

فتحت الدولة القومية State nation الباب مفتوحاً لهوية الانتماء القومية بعد أن سئم الأفراد الاغتراب إزاء الحروب الدينية وتمرد للجماعات القومية على هيمنة الكنيسة الإيطالية عليهم وعلى كنائس المذاهب والطوائف المتناحرة في إيطاليا وألمانيا وبريطانيا وعموم أوروبا الشرقية والغربية، فأصبحت قضية الغايات الفردية والخاص الفردية والجماعي محور الانتماء للدولة القومية الحديثة، ولكنها أدخلت الأفراد في أخلاق الغاية أي التمحور حول نسق العرق والقومية لجنّي المصالح الأكبر من الأعراق والقوميات الأخرى في حلقات من الصراع انعكس على إعادة تنظيم النظم الاجتماعية والسياسية وملاحح هوية الانتماء^{١٢} بعد أن جاءت أولويات السياسة على حساب أولويات الأخلاق والعادات والقيم.

وقد اتسمت الهوية القومية بـ:

- تقليد المنهجية الأثنية في تحديد ملامح الهوية.
- تقليد المصالح المشتركة للجماعات الأثنية.
- تقليد العادات المشتركة وتمجيد الرموز والدلالات للجماعة الأثنية.
- تشجيع سياسات التفوق والهيمنة لتمجيد الهوية الأثنية.
- تشجيع تبادل العلاقات الثقافية والاقتصادية والسياسية لقيادات البرجوازية، تلك الطبقة الناهضة على حساب ركام الكنيسة وطبقة الإقطاع، مع الرؤية الجديدة لتمجيد الهوية القومية^{١٣}.
- شجعت هوية الانتماء القومي في حالات التطرف للهويات التعصبية والعنصرية التي آلت إلى الصراعات الاجتماعية على حساب تماسك المجتمع الواحد المتعدد الأعراق والأثنيات والطوائف.

¹² انظر جان جاك شافليه - تاريخ الفكر السياسي - ترجمة محمد عرب - المؤسسة الجامعية للنشر والدراسات - بيروت - ١٩٨٥ - ص ٢٣٧.

¹³ انظر أرفنج زايتن - النهاية المعاصرة في علم الاجتماع - ترجمة محمود عودة - منشورات ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٩ ص ٣٠٥.

هوية اللغة:

أن قانون انتشار اللغة وتشعبها إلى لهجات قد أثر في معاني تمييز هويات الشعوب والأفراد، ولهذا السبب قل تأثير اللغة كخاصية مميزة لهوية الشعوب. فاللغة الهندية الأوروبية الأولى قد تفرعت إلى لغات كثيرة ومثل هذا حدث للغة السامية الحامية الأولى. وقد شهدت عصورنا التاريخية كثيراً من آثار هذا القانون. فاللغة اللاتينية التي سادت أوروبا في أواخر العصور القديمة وفي العصور الوسطى قد تشعبت إلى عدد كبير من اللغات الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا.. رغم بقاء اللغة اللاتينية كلغة أدب وكتابة هذه الشعوب، ولكنها تحت عن ذلك لتترك التاريخ وحده معبراً عن رمز اللغة في خصائص تحديد هوية الانتماء لهذه الشعوب. والعصر الحاضر نفسه يشهد كثيراً من آثار هذا القانون، فالأسبانية أمريكا اللاتينية لهجات كثيرة، وإنكليزية إنكلترا تختلف عن إنكليزية الولايات المتحدة الأمريكية والألمانية ليست هي كما في سويسرا¹⁴ وعربية المشرق العربي ليست هي كما في المغرب العربي بسبب طغيان الظروف الزمانية والمكانية والمحيطية على خصوصية النطق واللغة الموحدة أكثر من ضوابط الالتزام بالناطق واللغة الموحدة. وبذلك اعتبرت اللغة عامل من العوامل المتغيرة في تحديد الهوية والانتماء خاصة بعد تصاعد حالات سرقة هويات الانتماء عن طريق اللغة أو إتقان لغة جماعة أخرى قد سهل انتقال الفرد وتكيفه مع البيئة الجديدة والحصول على هويتهم¹⁵.

هوية الطبقة :

أن النمط الجديد من المجتمعات الذي تكون ما بعد الصناعة افرز صراعاً حاداً بين رأس المال والعمل، نتج عنه صراعاً بين أصحاب رأس المال والعمال بالشكل الذي رتب تصنيفاً اجتماعياً حاداً انتشر عالمياً بين طبقات العمال الواسعة وطبقات أرباب العمل المحدودة¹⁶، وانعكس ذلك في تبني الطبقة العاملة نظرية شاملة أيديولوجية وسياسية أطلق

¹⁴ علي عبد الواحد وإلي - نشأة اللغة عند الأسمان والطفل - القاهرة ١٩٦٢ ، كذلك انظر د. ابراهيم منكور - معجم العلوم الاجتماعية - مصدر سبق ذكره ص ١١٢ .

¹⁵ جون جوزيف - اللغة والهوية - ترجمة د. عبد النور خرافي - علم المعرفة - العدد ٣٤ لسنة ٢٠٠٧ ص ٢١ .

¹⁶ انظر د. عادل مختار الهواري - علم الاجتماع .. منظور اجتماعي نقدي - الشركة العامة للتجهيز والتوزيع - قس -

عليها ((النظرية الماركسية)) رتبت انتماءات طبقية اتسعت مع اتساع نفوذ وتأثير الأنظمة السياسية الشيوعية بقيادة الاتحاد السوفيتي السابق للفترة من ((١٩٢٠ - ١٩٩٠)) وهي الفترة التي فشلت الطبقة العمالية بتجذير هوية الانتماء الطبقي على حساب هوية الانتماء الدولي القانوني أثر الزلزال السوفيتي وتفككه إلى كيانات قومية والانتهيار الدراماتيكي لكتلة الدول الشيوعية وتفكك بعضها إلى سلاسل وأنتيات.

الهوية الدولية القانونية:

أثرت قوانين العلاقات الدولية وتفاعلاتها بموجب ما يسمى بالقانون الدولي والمعاهدات والاتفاقات الدولية التي تنظم انتقال وعمل ومحاكمة الأفراد فيما بين الدول، والاعتماد المتبادل للوثائق المصدقة من قبل الدول على هويات وجوازات وشهادات وأموال الأفراد الصادرة من قبل الدول المعنية في تحديد هويات أنتمائهم والاعتراف بخصوصية القوانين المحلية للدول وأثرها الاعتباري والقانوني والسيادي في هذه العلاقات والتفاعلات ، رتب كل ذلك بقاء الأثر الفاعل لهوية الانتماء الدولية للفرد على حساب انحسار هويات الانتماء العرقية والمذهبية والمهنية والطبقية.

المبحث الثالث: أزمة الانتماء المعاصر

لقد عبرت مرحلة الحرب الباردة عن هويات مركبة اتسمت بالمظاهر:

- الهوية القومية القانونية لمواطني دول المعسكر الشيوعي الذائبة في هوية المعسكر الثقافية والسياسية والتي عرفت بهوية مواطني الدول الاشتراكية المعادية للرأسمالية.
- الهوية القومية القانونية لمواطني دول المعسكر الرأسمالي الذائبة في هوية المعسكر الثقافية والسياسية والتي عرفت بهوية مواطني الدول الديمقراطية الرأسمالية الحرة المعادية للشيوعية الطبقة.
- الهوية القومية القانونية المحلية لمواطني دول العالم الثالث والتي لم تعرف الاستقرار في مضامينها الثقافية والسياسية والحائرة بين الانتماء القومي والعنقي والمذهبي أو

المتعلقة بحال الإمدادات الشيوعية أو الرأسمالية وخاصة المضامين السياسية والاقتصادية.

وبعد نهاية الحرب الباردة وانهيار المعسكر الشيوعي وتداعيات الثقافة الشيوعية والشمولية والطبقية والمياسية المعادية للرأسمالية مع تفرد التحالف الرأسمالي وثقافة الديمقراطية الرأسمالية والمجتمع الحر، ظهرت أصوات عديدة لتعميم الهوية الثقافية السياسية الاقتصادية للمعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية على العالم كهوية إنسانية لتقافة انتصرت على الثقافة الشيوعية، ومساهم في نهاية تاريخ الصراعات المستمرة في العلاقات الدولية^{١٧}. وقد رتب ذلك إعطاء المسوغ القانوني والأخلاقي لتعميم ذلك على شعوب العالم وتوظيف منظمة الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية والأحلاف والقواعد العسكرية التي كانت أدوات للصراع الدولي بين القطبين إلى أدوات لفرض هوية إنسانية شاملة ذات مميزات وخصائص رأسمالية أمريكية أوروبية، وانعكس ذلك في توظيف ما طرحه "فوكاياما" في انتصار الليبرالية بصورة نهاية لهذا الغرض. ومنذ ذلك أصبح العالم في حالة غليان فكري وأيديولوجي في السنوات التي تلت الزلزال السوفييتي فعمت ظاهرة الأعلام المقلوبة^{١٨} والبحث عن رموز جديدة لثقافات جديدة ولهويات جديدة، الأمر الذي نفع "صموئيل هنتغتون" ليصرخ في كتابه "صدام الحضارات" ويحذر من انبثاق تفعيل فعال لهويات حضارات تاريخية ساكنة كالحضارة الصينية والإسلامية الأمر الذي يتطلب بسرعة فرض الهوية الثقافية للحضارة الغربية لما لها من انعكاسات على تمحور الهويات القومية ومضامينها السياسية حولها^{١٩} من خلال:

أ. المضامين الاجتماعية السيكولوجية: لقد أشار "تاجفيل Taifel عام ١٩٧٩م بوضوح إلى أن نظرية الهوية لها ثلاث جوانب:

١. التحليل للسيكولوجي للعمليات المعرفية- الدافعية . وهنا لابد من تعميم عملية التربية الغربية لاكتساب المعرفة والعملية الإعلامية المرافقة لها .

^{١٧} منذر سليمان - دولة الأمن القومي - المستقبل العربي - العدد ٢٢٥ - ص ٢٥ .

^{١٨} صموئيل هنتغتون - صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي - دار الجماهيرية - بنغازي - ١٩٩٩ ص ٦٩ .

^{١٩} صموئيل هنتغتون - المصدر السابق نفسه ص ٧٠ و ٧١ .

٢. تطبيق العمليات المعرفية على العلاقات بين الجماعات والأفراد وهذا يتطلب تعميم أنماط التفاعل في عمليات الاتصال الفردي في المجتمعات الدولية بما يتناغم مع الأسلوب الغربي.

٣. فرض استمرار هذه الأنماط على العلاقات الاجتماعية وبذلك تنتقل الهوية الشخصية للخصائص الفردية في الدول البعيدة عن الحضارة والثقافة الغربية إلى الهوية المستندة على العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات^{٢٠} فنجد تعميم لنمط الاستهلاك، لنمط النداي، لنمط التعليم، لنمط الاقتصاد، لنمط السكن والتنقل، لنمط الادخار، لنمط التأليف والبحث، لنمط الأمن، لنمط القضاء، لنمط النظام السياسي. وبذلك تشكل المتغيرات في الأنظمة الاجتماعية الأسرية والصحية والتعليمية والقضائية والأمنية والسياسية عملية إزاحة الثقافة القومية أو الوطنية أو القانونية القديمة صوب الثقافة الغربية وأنظمتها الفرعية في نظامها الاجتماعي العام.

ب . مضمون اللغة:

أن تعميم تداول المخاطبات والمراسلات المرئية والسمعية والمكتوبة بين العالم باللغة الإنكليزية للثقافة الغربية يلعب دوراً مهماً في تصدع الهويات القديمة نحو الهوية الغربية-الأمريكية بعد أن شكلت دراسات عديدة للتاريخ الإنساني الحضاري الدور المهم للغة في تحديد خصائص الهويات الوطنية للثقافات والسلالات والأعراق لذلك جاءت الإزاحة للمعاني والمصطلحات الوطنية لتحل محلها المعاني والمصطلحات الإنكليزية لتصب في هذا الهدف^{٢١}.

ج. مضامين المنظمة الدولية :

إن الدفع لاحتواء المنظمة الدولية كواجهة لتمرير ((الهوية الغربية-الأمريكية)) على العالم جاء تحت معطيات تفرد الغرب على فاعلية المنظمة الدولية "الأمم المتحدة" وأحداث متغيرات فيها وفي مضامين عمل مؤسساتها بما يضمن خدمة هذا الهدف من خلال:

²⁰ انظر د. احمد زايد - ساينولوجية العلاقات بين الجماعات - عالم المعرفة - العدد ٣٢٦ لسنة ٢٠٠٦ ص ٢٧

ومابعدها .

²¹ جون جوزيف - اللغة والهوية - ترجمة د. عبد التور خرافي - مصدر سبق ذكره ص ١٨ - ١٩ .

- تعزيز دور مجلس الأمن بعد إضافة أعضاء جدد لا يخرج مرشحيه عن ((ألمانيا واليابان)) بعد أحداث وقائع جديدة على الساحة الدولية لنشاطهما السياسي والأمني والاقتصادي بما يضمن هيمنة الأكثرية السائدة للغرب على حساب انحسار النفوذ الروسي-الصيني .
- تنامي المنداة " بالمواطنة العالمية " من خلال الدعم لاقتراح إنشاء الجمعية البرلمانية للأمم المتحدة (UNPA) تحت شعار تجاوز تناقض بيروقراطيات البرلمانات الوطنية وتحت شعارات تجاوز سلبيات التصويت في الجمعية العمومية للأمم المتحدة التي تعطي الحق المادي للتصويت بين الدول الصغيرة في كثافة السكان مع الدول الكبيرة في كثافة السكان²² وفي هدف آخر هو الالتفاف على الاتحاد البرلماني الدولي الذي ركز على الجانب الوطني في العضوية بعيداً عن طروحات الهوية العالمية ذات الخصائص الغربية- الأمريكية .

د . المضامين السياسية:

الهوية السياسية للأفراد والجماعات في الإطار الدولي لم تشق طريقها في بناء هوية وطنية متمثلة في إقامة الدولة الحديثة لبناء وتشكيل مجتمعاتها . وجاءت هذه الدول في معظمها تقليداً لدول القوة الاستعمارية السابقة وبالتالي فإن البحث عن إقامة دولة ما هو إلا رد فعل للاستعمار، ذلك أن أهم الحقائق السياسية في القرن العشرين هي انتهاء فترة الحكم الاستعماري وظهور دولة مستقلة ترنو إلى التحديث في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، فخلق ذلك تنديداً في قوة الانتماء لهذه الهوية الدولية المستورة. وفي العالم الأوربي أصبحت الدولة أقوى جهاز وأفضل أداة لقيادة المجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. فقوة الدولة أصبحت ضرورة لحاجة الحزب السياسي لتمرير مصالحه الاقتصادية والإعلامية والانتخابية مع التأكيد لبقائها بعيداً عن التدخل الفاعل للأنشطة الاقتصادية الداعمة لهذا الحزب أو ذلك وحتى في مضامين السياسة الخارجية أضحت الدولة تسير حسب رغبات

الأحزاب والقوى الفاعلة مما رتب أيضا في تنذبذبة قوة ملامح الدولة في هوية الانتماء التي أضحت تسير لتوجه السياسي لهذا الحزب أو ذاك.

ومع بداية السبعينات من القرن الماضي يتبين من خلال تحليلات الماركسيين بأن مؤسسة الدول أخذت تتسرخ بدلا من أن تضعف كما هو مخطط لها نظرياً في الفكر الماركسي الأمر الذي أدى إلى تناقض الفكر المعبر عنه في هوية الانتماء الشيوعي في المجتمعات الشيوعية وواقع هيمنة الدولة على هذه الهوية وهذا رتب أيضا تنذبذبا في قوة الانتماء إلى هوية محددة عرقية كانت أو قانونية أو دينية^{٢٣}.

السيد والتابع Client Patron Reliton

أحد أشكال الجدل الطويل في الأدبيات المتعلقة بسياسة بعض الشرائح والأحزاب والجماعات هي علاقات السيد بالتابع، ورغم ما قيل عنها من أنها علاقات مؤقتة بيد أن التحليل السياسي اظهر بقاء بعض الأحزاب والجماعات والشرائح مرتبطين بمناهج وسياسات وتوجيهات قوى خارجية. فمن يتابع بعض الجماعات الغنية المتفذة في الهند يجد أن سلوكها وادائها وخياراتها تتجه دائما إلى الدولة التي استعمرت الهند قرونًا، وخلفت مراكز ثقافية وإنسانية مرتبطة بإنكلترا، والحالة نفسها مع جماعات من جنوب أفريقيا وجماعات أخرى من أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية التي اعتبرت أمريكا الجنوبية صديقة خلفية لها لعقود طويلة أو مع أسبانيا الموائمة لها من ناحية اللغة ومعظم العادات والتقاليد. وكذلك الحال نفسه بين فرنسا وشرائح اجتماعية متنوعة وعديدة في مجتمعات دول أفريقيا وخاصة أفريقيا الشمالية أو الدول الناطقة بالفرنسية. ونجد الحال نفسه في استراليا والولايات المتحدة الأمريكية^{٢٤}.

السياسة الدولية:

اتسمت خصائص العلاقات الدولية أثر اختلال التوازن الدولي بتراجع القطب السوفيتي إلى القوة التقليدية لدول كبرى كروسيا وانصراف الصين إلى ترتيب وضعها

²³ د. عبد العال دبله - الدولة - رؤية سوسولوجية - دار الفجر - القاهرة - ٢٠٠٤ - ص ١٠.

²⁴ انظر الدور فنكل ونوكوت سيرمان - تركيا المجتمع والدولة - ترجمة د. حمدي حميد الدوري - بيت الحكمة - بغداد ٢٠٠٢ - ص ١٩١ - ١٩٢.

الاقتصادي بنظام اشتراكية السوق، بتفرد القوة والمصلحة في سير وتفاعل هذه العلاقات، وفرضت توجهات السياسة الأمريكية الكونية، بصماتها على فاعليات معظم الدول في عملية التفاعل هذه، الأمر الذي رتب انقسام العالم إلى:

١. متحالف مع القوى التي تقودها الولايات المتحدة.

٢. عدو لهذا التحالف يتكون من الدول التي تعارض التوجهات التي تقودها الولايات المتحدة.

ومع الاستخدام السياسي للاستراتيجيات الأمريكية - الأوروبية ووساطتها خلال العقد المنصرم تعزز هذا الفرز إلى:

١. دول متحالفة مع الولايات المتحدة وأوروبا ضد الإرهاب الدولي المحدد وفق المنظور الغربي.

٢. دول وجماعات ومنظمات متهمه بالإرهاب أو مساندة الإرهاب ، أي ظهور طروحات جديدة للأمن العالمي.

فأصبحت شعوب كلا الطرفين تعاني من أزمة الإرهاب ومن هو ضد الإرهاب وما هو الإرهاب أصلاً وما هي المقاومة الشرعية وما هو المفهوم العملي للسيادة.. كل ذلك أربك العديد من الشعوب في مهامات الانتماء إلى الديمقراطية وتبني حقوق الإنسان ومحاربة الإرهاب والتحالف مع من أو ضد من. الأمر الذي رتب إضافياً غمماً على مفاهيم الانتماء وخصائص الهوية المحددة له^{٢٥}.

العولمة السياسية:

في عام ١٩٩٥ م خرجت منظمة التجارة العالمية إلى أرض الواقع لتكون أول منظمة دولية تعني بالمسائل المتعلقة بالسياسات التجارية للدول. وقد أدى هذا التطور إلى تزايد الشعور بالحاجة لمزيد من التعاون والتكامل فيما بين الدول وظهرت ترتيبات تكاملية جديدة الأنماط والأبعاد والتوجهات على اعتبار أن الاتفاقية هي الإطار القانوني لتحرير التجارة العالمية، ولا يوازيها سوى المجموعة الأوروبية التي نجحت في تشكيل التكتل التجاري

²⁵ انظر محمود محمد ياسين - الجهود الدولية والتشريعية - لمكافحة الإرهاب وحرب العالم الجديد - دار الرضوان - حلب ٢٠٠٥ م ص ٢٧ .

ثم السياسي ثم الاتحادي حتى وصل إلى اتفاقية دستورية استغنت بموجبها شعوب الدول الأوروبية عن الهويات الوطنية لمصلحة الهوية الجامعة رغم بقاء بعض التداخل لطبيعة الفروق الزمنية التي تكونت فيها الهوية لحقبة طويلة. والهوية الجديدة الناشئة حديثاً. فظهرت التكتلات الاقتصادية المؤثرة سياسياً في:

١. مجموعة النمر الآسيوية ((كوريا الجنوبية، ماليزيا، إندونيسيا، تايلان، تايلاند)) من أجل التعاون الاقتصادي المالي والتجاري الذي انعكس على التعاون السياسي وأثر على تقارب الهويات المجتمعية وكأنها أصبحت أكبر مع الاحتفاظ بالخصوصية المحلية.

٢. منظمة التجارة الحرة لأمريكا الشمالية ((الولايات المتحدة، كندا، المكسيك)). فقد شعرت هذه الدول بأن التعاون التجاري الصناعي المالي قد ساهم في ترابط مجتمعي تجاوز الحدود القانونية الدولية لدولهم مما أثر كذلك على سمات وخصائص الهوية الإنمائية ، كما حدث في معاهدة ماسترخت عام ١٩٩١ للمجموعة الأوروبية التي مهدت الانتقال من حالة السوق المشتركة إلى حالة الاتحاد بعد التوصل للعملة الموحدة السارية منذ عام ١٩٩٩ وتطورت الإقليمية التجارية إلى تكتلات دولية بلغت أكثر من (١٠٠) تجمع ، منها (٢٩) تجمعاً ظهر عام ١٩٩٢ ، وميزة هذه التجمعات أنها تجاوزت صيغة الحدود المتاخمة لضرورات التعاون إلى الإقليمية والعالمية^{٢٦}، كله ساهمت في تذويب الحديد من الخصائص والمميزات للهويات الوطنية مثل العادات والمصالح واللغة والشعور القومي والسيادة.. وقد ترأى هذا مع طروحات نظرية نهاية التاريخ End of History التي تزعم أن انهيار الاتحاد السوفيتي وانقصار الرأسمالية قد أسفرت عن انتهاء التاريخ لتحل محله العالمية بمفاهيمها وتفسيراتها المختلفة واتباع فلسفة ومنهج في التنمية وإدارة الدولة والمجتمع، يرتب منطلقات جديدة للمواطنة العالمية على حساب الهوية الوطنية.

الختمة

قد لا يخطر ببال البعض أهمية وجود خصائص ومميزات لانتماء الفرد لمجتمع بعينه وللدولة محددة المواصفات بموجب خصوصيتها الموضوعية. او قد يخطر ببال البعض أن تحديد هوية الانتماء ضرورة لمتطلبات تطبيقات القانون المحلي أو القانون الدولي. حيث أن مسألة تحديد الخصائص والمميزات والاحتفاظ بها وتمجيدها يرتقي فوق كل ذلك لما يحمله من أهمية اعتبارية ومادية تتعلق بالغايات العليا والأهداف العليا لأي مجموعة سياسية داخلية في المجتمع السياسي التوافق دوماً لتحقيق القانون الأزلي للشعوب الإنسانية في تجذير الاستقرار نحو التقدم والتطور بعد إكمال جميع أنظمتها الاجتماعية الفرعية لتحقيق الغايات العليا وفي كل ذلك تلعب هوية الانتماء دور المحرك المستقطب لجهود الأفراد والجماعات.

آفاق تعزيز العلاقة بين المجتمع المدني والديمقراطية في العراق

المدرس المساعد

سعد حميد ابراهيم السعدي^(*)

المقدمة:

بعد التغيير السياسي الذي حدث في العراق في ٩/٤/٢٠٠٣ والذي بدأ يعبر عن ذاته بمخرجات كان في مقدمتها احتلال العراق وفق قانون مجلس الأمن ١٤٨٣ انهمرت علينا مفاهيم لم تكن متحسين لتداولها بسبب الكبت الذي تعرض له العراقيين ابتداءً من أول نشوء الدولة العراقية عام ١٩٢١ ولحد الآن وهذه حقيقة موضوعية لا نختلف عليها .

ولذلك كان لمفهوم المجتمع المدني صدى كبير داخل مؤسسات المجتمع العراقي وكافة أوساطه الاجتماعية ثم إن هذا المفهوم ارتبط بمفاهيم أخرى تمثل أحد المطالب المهمة للمجتمع العراقي والحكومة العراقية ألا وهو مفهوم الديمقراطية والحريات العامة .

ومن هنا انطلقت فرضية البحث بأن هناك علاقة طردية بين التجربة الديمقراطية والمجتمع المدني فكلما كان هناك دور فاعل ومشارك للمجتمع المدني في العملية الديمقراطية كلما انعكس ذلك ايجابيا على التجربة الديمقراطية مما يجعلها تجربة ناجحة والعكس صحيح.

العلاقة بين المجتمع المدني والديمقراطية

من المتعارف عليه إن الديمقراطية والمجتمع المدني يشتركان في علاقة تكاملية ذلك إن الديمقراطية هي السبيل لانتعاش مؤسسات المجتمع المدني مثلما المجتمع المدني هو الركيزة الأساسية لترسيخ التجربة الديمقراطية .

إن هناك علاقة حتمية وجدلية بين المجتمع المدني والتطور الديمقراطي ولا سيما في مجال تبني مؤسسات المجتمع لعلاقات تقوم على تقديس حق الاختلاف في الآراء

^(*) مدرس العلوم السياسية الجامعة المستنصرية.

والمصالح المادية والمعنوية في داخل مؤسساتها وفيما يخص علاقاتها مع بعضها البعض ومع الدولة كذلك . ويصح القول إن الديمقراطية هي الوجه السياسي للمجتمع المدني فهي صيغة سلمية لإدارة الاختلاف والتنافس والصراع ووفقا لقواعد المتفق عليها مسبقا من لدن كل الأطراف^١. وإلى جانب ذلك فإن مؤسسات المجتمع المدني هي مدارس للتنشئة السياسية على الديمقراطية سواء كانت جمعية خيرية أو نادي رياضي أو رابطة ثقافية أو حزبا سياسيا أو نقابة عمالية فإنها تدرّب أعضائها على الممارسات الخاصة بالديمقراطية في المجتمع الأكبر مثل الالتزام بشرط العضوية وحقوقها وواجباتها والمشاركة في النشاط العام والتعبير عن الرأي والاستماع للرأي الآخر وعضوية اللجان ، والتصويت على القرارات والمشاركة في الانتخابات والقبول بالنتائج .

سواء كانت في مصلحة العضو أو لم تكن^٢ وبالإضافة إلى ذلك فإن مؤسسات ومنظمات المجتمع المدني هي في واقع الحال جماعات مصالح . تنمي وتدافع عن هذه المصالح في مواجهة المنافسين والخصوم من جماعات ومؤسسات المجتمع المدني الأخرى وعلى مواجهة الدولة أيضاً ملتزمة بالأسلوب السلمي لإدارة الصراع والاختلاف .

وبهذا المعنى تغزو جزء لا يتجزأ من البناء الديمقراطي للعالم إن وجد فعلا وجزءا لا يتجزأ من الشروط اللازمة لوجود مثل هذا النظام أو أصلاحة أو التمهيد لنشأته إن لم يكن موجود بالفعل.

إن مأسسة المشاركة السياسية هي المتغير الجوهرى الذي يمكن على أساسه تحديد النظام الديمقراطي وتميزه عن غيره من الأنظمة ومن دونه يمكن أن يختلط مع غيره من الأنظمة وبخاصة تلك الأنظمة التي تبدو ديموقراطية في شكلها ومظهرها الخارجى وغير ديموقراطية في مضمونها وطبيعة ممارستها وهي النموذج الشائع في اغلب الدول النامية^٣.

^١ احمد شكري حمود الصبيحي ، مشكلات المجتمع المدني ومستقبله في الوطن العربي ، اطروحة دكتوراه غير منشورة ، مقدمة إلى كلية العلوم السياسية / جامعة بغداد / ١٩٩٨ ، ص ٤٥ .

^٢ عبد الخفار شكر ومحمد مورو ، المجتمع الأهلي ودوره في بناء الديمقراطية ، دار الفكر ، سوريا ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٦ .

^٣ جاسم القطامي ، تعقيب على ورقة باقر النجار (المجتمع المدني في الخليج العربي والجزيرة العربية) في ندوة المجتمع العربي في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية . ص ٦٠٠ .

أن عملية بناء المؤسسات السياسية ترتبط بطبيعة الهدف المطلوب تحقيقه من وراء بنائها فالمؤسسات ليست لها قيمة بحد ذاتها وإنما تأتي قيمتها من الوظيفة الموكلة لها إنجازها إذ لا توجد ثمة علاقة بين مسألة توظيف .

الظروف الملائمة لنظام ديمقراطي من عدمه وعملية بناء المؤسسات فكل من الأنظمة الديمقراطية وغير الديمقراطية ومؤسساتها وقدراتها التي تستخدمها لتحقيق الأهداف التي تضعها للنخب الحاكمة فهناك مؤسسات تعزز للتطور الديمقراطي وتسمح بالمشاركة السياسية وهناك مؤسسات تعزز قدرات الضبط الاجتماعي والتوجيه السياسي والإقناع وربما الإكراه الإيديولوجي وحشد المواطنين وتعبئتهم من دون مشاركة حقيقية من جانبهم فيكون التساؤل عن طبيعة الإيديولوجية التي تلتزم بها النخب الحاكمة والثقافة السياسية السائدة في المجتمع طبيعياً بصدد البحث عن الهدف الذي تنبئ من أجله المؤسسات^٤ . وفي هذا المجال نحاول أن نبرز عدة نقاط محددة تدور حول جوهرها الديمقراطية وروحها^٥ :

١. الديمقراطية تعني احترام حقوق الإنسان التي تضمنها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أقرته الأمم المتحدة كحق التعليم والعمل والصحة والرعاية الاجتماعية .

٢. الديمقراطية تعني التعددية السياسية فسيطرة للرأي الأوحـد أصبحت تتطوي على خطور التجمد وقتل الإبداع ولم تعد مقبولة في ظروف الحياة الحديثة التي بلغت حد من التعقيد والتشابك . لذا فإن تعدد الآراء والاتجاهات والتصورات وتوفير المناخ الصحي بتفاعلاتها هو الضمان الأكبر للتجديد والصواب .

٣. الديمقراطية تعني إمكان تداول السلطة شرعياً وسلمياً فلا معنى للتعددية من دون توفر آليات تسير شؤون المجتمع بحيث يحضى الاتجاه الذي يحوز الأغلبية بالسلطة بتنفيذ برنامج اكتسب التأييد والموافقة العامة فاستمرار السلطة بلا تغيير فسي يؤدي طرف ولحد مفسدة .

^٤ نقلاً عن أحمد شحاتة محمد الكبيسي ، إشكالية المجتمع المدني في دول الخليج العربي ، رسالة ماجستير (غير منشورة) مقدمة إلى كلية العلوم السياسية / جامعة بغداد ، ٢٠٠١ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

^٥ نقلاً عن المصدر السابق ص ١٥٦ - ١٥٧ .

ومن أهم مميزات الديمقراطية بالتالي توفير آليات التداول السلمي للسلطة بلا انقلابات أو تصفيات . وهناك بعض العوامل التي تساعد على خلق البيئة المناسبة لظهور الديمقراطية وتعزيز مؤسسات الحكم الديمقراطي : ومنها^٦ :-

١. وضع دستور ديمقراطي للدولة .
٢. أن تكون الدولة قانونية بمعنى احترام سيادة القانون والمساواة القانونية
٣. احترام حقوق الإنسان ونشر التعليم واحترام حرية التعليم .
٤. السماح بالتنظيمات الاجتماعية والمهنية والسياسية .
٥. الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية وممارسة الرقابة على أجهزة الحكم .
٦. إقرار التعددية السياسية على أسس غير قبلية أو مذهبية .
٧. تأمين الحاجات الأساسية لجميع المواطنين .
٨. خلق روح المواطنة والانتماء إلى الدولة .
٩. نشر الثقافة السياسية لترسيخ المفاهيم الديمقراطية .

على أن مفهوم الممارسة الديمقراطية لا يقتصر على علاقة الحاكم بالمحكوم بل يغطي سلوك المجتمع والمواطنين من خلال التنظيمات والتجمعات بالتالي ممارسة القوى السياسية لأنوارها وفي مقدمتها الأحزاب والمنظمات والنقابات والجمعيات العلمية والأهلية .

إن فلا وجود للديموقراطية الحقيقية إلا بوجود مؤسسات المجتمع المدني فكلما قويت مؤسسات المجتمع المدني وازدادت فاعليتها وتواتر نشاطها ضعفت قدرة الدولة على التعسف إزاء حقوق المواطنين وحرياته ، وكلما ضعفت مؤسسات المجتمع المدني وخفت فاعليتها وتوقف نشاطها ازداد تعسف سلطة الدولة إزاء المواطنين وتضخم دور القوة في العلاقة بين المواطنين والدولة على حساب حقوقهم وحرياتهم^٧ .

وهكذا تعمل مؤسسات المجتمع المدني كقنوات للمشاركة السياسية في عملية اتخاذ القرارات السياسية مما يجعل منها ضرورة لاغنى عنها بالنسبة للديموقراطية فإذا كان النظام

^٦ نقلا عن المصدر السابق ص ١٥٨ .

^٧ برهان غليون ، بناء المجتمع المدني العربي : دورة العوامل الداخلية والخارجية ، في ندوة المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية ص ٦٩٧ .

السلطوي يميل لان يستولي على دور مؤسسات المجتمع المدني وأشغال محلها بنفسه في عملية صنع واتخاذ القرارات السياسية كمفتاح للهيمنة على المجتمع ضمن غير المتصور قيام نظام ديمقراطي من دون مؤسسات المجتمع المدني بدورها الفاعل ولا يمكن لأركان العملية الديمقراطية إن تتكامل من دونها وبالمقابل لن يكون من الممكن لمؤسسات المجتمع المدني إن تنمو وتتطور وان تحصل على دورها الفعلي إلا في ظل نظام ديمقراطي .

ويمر العراق حالياً بعملية بناء المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في نفس الوقت والصلة بين العمليتين قوية بل أنهما اقرب إلى إن تكونا عملية واحدة من حيث الجوهر ، ففي الوقت الذي تنمو فيه التكوينات الاجتماعية والاقتصادية الحديثة وتتبلور فأنها تخلق معها تنظيمات مجتمعية المدني التي تسعى بدورها الى توسيع دعائم المشاركة في الحكم^٨.

وهكذا فان الدور الهام للمجتمع المدني في تعزيز التطور الديمقراطي وتوفير الشروط الضرورية لتعميق الممارسة الديمقراطية وتأكيد قيمها الأساسية ينبع من طبيعة

المجتمع المدني وما تقوم به من دور ووظائف في المجتمع لتصبح بذلك بمثابة البنية التحتية للديمقراطية كنظام للحياة وأسلوب لتسيير المجتمع وهي من ثم أفضل إطار للقيام بدورها كمدراس للتثنية الديمقراطية والتدريب العملي على الممارسة الديمقراطية^٩.

ولا يمكن تحقيق الديمقراطية السياسية في أي مجتمع مالم تصبح منظمات المجتمع المدني ديمقراطية بالفعل باعتبارها البنية التحتية للديمقراطية في المجتمع بما تتضمنه من نقابات وتعاونيات وجمعيات أهلية وروابط ومنظمات نسائية وشبابية .. الخ .

حيث توفر هذه المؤسسات في حياتها الداخلية فرصة كبيرة لتربية ملايين المواطنين ديمقراطياً وتدريبهم عملياً لاكتساب الخبرة اللازمة للممارسة الديمقراطية في المجتمع الأكبر^{١٠}. وهذا ما يحتاجه العراق حالياً بعد عقود من الاستبداد وغياب وتخريب الديمقراطية ومؤسسات المجتمع المدني والذي نتج عنه ضعف المشاركة السياسية وعدم

^٨ حسين علوان البيج ، الديمقراطية وإشكالية التعاقب على السلطة في المسألة الديمقراطية في الوطن العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، العدد ٣ ، ٢٠٠٤ ، ص ١٦١ .

^٩ عبد الغفار شكر ومحمد مورو ، مصدر سابق ص ٨٥ .

^{١٠} المصدر السابق ص ٥٩ .

ارتفاع الوعي الشعبي لدى المواطن العراقي بالديموقراطية والتعددية السياسية والتداول السلمي للسلطة ... الخ .

ذلك إن الديمقراطية لا ينتجها إلا التطبيق الفعلي لها بمعنى ان التطبيق الفعلي لها بمعنى ان الديمقراطية هي الطريق الى الديمقراطية^{١١}.

وبهذا الشكل ترسو صيغة علاقة طردية بين الديمقراطية والمجتمع المدني مؤداها متى ما ترسخت أسس الديمقراطية تدعمت مؤسسات المجتمع المدني ، ومتى ما انحسرت الديمقراطية تراجع مؤسسات المجتمع المدني إحدى علائم الديمقراطية البارزة فحسب وإنما هي تشكل الدعائم الأساسية الديمقراطية أيضاً فلا ممارسة ديموقراطية حقيقية بغير مجتمع مدني فاعل ونشيط بل ان الديمقراطية تتعزز بوجود مؤسسات المجتمع المدني ففي سياق الدفاع عن مصالح القوى التي تمثلها تصون الديمقراطية وتعمل على ترسيخها^{١٢}. وعليه يمكن لمؤسسات المجتمع المدني ان تلعب دوراً أساسياً في البناء الديمقراطي في العراق وذلك من خلال الادوار الأساسية الآتية :

- ١- تعد مؤسسات المجتمع المدني مدارس للتثنية السياسية على الديمقراطية .
- ٢- إلى جانب السلطات القضائية والدستورية تقوم مؤسسات المجتمع المدني بتحديد وضبط واحتواء بعض التجاوزات التي يمكن ان تبرز من العملية الديمقراطية .
- ٣- تلعب مؤسسات المجتمع المدني دوراً بارزاً في أغناء العملية الديمقراطية وتحافظ على تنوعها وتحد من نفوذ الحركات المتطرفة وتأثيرها التي تستغل مشاعر السكان البسطاء وخصوصاً المشاعر العرقية والدينية لأهداف انتخابية .

^{١١} حارث محمد ، التعددية الثقافية والسياسية في العراق ومستقبل التحول الديمقراطي ، مجلة مركز العراق للأبحاث ، العدد الثاني ، بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص ١٦ .

^{١٢} حسين علون البريج ، مصدر سابق ، ص ١٦١ .

الخاتمة

١. يعرف المجتمع المدني بأنه مجموعة التنظيمات التطوعية الحرة التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدولة لتحقيق مصالح أفرادها ملتزمة في ذلك بقسيم ومعايير الاحترام والتراضي والتسامح والإدارة السلمية للتنوع والاختلاف .
٢. تعرف الديمقراطية بأنها نظام حكم ومنهج سلمي لإدارة أوجه الاختلاف في الرأي والتعارض في المصالح ويتم ذلك من خلال إقرار وحماية وضمان ممارسة حق المشاركة السياسية الفعالة من قبل الكثرة في عملية اتخاذ القرارات الجماعية الملزمة للجماعة السياسية بما في ذلك تداول السلطة وفق شرعية دستور ديمقراطي .
٣. بعد سقوط النظام السياسي في العراق ٩ / ٤ / ٢٠٠٣ واجه مفهوم المجتمع المدني صدى كبير داخل مؤسسات المجتمع العراقي وكافة أوساطه الاجتماعية حيث ارتبط هذا المفهوم بمفاهيم أخرى تمثل إحدى المطالبات المهمة للمجتمع العراقي والحكومة العراقية الا وهو مفهوم الديمقراطية والحرية العامة .
٤. هناك بعض المعوقات التي تقف أمام عملية التحول الديمقراطي في العراق لعل أهمها :
 - أ. ارتفاع نسبة الأمية التي تعد أكبر عائق لبناء المجتمع الديمقراطي .
 - ب. مشكلة التعصب القبلي والطائفي والديني وسيادة الانتماءات الفرعية وتغليبها على حساب الانتماءات الوطنية .
 - ج. تردي الأوضاع الاقتصادية بفعل انتشار البطالة وتردي الأوضاع المعيشية لعدد كبير من المواطنين العراقيين .
 - د. معوقات أمنية كذلك هناك معوقات تقف أمام منظمات المجتمع المدني وأهمها معوقات فنية ومادية .

النظام الفيدرالي في العراق (واقع وطموح)

الدكتور

الدكتور

ماجد عيال وهيب^(*)

علي حسين جلود^(**)

مستخلص:

هذا البحث عنوانه "النظام الفيدرالي في العراق واقع وطموح" تتناول مفهوم الفيدرالية، ونبذة تاريخية عن ملامح الحكم الفيدرالي وما هي وجهة نظر القانون حوله والدوافع لتطبيقه وهل الفيدرالية وحدة ام تقسيم!، وما موقف القوى السياسية من الفيدرالية! مع طرح سؤال مهم : هل الفيدرالية مناسبة لوضع العراق الراهن؟ ثم الخاتمة.

وبعد بيان مفهوم الفيدرالية وتوضيحها لقارئ ليكون على بينة منها طرحنا النظام المناسب لوضع العراق الحالي وهو نظام الحكم اللامركزي ونعني به زيادة الصلاحيات المخصصة للحكومات المحلية بحيث يكون نظام الحكم أقرب الى النظام الفيدرالي لسعة الصلاحيات الممنوحة من قبل حكومة المركز ومن الممكن ان تتطور اللامركزية لتصبح نظاماً فيدرالياً في المستقبل بحسب ما يتناسب مع وضع العراق المستقبلي بعد ان يترسخ مفهوم الفيدرالية ويتضح في أذهان الشعب ليكون مقبولاً لدى عامة الشعب او غالبية.

^(*) جامعة ذي قار

^(**) جامعة ذي قار

المقدمة:

ان حضارة وادي الرافدين تفردت باول ظهور لنظام دولة المدينة على انه اول شكل من اشكال الحكم في التاريخ البشري^١.

وقد تميزت الحضارة السومرية منذ نشوئها في عصر فجر السلاسل بالعلاقة مع خصائصها السياسية بظهورها على اساس عدة دول مدنّية مستقلة لكل منها حدودها واسوارها واسرتها الحاكمة والهها الحامي ونظمها وقوانينها^٢.

والفيدرالية دولة تنشأ من اتحاد دول صغيرة او ضعيفة، لتصبح هناك دولة متحدة فيدرالياً، بحيث ان كل دولة في الاتحاد تتنازل عن سيادتها الخارجية، وبعض اوجه السيادة الداخلية لصالح الدولة الاتحادية، مع بقاء كل دولة محتفظة باستقلالها الداخلي، دستوراً وحكومة.

والغاية من الفيدرالية هو تأسيس دولة كبيرة قوية، ذاتعري وثيقة لا انفصام لها غرضها الدفاع عن كيان الدول الداخلة في الاتحاد وانطلاقاً من رؤى الاكاديميين العراقيين في بناء العراق الجديد، قمنا بكتابة هذا البحث المعنون "النظام الفيدرالي في العراق واقع وطموح" وقسمناه على العناوين الآتية: مفهوم الفيدرالية، ملامح الحكم الفيدرالي-نبذة تاريخية، الفيدرالية من وجهة نظر القانون، الدوافع لتطبيق الفيدرالية، الفيدرالية وحدة لا تقسيم، موقف القوى السياسية من الفيدرالية، آلية النظام الفيدرالي المناسب للعراق، الخاتمة. أملاً منا في وضع رؤية صحيحة وأساس مفهوم لتطبيق النظام الفيدرالي في العراق الجديد والسعي الى انضاجه خدمة للعراق الموحد.

^١ ينظر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، طه بكر: ٣٢٥/١.

^٢ ينظر: حضارة وادي الرافدين، د. عبد الوهاب حميد رشيد: ١٠٣.

مفهوم الفيدرالية

تعني الفيدرالية بصورة عامة نشوء دولة الفيدرالية من اتحاد دولتين أو أكثر بحيث تنزل كل من الدول الداخلة في الاتحاد الفيدرالي عن (بعض) جوانب سيادتها الداخلية و(كل) سيادتها الخارجية لصالح الكيان الاتحادي (الفيدرالي)، ولذا عدت السلطة في الأنظمة الفيدرالية مقسمة بين دول أو أقاليم الاتحاد، في حين انها موزعة بين الأقاليم أو الوحدات الإدارية في الأنظمة اللامركزية، إذ ان الدولة اللامركزية دولة واحدة لكنها مؤسسة تأسيساً ديمقراطياً بحيث تتوزع السلطة بين المركز والأقاليم أو الوحدات الإدارية، في حين نجد في الاتحاد الفيدرالي أو الدول الاتحادية الفيدرالية عدداً من الدول اتحدت على أساس من الفيدرالية^٣.

وفي المعجم السياسي عرفت الفيدرالية بأنها دولة. توحد فيها حكومة مركزية ومجموعة حكومات اقليمية، حيث ان كلاً من هذين المستويين من الحكم مستقل في مجاله عادة على وفق دستور مكتوب يحميه ويورد هذا الدستور اختصاصات مستويي الحكم ويضع عادة ترتيبات لتخصيص الصلاحيات المتبقية وتنسيق تداخل الاختصاصات، فضلاً عن منح المسؤولية القضائي الى محكمة دستورية أو مؤسسة أخرى لاتخاذ قرارات ملزمة، حيث تنشأ الصراعات المتعلقة بتفسير التحديد الدستوري للصلاحيات.

ان المجلس التشريعي الوطني في الدولة الاتحادية يضم عادة مجلساً ثانياً تمثل فيه على نحو مباشر وعلى نحو متساو غالباً، الأقاليم المكونة منها الدولة الاتحادية، وتسمى الأقاليم كانتونات أو جمهوريات أو ولايات... الخ ولكل من مستويي الحكم صلاحيات فرض الضرائب وصلاحيات فرض القانون.

وقد تختلف درجة أو أسلوب النزعة الاتحادية اختلافاً كبيراً بين الدول الاتحادية، وتعد سويسرا والولايات المتحدة -عادة- اقطاراً تتمثل فيها النزعة الاتحادية على النحو الأكثر قوة، واستراليا والبرازيل، وكندا وألمانيا والهند أمثلة أخرى مهمة للدولة الاتحادية وتمتلك

^٣ ينظر: اللامركزية والفيدرالية، نبيل عبد الرحمن حياوي، ٥١.

بعض الدول تساتير اتحادية لكنها لاسباب مختلفة مثل " الدور السياسي الغالب لحزب عقائدي الاساس كما في الاتحاد السوفييتي " لا يمكن ان تعد دولاً اتحادية في التطبيق.

يتطور الشكل الاتحادي للدولة لعدة اسباب منها الحاجة الى دمج مجتمعات عرقية او لغوية او دينية او تجمعات اخرى يمكن تحديدها اقليمياً "لهند وسويسرا على سبيل المثال" او تجنب تعميم مفرد للقوة السياسية (المانيا الاتحادية) على سبيل المثال^٤.

ملاحح الحكم الفيدرالي - نبذة تاريخية

ان النظام الفيدرالي الحديث الذي يتطلع اليه العراق الجديد، والمعمول به في دول كثيرة غربية وشرقية متقدمة، والذي أثبت نجاحه في بلدان كسويسرا، وكندا، والهند والولايات المتحدة الامريكية، والامارات العربية حتى المانيا ذات العرق الواحد والدين الواحد وايطاليا وكذلك لم يكن بعيداً عن التجربة الاسلامية في الحكم، فقد عرف المسلمون نظام الولايات الذي كان يمنح في ظله الوالي صلاحيات واسعة ومستقلة عن المركز كما كان معمولاً به في ظل الدولة العربية الاسلامية لاسيما عندما توسعت واصبحت مترامية الاطراف، واصبحت ادارة تلك الاقاليم البعيدة تشكل عبئاً على المركز على الاصعدة كافة خاصة بعد حركة الفتوحات الاسلامية وتوسع رقعة الدولة.

ان ما تقدم برز بشكل واضح في الخلافة الراشدية والدولة الاموية والعباسية وكلنا يعلم ان البصرة والكوفة كان يطلق عليهما (العراقين) وفي ذلك دلالة على استقلالية هذين المصرين وان في اطار عنوانهما العراقي الموحد.

وفي العصر الحديث كان العراق - كما هو معروف - جزءاً من المنطقة العربية الخاضعة للدولة العثمانية والتي هي الاخرى كانت واسعة الانتشار وامتد حكمها الى اراض واسعة مترامية الاطراف في القارات الثلاث: اوربا واسيا وافريقيا مما زاد من اعباء الحكم على السلطات انذاك وعليه ظهرت حكومات محلية كانت تخضع رسمياً للسلطان العثماني

^٤ المعجم السياسي الحديث، احمد عطية الله السعيد.

وتتمتع بصلاحيات شبه مستقلة، كما في المنطقة العربية في العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب العربي الكبير.

وكان العراق مقسماً الى ثلاث ولايات، هي بغداد، والموصل، والبصرة تتمتع بحكم ذاتي دخل اطار الدولة العثمانية العام وحين استقل العراق على اثر الحرب العالمية الاولى وخسارة الدولة العثمانية، وخضوعه الى الاحتلال البريطاني ومن ثم الانتداب ثم الحكم الوطني في العهد الملكي تغير تقسيم الولايات واصبح تقسيم الولاية على الوبية ومحافظات.

الفيدرالية من وجهة نظر القاتون

الفيدرالية كمسألة قانونية تقع في ضمن اختصاص القانون الدستوري فهو الذي يدرسها ويحدد اصولها ويرسم العلاقة بين سلطاتها المركزية (الاتحادية) وسلطات الاقاليم والولايات.

ان نظام الفيدرالية هو نظام استثنائي في نظام الدول ويلجأ اليه نظراً لوجود ظروف سياسية واجتماعية، وتعد الولايات المتحدة المثال الابرز والاقدم للنظام الفيدرالي. ان دراسة التاريخ السياسي للولايات المتحدة هو الذي يكشف عن العلاقة الجدلية بين تركيز الاختصاص ما بين السلطة الاتحادية وسلطة الاقاليم، فكلما قويت سلطة الاقاليم وتعددت اختصاصاتها ضعفت السلطة المركزية (الاتحادية) وقلت اختصاصاتها والعكس صحيح.

والاصل في كل الانظمة القانونية التي تحكم الدول ان هناك ثلاث سلطات فقط تشكل الحكومة كركن من اركان الدولة الثلاثة فضلاً عن الشعب والاقليم، ولكن ما يحدث في النظام الفيدرالي ان هذه السلطات الثلاث بمجموعها تزدوج فتكون هناك سلطتان تشريعتين الاولى: سلطة شريعة اتحادية تمثل شعب كل دولة وتكون الثانية: سلطة تشريعية خاصة بالاقاليم تمثل الشعب الخاص بالاقليم وتكون طريقة الاقتراع السري المباشر هي الطريقة التي يتشكل من خلالها المجلسان ويتولى دستور الدولة توزيع الاختصاصات بينهما وكذلك الحال مع

السلطة التنفيذية التي تتكون من مجلس وزراء ورئيس وزراء وهي السلطة التنفيذية الاتحادية، وهناك أيضاً سلطة تنفيذية محلية أو اقليمية والحالة نفسها مع السلطة القضائية. غير انه ينبغي الاشارة الى ان السلطات الثلاث في الحكومتين المحلية، والاقليمية لا يحق لها تجاوز القوانين التي حدتها المجلس التشريعي الاتحادي طبقاً للدستور الاتحادي وهذا المجلس عندما يشرع قانوناً يشرعه على اساس انه قاعدة عامة محددة تحكم الاقاليم كافة على حد سواء ولا ينبغي لهذا المجلس منح اقليم سلطة دون اقليم آخر^٥.

نوافع تطبيق الفيدرالية

منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة والعراقيون يحكمون بسلطة مركزة تدير شؤون المحافظات وتقرر مصائرها على نحو طالما غاب في ظنه العدل ومورس من خلاله العدوان فمن يرى اليوم مدناً كالبصرة وميسان والناصرية والديوانية والسماوة وما تعانيه من فقر وتخلف وإهمال سيدرك هذه الحقيقة.

من هنا أسس العراقيون في العراق الجديد دستوراً ضمنوه نظاماً فيدرالياً يترك امر اختياره الى سكان الاقاليم ان شاء طالب به وان لم يشأ فله ذلك.

وبخصوص مشروع اقليم الوسط والجنوب فهناك اكثر من عامل جوهري يبرر المطالبة به، فعدا الخصوصية الثقافية والاجتماعية لسكانه ظل هذا الاقليم يعاني من القهر والتمييز طوال عمر الدولة العراقية الحديثة، وهو اليوم احوج ما يكون الى الاحياء والنهوض سواء على مستوى البنية التحتية او على مستوى توفير الخدمات واقامة العمران، او على صعيد اشراك السكان في الحكم والادارة، وصنع القرار ناهيك عن حاجة ما يتمتع به من مقومات وثروات الى النهوض والتطور، فمن المعروف ان هذا الاقليم يحتوي ثروات

^٥ ينظر: النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، د. رعد الجدة: ٢٥.

عظيمة: نفطية وزراعية وأثرية وسياحية أهملت اهمالاً كبيراً من لدن النظم المركزة المسابقة كما تعرضت الى اضرار بليغة:

١. النفطية: نجد ان المصافي والانابيب ظلت خارج نطاق الاقليم على خلاف المقتضى الاقتصادي.

٢. الزراعية: لن تهمل الزراعة في محافظات الوسط والجنوب فحسب بل منع فلاحو النجف وكربلاء والديوانية والسماوة من زراعة الرز، وهو من أفخر انواع الرز في العالم، وكان كل من يخالف ذلك القرار يعرض حقله للحرق ونفسه للاعدام.

٣. الآثار: ظلت الآثار لا تعني عند السلطة شيئاً على الرغم من ان مدينة الناصرية وحدها تحوي أكثر من ٨٠٠ موقعاً وهو ما يفوق عدد المواقع الموجودة في كل من الاردن والكويت والسعودية^٦، والكل يعلم ان البابا يوحنا بولص الثاني في منتصف التسعينات اراد ان يزور مدينة الناصرية وتحديداً "أور" التي تشرفت بمولد ابي الانبياء ابراهيم الخليل عليه السلام^٧ الا ان الزيارة لم تتم ولم نعلم الاسباب، ولو تمت الزيارة لتحولت "أور" الى مدينة مقدسة لدى العديد من اتباع الاديان.

٤. السياحة الدينية: لم تهمل السياحة الدينية في كربلاء والنجف والكوفة فحسب بل حوصرت عبر منع الزيارة الى العتبات المقدسة على مدى عقود وبشتى الطرق على الرغم من انها على الصعيد النفعي يمكن ان تدر على اهل المنطقة وعموم البلاد المليارات من الدولارات.

٥. السياحة في الاهوار: تعرضت الاهوار كما هو معروف- الى التجفيف وهي من اندر الاماكن الطبيعية التي يمكن تطويرها وتنميتها وبناء المرافق السياحية فيها وجعلها موقعاً جذاباً لكثير من سواح العالم، الا انها جففت (في عام ١٩٩٢ وعُدت مناطق عسكرية، استقر فيها الجيش واعتبر كل شخص متعاون او يتكتم على الاحزاب المعارضة خائناً وخارجاً عن القانون وبذلك استخدم النظام عملة تجفيف الاهوار بشكلها الواسع)^٨.

^٦ ينظر: الفيدرالية ومستقبل العراق، علي عبد الأمير والخرنوب، ٨١، ٧٦، ٨٣، ١٩٤.

^٧ هور الحمير، دراسة سوسيو-اثنولوجية ميدانية من ١٩٩٢-٢٠٠٦م، عدي بجاي شبيب، ٨٥ رسالة ماجستير.

مما نتقدم يمكن ان ندعي ان غياب الادارة الاقليمية المحلية كان احد اهم اسباب ذلك الاهمال الكبير.

الفيدرالية وحدة لا تقسيم

ان مشروع الفيدرالية هو من المسائل التي تثير المخاوف عند البعض لانه ينظر اليه على انه مقدمة للانفصال، والانفصال عند هؤلاء معناه حرمانهم من خيارات الوسط والجنوب وليس المسألة تعني حرصهم على الوحدة الوطنية كما يبدو من ظاهر الامر. وتأسيساً على ذلك فان الفيدرالية ليست مدخلاً للتقسيم، بل هي صيغة ادارية ومشروعاً تنموياً وحضارياً، وقد اقراها الدستور بما لا يتعارض مع الوحدة الترابية او الوطنية، فضلاً عن ذلك فان هناك بعض النقاط تؤيد ما ندعيه نوردتها كالآتي^٨:

١. نصت الوثيقة الدستورية على وحدة العراق، وفي هذا ضمانه تشريعية تمنع تحول الفيدرالية الى حالة من الانفصال.

٢. ان ثمة حقيقة اجتماعية هي ان سكان الجنوب والفرات الاوسط لهم امتدادات واسعة ومكثفة في بغداد فضلاً عن امتداداتهم التي تصل كركوك والموصل وهذا الامر بطبيعته يشكل احدى الضمانات الطبيعية التي يمكن ان تحول دون التفكك.

٣. ان المركزية الدكتاتورية بممارستها الظالمة والتمييزية هي التي كانت تمثل الخطر الحقيقي على الوحدة، ولا خوف من فيدرالية تعيد للمواطن حريته وحقوقه وكرامته ويدفع عنه الظلم والتمييز.

٤. لو ان المعارضين على الفيدرالية بحجة للحرص على الوحدة كان لهم سجل مناهض للتمييز الذي كان سائداً في الماضي على مختلف المستويات ومثيراً للانقسام لهان الامر.

^٨ انظر: من الهجرة الى الدولة، د. علي القرشي، ١٩٨٨-١٩٩٠.

٥. ان الفيدرالية سوف تنتهي كل المشاكل التي ولدتها الانظمة الجائرة وممارستها الطائفية، وان استمرار المنازعات والتطرف سيؤدي الى تقسيم العراق وعليه فالخطر يكمن في النظم المركزية لا في النظام الفيدرالي.

موقف القوى السياسية في العراق من الفيدرالية

بعد سقوط النظام البائد في العراق منعطفاً تحول من خلاله العراق من النظام الدكتاتوري الى نظام ديمقراطي يقوم على اساس الاقتراع السري والنظام التعددي بعد ان كان النظام السابق ينتهج سياسة الحزب الواحد وفي خضم هذه الاحداث تعددت رؤية القوى السياسية للنظام الاتحادي الفيدرالي، فالقوى السياسية السنية التي كانت تحكم من خلال النظام المركزي تمسكت بالنظام المركزي رافضة مشروع الفيدرالية محتجة بان الفيدرالية بذرة لتقسيم وتمزيق البلد الواحد، وما تمسكهم هذا الا لكونهم اقلية والنظام المركزي يثبت وجودهم اذا ما طبق في العراق مجدداً فضلاً عن خوفهم من ذهاب ثروات البلد في الوسط والجنوب الى اهلها والشمال الى اهل الاكراد في حين ان تقسيم الثروات تساوى فيه الجميع بحكم الدستور ويكاد يتفق الاكراد مع الشيعة على عدم جدوى النظام المركزي ويجب تطبيق الفيدرالية بوصفها حقاً يكلفه الدستور ايضاً، وهناك فئة من الشيعة ترى ان يكون الحكم حكماً لا مركزياً كبذرة اولى ومن ثم عند نمو هذه البذرة وازدهارها على كافة الصعد تطور الى نظام فيدرالي.

وحين احتجت الاحزاب الشيعية على ما ذهبت اليه الاحزاب السنية من رفضها للمشروع الفيدرالي بحجة التقسيم بالنظام الفيدرالي المطبق في شمال العراق لدى الاكراد وبخاصة التجربة من كونها لا تمثل تقسيماً للبلد الواحد فضلاً عن تشابه الظروف التي تعرض لها الشيعة على يد النظام البائد مع ما تعرض له الاكراد ايضاً من خلال القهر والاضطهاد والظلم والحيث والتهميش رد قادة الاحزاب السنية على ذلك بقولهم: "ان الذي حصل للاكراد على مدى عشرات السنين يستحق النظر الى واقعهم ومستقبلهم بطريقة مختلفة تتناقض الافكار في الوسط والجنوب، هذه ليست ازدواجية في النظرة الى الفيدرالية، وموافقتنا

على فيدرالية كرمستان ورفضنا لفيدرالية الوسط والجنوب سببها ان الاكراد تحملوا على مدى عشرات المنين كل هذا العناء ولا بد لهم من التعويض، ربما نترك لهم الحرية في تقييم اوضاعهم الحالية ومستقبلهم وان يعطوا حصة من الميزانية العراقية ليعوضوا ما ضاع والعمل على استثمار وتطور وتنمية محافظاتهم، ولا ننسى ان الاكراد لديهم خصوصية فيما يتعلق بطبايعهم ومناطقهم وثقافتهم وظروف حياتهم بالرغم من انهم جزء من الشعب العراقي⁹.

ومع ان السنة كانوا يرفضون فيدرالية الشمال جملة وتفصيلاً الا انهم اقتنعوا بها مؤخراً لانهم رؤوا امراً واقعاً يفرضه الواقع بشدة، ورب سائل يسأل ويقول: ان ما جرى للاكراد وعليهم بفعل النظام السابق جرى للشعبة في الوسط والجنوب، فلم لا تكون فيدرالية الوسط والجنوب امراً يفرضه الواقع ايضاً، ولا سيما ان مقومات النظام الفيدرالي ودواعيه وموجباته متوافرة وهي ما يدعو الى ان يكون النظام الفيدرالي نظام الحكم في العراق ولو على المدى المستقبلي.

هل الفيدرالية مناسبة لوضع العراق الراهن؟

عرفنا مما تقدم ان الفيدرالية هي اتحاد مجموعة من الدول في دولة واحدة مع تنازل هذه الدول عن صلاحيتها وسيادتها وحدودها لصالح الحكومة المركز. ولما كان العراق دولة واحدة وغير مقسم ابتعد تطبيق الفيدرالية في الوقت الراهن فضلاً عن ان الفيدرالية تؤدي الى تقسيم البلد في الوقت الراهن اذا ما طبقت، فهي في كل الاحوال بذرة التقسيم، والحقيقة ان اقليمياً يمتد من جنوب بغداد الى الفاو لهو دولة وهذه الدولة تحتاج الى امكانيات ادارية غير متوافرة حالياً، وتحتاج الى ميزانية ضخمة ايضاً لرسم حدود الفيدرالية بأنتم صورة بما تحتاجه من تمثيل دبلوماسي وما تتطلبه الدولة من قضايا رسمية. ولا ننسى ان في وسط العراق وجنوبه خلافات بين الاحزاب السياسية قد تهيم على الساحة فتكون الفيدرالية

⁹ الاسبوعية (مجلة)، العدد ١، كانون الاول ٢٠٠٧م، من حديث للدكتور طارق الهاشمي.

معللة وغير صحيحة وينمو التفكك والاستقرار، وتشجيع الفوضى في اقليم جنوبي بغداد اذا ما طبق.

واذا انتظمت كل محافظة في اقليم فهذا ايضا يحتاج الى كفاءات ادارية، اذ يصبح كل اقليم (محافظة) دولة وهذا يتطلب وزارات ودوائر بمختلف اختصاصها مما يرهق الاقليم وشئت ثروة البلد ويهدرها، عندئذ تكثر الاخطاء والهفوات عند اصحاب القرار ولا نغفل ان المحافظات اليوم تعيش تحت وطأة التخلف الاداري وهو المسبب الكبير في فشل الادارة فيها ومن ثم فشل كثير من المشاريع وغياب المشاريع التنموية الاستراتيجية.

اننا نقول بأمانة ان الوضع الذي يحتاجه العراق حالياً هو اللامركزية القريبة من الفيدرالية، التي تتمتع فيها المحافظات بصلاحيات واسعة لاننا حديثو عهد بالديمقراطية والفيدرالية تتطلب نضجاً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً فضلاً عن ان اللامركزية بمرور الوقت تكشف لنا حاجة العراق للفيدرالية مستقبلاً فاذا ما توافرت الخبرة الادارية واستقر الوضع الامني وتوافرت الميزانية اللازمة، ووعي المجتمع معنى الفيدرالية عندئذ يمكن ان نلجأ الى تشكيل اقليم كان يكون كل اقليم من ثلاث محافظات وشيئاً فشيئاً يسير العراق نحو الاستقرار وتسير معه الفيدرالية فاذا ما نجحت هذه التجربة يمكن ان توحد هذه الاقاليم في اقليم واحد اذا ما أرتأى الشعب في هذه الاقاليم، وكل ذلك مرهون بما تقدمه اللامركزية اولاً والفيدرالية التي تأتي بعدها ومن ثم الاقليم الموحد، فاللامركزية هي الحل الامثل والناجح والمناسب لما عليه العراق في الوقت الراهن وليس الفيدرالية.

الخلاصة:

فيما تقدم تبين لنا ان حضارة وادي الرافدين احرزت قصب السبق فيما بين الحضارات القديمة، فكانت رائدة بحق في المجالات كافة، الامر الذي يدعو الانسان العربي بعامة والعراقي بخاصة الى الاقتداء بها دون الاتكاء عليها، فله ان يؤسس وان يعمد الى ادارة شؤونه في الحياة ادارة تستند الى ماض رصين وتتطلع الى مستقبل مشرق ومن ذلك شكل النظام الذي يتخذه الانسان لنفسه ولغيره، مادام الانسان خليفة الله سبحانه وتعالى في الارض والفيدرالية شكل من اشكال الانظمة والادارة توحد الدول لتجعلها قوية بعد ضعف ومحددة بعد تقسيم شريطة ان تتعاون الاطراف كلها باتجاه هدف واحد هو المصلحة العامة للعراق. ومما يشد المواطن نحو الفيدرالية هو كفالة للقانون لها وضمانة الدستور دون ان تكون الفيدرالية، حاجة كمالية او رغبة عابرة، بل هناك دوافع تدعو اليها واسباب معتبرة تلجئ الشعب الى التفكير فيها من ثم التصويت عليها وتطبيقها ولاسيما في اقليم الوسط والجنوب اسوة باقليم الشمال في شمالنا الحبيب، وهذا لا يعني ان النظام الفيدرالي يحظى بقبول كل الاطراف السياسية العراقية بل ان مواقفها تتباين قوة وضعفاً وقبولاً ورفضاً، ويبقى الشعب هو من يقرر شؤونه بنفسه دون اكراه من احد او قسر، هذا ما يكفله القانون ويضمنه الدستور.

اما نحن فنقول: بما ان الفيدرالية وكما مر تعريفها هو اتحاد دول مقسمة وان العراق هو دولة واحدة موحدة فان افضل ما يحتاجه هو النظام اللامركزي اي الزيادة في الصلاحيات لحكومة الاقليم او الحكومة المحلية مع بقائها منضوية تحت حكومة المركز للمحافظة على هبة النظام ومركزيته، وبعد ان تنتهي الظروف المناسبة للفيدرالية بامكان الاقاليم ان تستقل ولكل حادث حديث.

عرض كتاب: الدكتور ناظم عبد الواحد الجاسور
المرجعية الفكرية للخطاب السياسي الاستراتيجي الامريكي
ما بعد الحادي عشر من ايلول / سبتمبر ٢٠٠١
الناشر: (دار النهضة العربية- بيروت- الطبعة الاولى- ٢٠٠٦)

٢٠٨ صفحة

عرض: المدرس المساعد
 زياد طارق (*)

لا يمكن ان توصف عمليات ضرب برجى مركز التجارة العالمي في نيويورك في الحادي عشر من ايلول ٢٠٠١ حيث مركز القوة الاقتصادية الرأسمالية الغربية ومبنى البنتاغون حيث مركز القوة العسكرية الامريكية وفشل الهجوم الثالث على البيت الابيض حيث مركز سلطة القرار السياسي الامريكي الا انها "زلازل" هز الولايات المتحدة الامريكية بكل مؤسساتها ومستوياتها. الى جانب ذلك شهد التاريخ البشري سلملة من الحوادث الكبرى التي قلبت كل المفاهيم التي كانت سائدة رأساً على عقب الامر الذي، ليس فقط في اطار نظام القيم في المجتمع الامريكي، وانما على مستوى الفكر السياسي الغربي، والامريكي تحديداً. كل ذلك دفع الكاتب الى القول في مقدمة كتابه ان الخطاب السياسي الاستراتيجي الامريكي ما بعد احداث الحادي عشر من ايلول استند الى مرجعية فكرية تقوم على ثلاثة محاور:-

-الميراث اليهودي، المسيحي المشترك

-حتمية الصراع بين الحضارات، وخصوصاً ما بين الغرب والاسلام "بحدوده الدمية الواسعة" مقابل نظام دولي جديد يعاد تشكيله على وفق التطورات الاستراتيجية للقرب الدولي الواحد.

-اما الامناد الثالث فيشير الى ان نهاية التاريخ فرضت نمطاً جديداً من القيم التي انتصرت على الشيوعية ولا بد ان تواجه تحدياً من قيم أخرى، وكما يقول "برنارد لويس"

عندما حذر الغرب فائلاً "قد دقت طبول الاسلام فعلى اوروبا ان تعد للعدة" في الوقت الذي جاء مؤكداً بأن الاسلام قد هزم الديمقراطية الليبرالية في عدد كبير من دول العالم الاسلامي وشكل تهديداً على الممارسات الليبرالية، الامر الذي يتطلب "خلق شفافة عالمية قائمة على المبادئ الاقتصادية الليبرالية" وان الممارس الفعلي للتطور التاريخي في الديمقراطية الليبرالية، وحسب رأيه فإنه في نهاية التاريخ ليس هناك ايديولوجية تبقى منافسة للديمقراطية الليبرالية.

يرى الكاتب ومن اجل فك الاشكالية القائمة بين الصراع الذي شكل محور تصورات صدام الحضارات عند هنتغتون "وما سبقه من فلاسفة ومفكري القرن التاسع عشر الاوروبيين، واصبح سمة من سمات المركزية الأوروبية لا بل واصبح الرمح الذي تلاقفه ساسة النظام الدولي الجديد لبناء الهنتغتونية، مقابل الحوار او التعايش الذي له شروطه وعناصره الاساسية والذي تدعو اليه الحضارات الاخرى التي لا تقرض "الصراع مع الآخر وبالشكل الذي يتعارض مع قيم شفافتها، وعلى هذا رأى الكاتب ضرورة ضبط المسألة أولاً مصطلحاً واشكالية وهذا ما انطلق منه الكاتب من خلال تحديده المفهوم المصطلحي لحضارة والصراع والحوار لاجل حل التناقض القائم ليس فقط من ناحية القطيعة المعرفية والجمعية الحضارية وانما من خلال الاهداف السياسية الكامنة في المضمون الذي يطرحه الفكر الغربي المعاصر وارساء شروط الحوار بدلاً من اقضاء الآخر عنوة من مسيرة التاريخ خصوصاً وان هناك من يعتقد في الفكر الامريكي المعاصر الذي طرح تصورات في "الحرب العادلة" بأنه من المستحيل ان يحصل "حوار ما بين الحضارات" وهذا ما اكد في العديد من الدراسات والمقالات الامريكية والاوروبية.

الى ذلك يشير الكاتب انه ومن جهة اخرى هناك مفكرين اقروا بضرورة الحوار لا بل ذهبوا الى القول بأن العالم ثورة حضارية انسانية واحدة.

وفي تحليله لـ "فوكوياما" ونظريته في "نهاية التاريخ" يرى الكاتب ان فوكوياما رسم خط سيرة ليصل الى نهايته و"الانسان الاخير" بعد ان قدم صورة "الانسان الاول" ملخصاً نهاية التاريخ في فكر فوكوياما بالقول الى ما يمكن ان يسمى بقدر المقاومة... التفسير المادي للتاريخ في صورته للرأسمالية" فيرى فوكوياما ان يمكن ان يجري تفسير التطور في التاريخ

جزئياً بناءً على أساس اقتصادي أي أن العامل الاقتصادي هو أحد المحركات الرئيسية في التطور جزئياً بناءً على أساس اقتصادي أي أن العامل الاقتصادي هو أحد المحركات الرئيسية في التطور التاريخي ولكن هذا التطور يؤدي إلى الرأسمالية بدلاً من لاشتراكية كنتيجة نهائية، وبهذا يوجد للتاريخ نهاية ونهاية التاريخ هي الليبرالية الديمقراطية في السياسة الرأسمالية في الاقتصاد.

ينتقل الكاتب بعدها ليناقد فكرة "صدام الحضارات" عند هنتغتون... الذي أكد في بداية مقالته التي نشرت ١٩٩٣ "بأن سياسات العالم بدأت تدخل في مرحلة جديدة "منطلقاً في ذلك من فرضية تقول "أن المصدر الجوهري للصراعات في هذا العالم الجديد لن تكون بالدرجة الأولى أيديولوجياً أو اقتصادياً، فالانقسامات الكبيرة بين الجنس البشري والمصدر المهيمن للصراعات سيكون ثقافياً وستبقى الدول القومية صاحبة أقوى دور في الشؤون العالمية ولكن الصراعات الرئيسية للسياسات الكونية ستحدث بين الدول والمجموعات المنتجة لحضارات مختلفة وسيهيمن صدام الحضارات على السياسات الكونية وستكون خطوط الصراع بين الحضارات هي خطوط معارك المستقبل وسيكون النزاع بين الحضارات أحدث مرحلة في تطور النزاعات في العالم الحديث... وستعرض الكاتب آراء مجموعة من الكتاب والباحثين العرب والغربيين مشيراً إلى أفكارهم فيما يخص صراع الحضارات.

ويفرد الكاتب جزءاً خاصاً من كتابه لنقاش صراع الحضارات من وجهة نظر عربية إسلامية.

في الجزء الثاني من الكتاب يبحث في موضوع صراع الحضارات بعد أحداث الحادي عشر من أيلول ويؤكد أن أحداث أيلول وما شهدته الولايات المتحدة أعادتها من جديد إلى ساحة النقاش الفكري والسياسي والاستراتيجي لمقولات مطلع عقد التسعينات من القرن المنصرم ولا سيما مقولة "صدام الحضارات" وإيضاً ما بين مؤيد لهذا التفسير السياسي "الحضاري التنصاري" الذي رأى أن أحداث أيلول كانت نتيجة حتمية لهذا التنصارع التاريخي الحضاري "بين الغرب والإسلام" وكان متوقفاً حصوله، ويذهب الكاتب للإشارة هنا إلى منظري مقولتي... نهاية التاريخ و"صدام الحضارات" انهما عادي ونشأ مقالات أخرى

صبت في مواجهة "الخطر الأخضر الجديد" من خلال بيان المثقفين الأمريكيين الذي وقعه ستون مثقفاً أمريكياً بينهم فوكوياما وهنتغتون وبرنار ولويس" والبيان المعارض لـ "الحرب العادلة" الذي دعا اليه اصحاب البيان الاول ووقعه اكثر من ستون مفكراً ومثقفاً أمريكياً بينهم نعوم تشومسكي وادوارد سعيد، عكست هذه البيانات الصادرة في الولايات المتحدة والتي كان آخرها بيان "ليس بأسعنا" اختلاف رؤية المثقف في الولايات المتحدة للأمر كياناً وحضارة وثقافة (نصوص هذه البيانات افرد لها الكاتب الجزء الاخير من الكتاب).

ويشير الكاتب ان هذه المقالات والبيانات شكلت من المراجع الفكرية والسياسية والاستراتيجية للعديد من مراكز القرار السياسي الغربي-الامريكي حيث انها لم تؤكد فقط على تنبؤات المقولات السابقة وانما رسمت للصورة المستقبلية للسياسة الدولية في اطار المتغيرات الحالية ليس فقط في مجال الامن والسياسة والاقتصاد وانما في الفكر السياسي المعاصر الذي غلبت ملامحه في العديد من التصورات الجديدة التي طرحت في المقالات والمقالات الجديدة التي فعلت بها الدوريات الأمريكية والأوروبية. لهذا استند الكاتب في تحليل افكاره على افكار اعمدة الفكر السياسي الأمريكي المعاصر آراء احدث اولول وبيان الحرب العادلة وما اثارته هذه الرؤية والبيان من ردود افعال معارضة او متناظرة سواء كانت اطراف عربية او غير عربية والتي عبرت عن وجهة نظرها بشكل موضوعي من دون افكار مسبقة عما جرى في ايلول ٢٠٠١ محدداً الاسباب والدوافع واسس الحوار ومشروطة بدلاً من الصراع والنظرة الاسعائية والداعية لقراءة موضوعية لاسباب وجذور الارهاب والتخلي عن سياسات القوة وحل المشاكل والازمات بالطرق السلمية، وعدم اختزانها في رؤية احادية، وناقش الكاتب ذلك من خلال كتابات هنتغتون عن الاسلام المتأمر، وكان مدخل الكاتب لذلك عرضه لابرز الافكار والمحاور التي جاءت خلال مقابلة اجرتها احدي المجلات الفرنسية مع الفكر "هنتغتون" عام ٢٠٠١ توصل للكاتب بعد عرضه للمقابلة الى ملاحظة عامة تقول "ان هناك تراجع في مقولات وافتراضات هنتغتون التي ضمنتها مقالته او الكتاب الذي صدر فيم بعد ولاسيما فيما يخص حتمية الصراع بين الاسلام والغرب رغم انه اكد على عدم الانسجام ما بين الاسلام والديمقراطية، ونفى ان تكون للدول الاسلامية القدرة

على تبني "النموذج والديمقراطي الغربي" ما عدا تركيا المتحالفة عسكرياً وسياسياً مع الغرب."

وبهذا فإن الكاتب استنتج من حديث هنتغتون بأن أي دولة يمكن تبني الديمقراطية الغربية إذا تخلت عن ثقافتها وموراثيها الدينية، الأمر الذي يدفعه إلى التشكيك في أن يكون الإسلام الأمريكي منجسماً قيم المجتمع الغربي، ويعتقد بأن هناك إمكانية أن تنصر قيم الكاثوليك والبروتستانت وحتى اليهود في بوتقة واحدة إلا الإسلام، ويشدد على أن ما يقلق الولايات المتحدة هي مسألة (الديمقراطية) التي يجب أن ينص تطبيقها في الدول غير الديمقراطية إلا أنه وحسب رؤية طالما بقيت غائبة فإنها عامل لعدم الاستقرار، وإذا كان هنتغتون يجيز "التدخل" لنشر الديمقراطية وخصوصاً في الصين فإنه يدعو الغرب إلى تبني موقفاً "دفاعياً" ضد الحضارات الأخرى وإمكانية استخدام القوة العسكرية لحماية "مصلحته الحيوية" التي ليس هناك من عدو يواجهها إلا العدو "الأخضر" الذي لم يحدده هنتغتون في المقابلة وإلى جانب ذلك أشاد الكاتب إلى المقالة التي نشرت في ٢٠٠٢ لـ "فوكاياما" عن نهاية النموذج الأمريكي وتحديداً في الملف الخاص عن الإرهاب تحت عنوان "همهم العالم المعاصر" الذي انطلق في أسطره الأولى إلى القول "أن العدو الحقيقي أصبح المسلمون المتطرفون المتعصبون لكل خلاف وشقاق، هم فاشست يومنا الحالي، وهذا ما نقاتل ضده".

يرى الكاتب في هذه العبارة، أن فوكوياما على أن مجريات السياسة الدولية تغيرت اتجاهاتها بعد أحداث أيلول إلى ذلك يختم فوكوياما مقالته بالقول "أن الصراع الدائر بين الديمقراطية الليبرالية الغربية والإسلامية. الفاشية، ليس صراعاً متكافئاً بين نظامين حضاريين قابلين للتطور فكليهما يمكن أن من إخضاع العلم والثقافة لأغراضهما، وبحصلان على الثروة ويتعاملان مع الواقع المتباين للعالم المعاصر".

إلى ذلك يؤكد الكاتب أن كتابات فوكوياما تذهب جميعها لتؤكد "أن الإسلام يمثل أكبر تحدٍ أيديولوجي للديمقراطيات الغربية، وأخطر من التحديات التي كانت تمثلها الشيوعية".

وفي تحليله لمقالة كتبها هنتغتون نشرت ٢٠٠٢ والتي جاءت تحت عنوان "حروب المسلمين بدلاً من الحرب الباردة" والتي انطلق فيها هنتغتون من أن العالم يمثل قتال واسعة

متسائلاً عن اسبابها وجنورها مشدداً على احتمالية نشوب صراع بين الحضارات هو قائم الآن.

ذلك لان السياسات العالمية المعاصرة هي عصر حروب المسلمين، فالمسلمون يقاتلون بعضهم البعض ويقاتلون غير المسلمين اكثر بكثير مما تفعله شعوب الحضارات الاخرى. وعلى هذا يرى الكاتب ان هنتغتون تجاهل تماماً حروب التدخل الامريكية التي اشعلتها في العالم منذ الحرب الكورية وفيتنام والتدخل في الدومنيكان وبنما وغرينادا وغيرها من الحروب ولم يبق امامه الا المسلمين الذين جعلوا من العالم ساحة قتالهم.

وعلى ما تقدم يرى الكاتب ان الخطاب السياسي الامريكي وجد من يقوم له بالتفسير في اصداء المفاهيم الخاصة بـ "حالة الاتحاد" الذي القاه بوش الابن مذكراً العالم بأن الولايات المتحدة الامريكية هي مصدر الخير كله وان العالم الاسلامي هو أصل الشر كله "ويرى الكاتب هن ان منظري السياسة الامريكية وخصوصاً أولئك الذين كرسوا مقالاتهم في مجلة نيوزويك ٢٠٠٢ تناولوا الجوانب التي سوف تعمل بها الادارة الامريكية الحالية والقادمة لوضع العالم الاسلامي في الحجم المكانة التي يرونها مناسبة له ومهمة الولايات المتحدة بعد تدمير ما هو قائم في افغانستان ان نتقدم نحو "تجفيف مستنقع التطرف الاسلامي" او اجبار الدول الاسلامية على تغيير المقررات الدراسية لطلبة المدارس في المراحل كافة بما ينلائم والسياسة الامريكية "صورتهما الحمسة" في المنطقة.

وفي ختام الكتاب اكد الكاتب ان تهافت المقولات التصارعية، ونهاية التاريخ وقيمتها الحضارية وما يروج له الآن من حروب الارهاب مفتوحة النهايات يكمن في هذه الاخطار نفسها، وذلك ان معظم الحروب والنزاعات التي اندلعت منذ اكثر من خمسة قرون وما زال يعرفها العالم اليوم تحت أي من المسميات التي اتخذتها هي حروب اندلعت وتطورت في حضي جماعات وحضارة واحدة تستند الى مرجعيات دينية وفكرية وسياسة واحدة، الامر الذي يقوض من الاساس بأن الاختلافات الثقافية مصدر النزاعات، ويؤكد الكاتب رأيه بالقول ان حروب نابليون والحرب العالمية الاولى والثانية لم تكن حرب حضارات او تمايزات ثقافية وان اطلاق الصراع الثقافي-الحضاري لم يكن الا مشروعاً اوسع للهيمنة الاستراتيجية

تفرضها هذه القوة او تلك من القوى الدولية وبحكم الرهان التاريخي والظرو الدولية وسياستها القائمة، فالدول وحسب رأي الكاتب هي التي تتحكم بالعلاقات والروابط الحضارية وليس العكس، فالصراع كان وسيبقى صراعاً حول قضايا سياسية واقتصادية ملموسة وليس على اساس حضاري واختلاف خطوط الصراع بينهما واذا كان المستقبل يرسم صورة حرب بين الحضارات كنزويج لهذه الافكار السياسية التي طرحت بعد احدث الحادي عشر من ايلول فهو ان مستقبل الحرب الدائمة التي لا نهاية لها.

وننتق مع الكاتب في القول ان الخروج من هذه الحلقة المفرغة وكوابيس الارتياب من الآخر والتخلي عن "سمو الذات الغربي و"تدني" الآخر يكمن في حوار حضاري سياسي يجمع الثقافات ويؤطر الهويات رغم تعددها وتنوعها.

**Ministry of Higher education
And Scientific Research**

**AL-Mustansiriyah University
College of political Sciences**



The International and Political Journal

ISSN = 1991- 8984